المشروع القومى للترجمة

فى انتظار البرابرة

تأليف

ج. م. كوتزى

ترجمة

ابتسام عبد الله



٢٠٠٠

هذه ترجمة لرواية:

Waiting for the Barbarians

By

J.M.Coetzee

١

لم أر قط شيئاً يماثله: قرصان صغيران من الزجاج معلقان أمــام عينيه بعروتين من سلك. أهو أعمى ؟ بمقدورى أن أفهم الأمــر إن كــان يريد إخفاء عماه. لكنه ليس أعمى. القرصان أسودان، يبدوان مستديرين من الخارج، لكنه قادر على الرؤية مــن خلالهمــا. يقول لى إنهما اختراع حديث. ويقول: "انهما يحميان عينى المرء من توهج أشعة الشمس، ستجدهما مفيدين. هــنا، فى هــذه الصــحراء. إنهما يحميان المرء من التحديق باستمراره وسيصاب المرء بحالات صداع أقل، انظر". يتلمس زوايا عينيه برفق، "لا تجاعيد". يعيد العدستين إلى مكانهما. ما يقولـــه صحيح، وهو يمتلك بشرة رجل أقل سنا. "فى الوطن، يرتديهما كل واحد".

نجــلس فى أفضل غرفة فى الفندق، بيننا دورق وطاس من المكســرات. لا نــناقش ســبب وجوده هنا. إنه هنا بسبب قوة الطــوارئ وفى ذلك الكفاية. بدلاً عن ذلك نتحدث عن الصيد. يحكى لى عن آخر رحلة صيد كبيرة ذهب إليها، عندما تم ذبح آلاف الغــزلان والخنازير والدببة، الكثير جداً منها، بحيث إن جبلاً من أجساد الذبائح تكون وتوجب تركها لتتعفن "كان أمراً مؤســفاً". أحكى له عن القطعان الكبيرة للأوز والبط التى تهبط

نحـــو الـــبحيرة، ســـنوياً، فى هجرتها، وعن الوسائل المحلية لاصـــطيادها. أقـــترح أن آخـــذه خارجاً للصيد ليلا فى قارب محلى. أقول: "تلك تجربة لا يمكن أن تفوتك. يحمل الصيادون مشـــاعل متوهجة ويضربون على الطبول، فوق الماء، لتوجيه الأسماك نحو الشباك التى نصبوها". يومى برأسه. يحدثنى عن زيـــارة قـــام بهـــا إلى مكان آخر من الحدود حيث يأكل الناس ثعابين معينة كطعام مترف، وعن وعل قام باصطياده أيضاً.

يختار طريقه بحذر بين قطع الأثاث الغريبة عنه، ولكنه لا يـــنزع عدستيه السوداوين. يأوى إلى فراشه مبكراً. إنه استقر هنا فى الفندق، لأنه المكان الذى يقدم أفضل الخدمات فى البلدة. لقد أعطيت انطباعاً للعاملين فى الفندق بأنه ضيف مهم. "العميد جـــول مـــن المكتب الثالث"، هكذا قلت لهم، وأضفت، "المكتب الثالث هو أهم الفصائل فى الحرس الوطنى، فى هذه الأيام. هذا ما نسمعه، على أى حال، فى الأقاويل التى تردنا، متأخرة، من العاصـــمة. يـــومئ مـــالك الفندق برأسه، وتخفض الخادمات رؤوسهن. "علينا أن نترك انطباعاً جيداً لديه".

أحمل فراشى خارجاً، على المتاريس، حيث نسيم الليل يمنح بعـــض الـــراحة مـــن الحر. على الأسطح المنبسطة للمدينة، أستطيع أن أميز، على ضوء القمر، أشكال نائمين آخرين، ومن تحـــت أشـــجار الجـــوز، على الساحة، لا أزال أسمع دمدمات مناقشـــة مـــا. يـــتوهج غليون فى العتمة مثل براعة، يتضاءل

الوهج، ثم يتقد ثانية. الصيف يدور نحو نهايته. أشجار البساتين تتأوه تحت أثقالها. لم أشاهد العاصمة منذ كنت شاباً.

أستيقظ قبل الفجر. أجتاز، على رؤوس أصابع قدمى، الجنود النائمين، الذين يتحركون قليلاً ويتنهدون، يحلمون بأمهات وحبيبات، أنزل الدرجات. آلاف النجوم فى السماء تتطلع إلينا من فوق. حقاً، نحن هنا على سقف العالم. الاستيقاظ فى الليل، فى مكان مفتوح، يبهر النفس.

الحارس عند البوابة، يجلس متقاطع الساقين، غارقاً فى النوم، يحتضن بندقيته. مضجع البواب مغلق، عربته تقف فى الخارج. أمرّ.

* * *

"لا توجد لدينا تسهيلات للسجناء"، أفسر الأمر وأقول: "لا توجد جرائم كبيرة هنا، والعقوبة، عادة، غرامة أو عمل إلزامى. هذا الكوخ، هو ببساطة، غرفة ملحقة بمخزن الحبوب، كما يمكنك ملاحظة الأمر. " الهواء ثقيل فى الداخل وذو رائحة كريهة. لا نوافذ هنا. السجينان يستلقيان مقيدين على الأرض. الرائحة تفوح منهما. رائحة بول قديم. أنادى على الحارس للدخول: "دع هذين الرجلين ينظفان نفسيهما، وأسرع رجاءً".

أتقدم ضيفى إلى داخل مخزن الحبوب البارد المظلم. "تأمل

بثلاثة آلاف (بوشل)(*) هذا العام، من الأرضٍ المشتركة. نحن نـــزرع مرة واحدة فقط. الجو كان رحيماً جداً بنا". نتحدث عن الجـــرذان ووســـائل الســـيطرة على أعدادها. عندما نعود إلى الكوخ، نجد رائحة رماد رطب تفوح منه، والسجينين مستعدين، راكعيـــن فى زاوية. أحدهما رجل كبير السن، والآخر صبى. أقـــول: "لقد سجنا منذ أيام قليلة. كانت هناك غارة على مسافة عشـــرين ميـــلا من هنا. ذلك أمر غير طبيعى. إنهم، اعتيادياً، يحرصـــون على البقاء بعيداً عن الحصن. اعتقل هذان الاثنان بعدئـــذ. يقولان ألاّ علاقة لهما بالغارة. لا أعرف. ربما يقولان الحقيقـــة. إن كنت تريد التحدث معهما، سأقدم، بطبيعة الحال، مساعدتى فيما يخص اللغة".

وجـــه الصبى منتفخ وبه كدمات، عين واحدة منغلقة تورماً. أجلس القرفصاء أمامه وأربت على خده. "أنصت يا ولد"، أقول ذلك باللهجة المحلية للحدود، وأضيف: "نريد التحدث إليك".

لا تصدر منه استجابة ما.

يقول الحارس: "إنه يتظاهر، إنه يفهم".
أسأل، "من ضربه؟"

يقول: "لم أكن أنا. كان هكذا عند مجيئه".

(*) بوشل Bushel : مكيال يعادل جالون.

أسأل الصبى: "من ضربك؟"

إنه غير مصغ إلىّ. يتطلع من فوق كتفى، ليس إلى الحارس ولكن إلى العميد جول بجواره.

استدير نحو جول وأشير: "ربما لم ير شيئا مثله من قبل. أعنى العوينات. لابد أنه يعتقد بأنك أعمى. ولكن جول لا يبادلنى الابتسام. يبدو أن المرء أمام السجناء يحافظ على مظهر معين.

أجلس القرفصاء أمام الرجل العجوز. "أيها الأب، أصغ إلىّ. لقد جئنا بك إلى هنا لأننا قبضنا عليك بعد غارة على المواشى. أنت تعلم أنها مسألة مهمة. تعرف أنك قد تعاقب عليها".

يخرج لسانه لترطيب شفتيه. وجهه كئيب ومتعب. "أيها الأب. هل ترى هذا السيد؟ هذا السيد يزورنا، قادماً من العاصمة. إنه يزور كافة الحصون على امتداد الحدود. عمله هو التعرف على الحقيقة. هذا هو كل ما يفعله. يتعرف على الحقيقة. إن لم تتحدث معى، فسيكون عليك التحدث معه. هل تفهم؟". "صاحب السعادة".. يتحشرج صوته، ينظف بلعومه "صاحب السعادة نحن لا نعرف شيئاً عن السرقة. لقد أوقعنا الجنود وربطونا بإحكام. من أجل لا شىء. كنا على الطريق، قادمين إلى هنا لرؤية الطبيب. هذا ابن شقيقتى. لديه جرح متقرح لا يتحسن. نحن لسنا بسُرّاق. أظهر قرحتك لصاحب السعادة".

بخفـــة، وبيـــد واحدة وبأسنانه يبدأ الصبى بفك الخرق التى تضـــمد ســـاعده. اللفات الأخيرة منها ملوثة بالدم والقيح، لكنه يرفع حافاتها ليرينى الحافة الحمراء المحتقنة للورم.

يقـــول الـــرجل العجوز، "كما ترى، لا شىء يشفيها. كنت أجلبه إلى الطبيب، عندما أوقفنا الجنود. هذا كل ما فى الأمر".

أعـــود أدراجى مع ضيفى عبر الساحة. تمر بنا ثلاث نسوة قادمـــات من خزان الرى يحملن سلال الغسيل على رؤوسهن. يتطـــلعن إليـــنا بفضول. محتفظات بأعناقهن متصلبة. الشمس تجلدنا.

أقـــول، "منذ أمد بعيد، لم نحتجز غير هذين السجينين. إنها المصـــادفة. فى الحالات الاعتيادية، لا يكون لدينا أىّ بربرى على الإطلاق، حتى نريك إياه. ما يسمى بلصوص قطع الطرق لا يعنى الكثير. إنهم يسرقون بعض الخراف أو يقطعون وثاق دابـــة مـــن قطار. نحن نشن هجوماً مقابلاً عليهم أحياناً. إنهم أساســـاً، رجـــال قـــبائل معوزين، يمتلكون قطعانا محدودة من المواشى، يعيشون على ضفاف النهر. إنها تصبح وسيلة للحياة. يقول الرجل العجوز إنهما كانا فى طريقهما لرؤية طبيب. ربما هى الحقيقة. لم يكن أحد سيصطحب معه رجلاً عجوزاً وصبياً مريضاً فى فريق هجوم.

أزداد وعيا بأننى سأصبح مدافعا عنهما.

"بالـــتأكيد، لا يمكـــن للمرء أن يكون جازماً. ولكن حتى إن كانا كاذبين، كيف يمكنهما أن يكونا ذوا فائدة بالنسبة لك. أناس بسطاء مثلهما"؟

أحـــاول أن أخفـــف انفعالى تجاه صمته المحير الذى يخفى شـــيئاً، وإزاء الغمـــوض المســـرحى الردىء لحاجبيه الداكنين اللذين يخفيان عينين سليمتين. يسير ويداه مشبوكتان أمامه، مثل امرأة.

يقـــول، "على الرغم من ذلك، يتوجب على استجوابهما، هذا المســـاء، إن كـــان الوقـــت ملائمـــاً. سآخذ معى مساعدى، كما سأحتاج إلى شخص ما يساعدنى فى اللغة. ربما الحارس. هل يتحدث تلك اللغة؟"

"بإمكاننا جميعاً التفاهم. هل تفضل عدم وجودى هناك؟"

"ســـتجد الأمـــر مـــرهقاً. لقـــد وضعنا الإجراءات وسنقوم بتنفيذها".

* * *

من الصراخ الذى ادعى الناس بعدئذ أنهم قد سمعوه آتياً من مخـــزن الحـــبوب، لـــم أسمع أنا شيئاً. فى كل لحظة من ذلك المســـاء، وأنا ماض فى عملى، أدرك ما كان ممكناً أن يجرى. وســـمعى يتوافق مطردا مع ذروة الألم البشرى. ولكن مخزن

الحــبوب، مبنى ضخم، ذو أبواب ثقيلة ونوافذ صغيرة. إنه يقع خــلف المسلخ والطاحونة، فى جهة الجنوب. وفضلا عن ذلك، فــإن ما كان يوما مخفرا" أماميا" ثم حصنا على الحدود، قد نما وتطــور إلى مســتوطنة زراعية، بلدة يبلغ عدد نفوسها ثلاثة آلاف نسمة، حيث صوت الحياة، الصوت الذى يصدر عن كل هــذه الــنفوس، فى أمسية صيف ساخنة، لا يهدأ، إذ لا بد من وجود أحد ما يبكى فى مكان ما. (بدرجة معينة، أبدأ فى الترافع عن قضيتى الخاصة).

عــندما أرى العميــد جول ثانية، لمّا يكون متمتعاً براحته، أتطــرق فى الحديث إلى التعذيب. أسأل، "ماذا لو كان سجينك يقــول الحقيقــة، ومــع ذلك لا يجد من يصدقه. ألا يعد الأمر فظيعــا؟ تخيل: أن تستعِد للاستسلام، تستسلم، إن لا تملك شيئا آخــر تستسلم له، إن تُحطم، مع ذلك، يضغط عليك للاستسلام أكــثر! وأى مســؤولية لمن يقوم بالاستجواب! كيف يمكنك أن تعرف أبداً إن كان الرجل قد أخبرك الحقيقة؟"

يقــول جــول، "هناك نغمة معينة فى الصوت. نغمة معينة تدخل إلى صوت رجل ما يقول الحقيقة. التدرب والخبرة تعلمنا تمييز تلك النغمة".

"نغمــة الحقيقــة! هل بإمكانك التقاط هذه النغمة فى الحديث اليومى؟ هل أنت قادر على سماع ما إذا كنت أقول الحقيقة؟"

هــذه الــلحظة هى الأكثر ألفة، التى جمعت بيننا حتى هذا الوقــت، والــتى صدها بإشارة طفيفة من يده. "لا، أنت تسىء فهمى. إننى أتحدث الآن فقط عن حالة معينة. أتحدث عن حالة أســبر فيهــا بحثاً عن الحقيقة، وعلى فيها أن أمارس الضغط للعــثور عــليها. أتــلقى أولاً أكاذيب، هذا يحدث، كما ترى – أكــاذيب فى البداية، ثم ضغط، ثم المزيد من الأكاذيب، ومزيد من الضغط، ثم الانهيار، ومزيد من الضغط، ثم الحقيقة. هكذا يمكنك الحصول على الحقيقة".

الألم هو الحقيقة، وكل ما سواه يخضع للشك. هذا ما أحمله مــعى مــن حديــثى مع العميد جول. والذى بأظافر أصابعه المســتدقة، وأوشــحته البنفسجية الزاهية، وقدميه الهزيلتين فى أحذيــة ناعمــة، أبقى أنا متخيلا إياه، وهو فى العاصمة، التى يــتوق إليها بشدة، مدمدما لأصدقائه فى أروقة المسرح ما بين استراحة الفصول.

(مــن جهة أخرى، من أكون أنا كى أؤكد على بعدى عنه؟ أحتسى أنا الشراب معه، أتناول الطعام معه، أريه ما هو جدير بالمشاهدة، أقدم له كل مساعدة ممكنة كما يتطلبه أمر تفويضه، وأكــثر. الإمبراطورية لا تطلب من موظفيها أن يحب أحدهم الآخر، بل أن يؤدوا واجباتهم فحسب).

* * *

التقرير الذى يقدمه لى ضمن وظيفتى كقاض، مختصر.

"فى خــلال ســير التحقيق بدت تناقضات واضحة فى إفادة السـجين. المواجهة مع هذه التناقضات أدت إلى تهيج السجين ومهاجمته الموظف المكلف بالتحقيق. حدث شغب، وفى خلاله سقط المتهم بقوة نحو الجدار. محاولات إنعاشه باءت بالفشل".

من أجل الوصول إلى الكمال كما هو مطلوب من قبل رسالة القانون، دعوت الحارس وطلبت منه تقديم إفادة. كان يسرد وأنا أسـجل كلماته: "أصبح السجين خارج نطاق السيطرة، وهاجم الموظف الزائر. استدعيت إلى الداخل للمساعدة فى تهدئته. فى الوقــت الــذى دخلت فيه المكان، كان الشجار قد انتهى. كان السـجين فــاقد الوعى والدم ينزف من أنفه. "أشير إلى المكان الذى عليه أن يضع توقيعه فيه. يأخذ القلم منى باحترام.

أسأله بلطف: "هل أخبرك الضابط بما تقوله لى؟"
يقول: "نعم، سيدي".
"هل كانت يدا السجين موثقتين؟"
"نعم، سيدى، أعنى لا، سيدى."
اصرفه واملأ استمارة رخصة الدفن.

ولكــن قبل ذهابى إلى الفراش، آخذ فانوسا، أعبر الساحة، وأدور عبر الشوارع الخلفية إلى مخزن الحبوب. هناك حارس جديــد عــند باب الكوخ، فلاح صبى آخر نائم ملتفاً ببطانته.

صرصار ليل يتوقف عن غنائه عند اقترابى. سحب المزلاج لم يوقــظ الحارس. أدخل الكوخ مع رفع الفانوس عالياً، معتدياً، كمـــا أعتقد، على ما قد غدا أرضاً مقدسة أو دنسة، إن كان فى ذلك أى اختلاف، حافظة أسرار الدولة.

الصبى نائم على فراش من القش فى زاوية، حىّ وفى حالة جيـــدة. يـــبدو كأنه نائم. ولكن توتر حالته يخونه. يداه موثقتان أمامه. فى الزاوية الأخرى، حزمة بيضاء طويلة.

أوقظ الحارس. "من أخبرك بترك الجثة هناك؟ من خاطها؟"

يســـمع الغضب فى صوتى. كان ذلك الرجل الذى جاء مع صـــاحب السعادة الآخر، سيدى. كان هنا عندها حضرت لتسلم مأموريـــتى. قال للصبى، أنا سمعته، "نم مع جدك، أبقه دافئا. "تظاهر بأنه يحاول خياطة الصبى أيضاً مع الكفن، الكفن نفسه، ولكنه لم يفعل".

بيـــنما يـــبقى الصـــبى ممددا. نائما، متصلب الجسم، عيناه مغلقتان بإحكام، نحمل الجثة خارجا. وفى الفناء، بينما الحارس يمســـك بالفـــانوس، أجد موضع الدرزة، بنصل سكينى، أمزق الكفن وأفتحه، أطويه خلفا من جهة رأس الرجل العجوز.

اللحية الرمادية مكسوة بالدم. الشفتان منسحقتان ومدفوعتان إلى وراء، الأســـنان مكســـورة، عيـــن متدحرجة إلى الخلف، ومحجـــر العيـــن الأخـــرى، حفرة دامية. أقول، "أغلقه"، يضم

الحـــارس طرفى الثغرة، لكن الكفن يتدلى مفتوحاً. "يقولون إن رأســـه اصـــطدم بـــالجدار، ما الذى تعتقده أنت؟ "ينظر نحوى بحذر. "أجلب بعض خيوط القنب وأربط الكفن بشدة".

أمسك بالفانوس فوق الصبى. إنه لم يتحرك، ولكننى أنحنى لألمـــس خده يجفل ويبدأ بالارتعاش بتموجات طويلة، تمتد إلى أعـــلى جســـده وأسفله. أقول: "أصغ إلى، يا ولد، لن أقدم على إيذائـــك. "يـــتدحرج عـــلى ظهـــره، مقدما يديه الموثقتين أمام وجوهنا. إنهما منتفختان وقرمزيتان. أتلمس القيود بارتباك. كل تحـــركاتى تجاه الصبى خرقا،. "اسمع، عليك أن تقول الحقيقة للضابط. ذلك كل ما يريده منك – الحقيقة. انه لن يؤذيك عندما يـــتأكد مـــن أنك تقول الحقيقة. ولكن عليك أن تحكى له كل ما تعرف. عليك أن تجيب عن كل سؤال يوجهه إليك، بصدق، لا تيـــأس إن تعرضت للألم". ملتقطاً العقدة، انجح أخيراً فى حل الحـــبل. "افرك كفيك بعضهما ببعض كى يبدأ الدم بالسريان". أفـــرك كفيـــه بكـــفى يلوى أصابعه متألماً. لا أستطيع التظاهر بكونى أفضل من أم تهدئ طفلها، بين نوبات غضب والده. لم يفتـــنى أنـــه بإمكـــان المحقـــق أن يرتدى قناعين، أن يتحدث بصوتين، الأول فظ، الثانى مخادع.

أسأل الحارس، "هل كان لديه أى شيء ليتناوله هذا المساء؟"

"لا أعرف."

"هــل كان لديك ما تأكله؟". أسأل الصبى. يهز رأسه. أحس بالأسى يثقل قلبى. لم أتمن قط الانجرار إلى هذا الموقف. إلى أيــن سينتهى، لا أدرى. أستدير نحو الحارس. "سأغادر الآن. ولكــن هناك ثلاثة أشياء أريد منك تنفيذها. الأول، أريد منك، بعــد تحســن يدى الصبى، ربطهما ثانية، لكن ليس بتلك الشدة الــتى تــؤدى إلى تورمهمــا. ثانيا، أريدك أن تبقى الجثة فى مكانها، فى الفناء، لا تعدها إلى هنا. سأبعث، فى ساعة مبكرة مــن الصــباح، بفريق الدفن لأخذها، وستسلمها لهم. إن كانت هناك أى أسئلة، قل إننى أعطيت الأوامر. ثالثا، أريدك أن تغلق الكــوخ الآن، وتعال معى. سأجلب لك شيئاً من المطبخ لتعود به، ويأكله الصبى. تعال".

لم أكن أعنى التورط فى الأمر. أنا قاض مدنى، مسؤول فى خدمة الإمبراطورية. أكمل ما تبقى من خدمتى، فى هذه الحدود الباعثة على الكسل، منتظراً التقاعد، أجمع العشور والضرائب، أدير الأراضى المشاعة، أتابع سريان إمدادات الحامية، أشرف على الموظفين الأدنى، الذين هم الموظفون الوحيدون لدينا هنا، أراقــب التجار، أترأس المحكمة الصغرى مرتين فى الأسبوع. ومــا تــبقى، أرقب الشمس فى شروقها وغروبها. آكل وأنام، وأحــس بالاكــتفاء. وعندما أرحل، آمل أن أكون جديراً بثلاثة أسطر بحروف صغيرة فى صحيفة الإمبراطورية. أنا لم أطلب أكثر من حياة هادئة فى زمن هادئ.

ولكن قصص العام الماضى بدأت تصلنا من العاصمة، عن اضــطراب بيــن الــبرابرة تجار يسافرون عبر طرق آمنة، هوجموا ونهبوا، لصوص المواشى ازدادوا نسبة وجرأة. فريق من موظفى الإحصاء الرسمى، اختفوا، وتم اكتشافهم، مدفونين فى قبور ضحلة. نيران أطلقت على حاكم إقليم فى خلال جولة تفتيشية، اشتباكات حدثت مع دوريات الحدود. القبائل البربرية كـــانت مســلحة، مضت الإشاعة. على الإمبراطورية أن تتخذ إجراءات وقائية، إذ إن حرباً ستنشب بالتأكيد.

أنـــا شخصـــيا، لم أر، من هذا الاضطراب، شيئاً. لاحظت، بشـــكل خاص، أنه يحدث مرة فى كل جيل، حالة من هستيريا حـــول الـــبرابرة، ولم أخذل ولا مرة. ليست هناك امرأة واحدة تعيش على طول الحدود، لم تحلم بيد برابرة سوداء تخرج من تحـــت السرير لتمسك بكاحلها، ولا يوجد رجل لم يخوف نفسه لـــرؤى عـــن برابـــرة يسرفون فى شرب الخمور فى منزله، يكسرون الأوانى، يشعلون النار فى الستائر، ويغتصبون بناته. الأحـــلام هـــذه هي نـــتيجة اليسر التام. أرونى جيشاً بربرياً، وسأكون لكم مصدقاً.

فى العاصـــمة كـــان مـــثار الاهتمام، إن قبائل البرابرة فى الشمال والغرب ستتوحد أخيرا. تم إرسال ضباط هيئة الأركان العامة، فى جولات على الحدود. عززت بعض الحصون وتمت تقويتها. أعطيت حماية عسكرية لتجار طلبوها. ضباط المكتب

الـــثالث لـــلحرس المدنى، شوهدوا للمرة الأولى على الحدود، حمـــاة الدولة، المختصون بحركات التمرد السرية، المتعصبون للحقيقة، العلماء فى الاستجواب. وهكذا يبدو أن أعوامى الهينة مقبـــلة على نهايتها، عندما أكون قادراً على النوم بقلب هادئ عارفـــا أنه بوكزة من هنا ولمسة من هناك، فإن العالم سيبقى مســـتقرا فى سيره. لو أننى فقط كنت قد سلمت هذين السجينين المنافيين للعقل إلى العميد، أفكر ملياً- "أيها العميد، ها هما، إنك المخـــتص. تدبر ما ستفعله بهما"- لو أننى كنت قد ذهبت فى رحـــلة صـــيد لبضعة أيام، كما كان لزاما علىّ أن أفعل، ربما زيـــارة لأعـــالى النهر، والدودة، وبدرن قراءته، أو بعد إلقاء نظرة عجلى عليه بعين غير مبالية، أضع ختمى على تقريره، دون أى جـــدل حول ما تعنيه كلمة تحقيقات، ما يقع تحتها من مسؤولية، مثل بانشى(*) تحت حجارة- لو كنت قد فعلت الأمر الحكيـــم، آذن، لـــربما كان باستطاعتى الآن العودة إلى صيدى بالصقور وتجوالى الرائق فى خلال انتظارى للقلاقل أن تتوقف والفوضى على طول الحدود أن تخمد. ولكننى، ويا للأسف، لم أبتعد عن المكان، أغلقت أذنى برهة عن الأصوات القادمة من الكـــوخ بجـــوار مخزن الحبوب، حيث تحفظ الأدوات. بعدئذ، حملت فانوسا، وخرجت ليلا لأرى بنفسى.

* * *

(*) بانشى BANSHEE، روح شريرة يجلب عويلها الموت إلى الدار.

الأرض بيضـــاء بسبب الثلوج من أفق إلى أفق. إنه ينهمر مـــن الســـماء التى هى مصدر ضياء منتشر وموجود فى كل مكان، وكأنما الشمس قد ذابت فى سديم وتحولت إلى هالة. فى الحـلم، أجــتاز بوابة الثكنات، أمر بسارية العلم العارية. تمتد الســاحة أمامى، تتداح أطرافها مع السماء ذات الطلاء الفضى، جــدران أشجار وخيول تضاءلت وفقدت صلابتها منكفئة فوق حافة العالم.

بينما أنزلق عبر الساحة، تنفصل أشكال سوداء عن البياض، أطفال فى لعبهم، يبنون قصراً من الثلج، ينصبون علماً ذا لون أحمــر على قمته. وهم يرتدون القفازات وأحذية طويلة الساق، مــلفعين ضد البرد. يجلبون حفنة إثر حفنة من الثلج. يلصّقون جــدران قصرهم، يملأون فراغاته. أنفاسهم تغادرهم فى نفثات بيــض. السور حول القصر نصف مبنى. أجهد نفسى لأنفذ من ضجيج أصواتهم المثرثرة بطلاقة. ولكننى لا أقدر.

أنـــا واع لجســدى وظلى القائم، ولهذا السبب لا أندهش من اخــتفاء الأطفـــال على الجهتين مع اقترابى منهم. كلهم ما عدا واحــدة. أكــبر مـــن الآخرين. ربما لا يمكن عدها طفلة. إنها تجــلس فى الثـــلج، رأسها مغطى بقلنسوة، مديرة ظهرها لى، مـــنهمكة فى بناء باب القصر، ساقاها مدودتان، تحفر، تربت، تقولـــب. أقف خلفها وأرقبها. إنها لا تستدير نحوى. أحاول أن

أتخيـــل الوجـــه الـــذى تضمه تويجات غطاء رأسها المستدق الأطراف ولكننى لا أقدر.

* * *

يستلقى الصبى على ظهره، عارياً، غارقاً فى النوم، يتنفس بســرعة، أنفاســه غيــر عميقة. يتلألأ جلده بالعرق. الضماد مرفوع وللمرة الأولى عن ذراعه. أرى القيح الملتهب المفتوح المختفى تحته. أقرِّب الفانوس منه. أجد أن بطنه وأعلى فخذيه مجدرة بقشور صغيرة وكدمات وجروح. بعضها موسوم بالدم.

أهمس للحارس، وهو الشاب نفسه الذى كان ليلة أمس. "ما الذى فعلوه به؟" يجيب هامسا: "مجرد سكين صغير، مثل هذا". ويمــد الإبهــام والســبَّابة. ممسكاً بسكينه الصغير فى الهواء، مشــيراً إلى طعــنة مقتضــبة فى جسد الصبى النائم، ثم يدبر الســكين برقة، مثل مفتاح، إلى اليسار أولاً ثم اليمين. يسحب السكين بعد ذلك. تعود يداه إلى جانبيه، يقف منتظراً.

أنحــنى فوق الصبى وأهزه، مقربا الضياء من وجهه. يفتح عيــنيه الواهنتين يغلقهما ثانية فيما بعد. يتنهد، أنفاسه السريعة تتــباطأ. أقــول له: "اســـمع! كنت ترى حلماً سيئا. يجب أن تستيقظ". يفتح عينيه ثم يحولهما نحوى من خلف الضياء.

يقــدم الحــارس إليــنا إناء فيه ماء. أسأل: "هل يقدر على

الجلوس؟" يهز الحارس رأسه. يقوم برفع الصبى ويساعده على احتساء الماء.

"اسمع"، أقول له. "يقولون إنك قدمت اعترافاً، يقولون إنك قد اعترفت بأنك والرجل العجوز ورجالاً آخرين من قبيلتك، قمتم بسرقة المواشى والخيول. وإنك قد ذكرت أن أفراد قبيلتك يسلحون أنفسهم، وإنكم عازمون فى الربيع، على المشاركة جميعاً فى شن حرب كبيرة على الإمبراطورية. هل تقول الحقيقة؟! هل تفهم ماذا سيعنى اعترافك هذا هل تفهم؟" أتوقف. يتطلع نحوى بنظرة خالية من التعبير إزاء كل هذه الشدة، مثل شخص متعب إثر ركضه مسافة كبيرة. "إنه يعنى أن الجنود سينطلقون ضد قبيلتك، سيكون هناك قتال. وأقاربك سيقتلون، وربما حتى والداك، أشقاؤك وشقيقاتك، هل تريد ذلك حقا ؟" لا يبدى الصبى ردة فعل ما. أهز كتفيه، أصفعه على خده، لا يجفل: الأمر، مثل ضرب جسد ميت. يهمس الحارس من خلفى، "أعتقد إنه مريض جداً، متقيح تماما"، يغلق الصبى عينيه عنى.

* * *

أستدعى الطبيب الوحيد الموجود، رجل مسن، يحصل على رزقه من قلع الأسنان وعمل عقاقير مثيرة للشهوة من مسحوق العظام ودم السحالى. يضع كمادة من صلصال ومسحة من

مرهمٍ على مئات الطعنات الصغيرة. يعدنا بأن الصبى سيكون قادراً على السير خلال أسبوع ويوصى بطعام مغذٍ له ثم يغادر على عجل، ولا يسأل عن الكيفية التى يتحمل بها جروحه.

ولكن العميد قد نفد صبره. خطته هى بدء حملة سريعة على قبائل البدو والقبض على المزيد من السجناء. وهو يريد أخذ الصبى معه دليلا. يطلب منى التخلى عن ثلاثين جنديا من الحامية، من مجموع أربعين وتزويدهم بالخيول.

أحاول إثنائه. أقول: "ليس من منطلق عدم احترام، لكنك لست جندياً محترفاً أيها العميد، لم يسبق لك أن قمت قط بحملة فى هذه المناطق القاسية. ستكون بلا دليل، غير الدليل الذى يرتجف منك، والذى سيقول أى شىء يرد بباله من أجل إرضائك، وهو بكل الأحوال غير ملائم للسفر. انك لن تستطيع الاعتماد على جنودك لمساعدتك. انهم مجرد فلاحين مجندين لم يسافر غالبيتهم أبعد من خمسة أميال عن المستوطنة. البرابرة الذين تطاردهم سيشمون قدومك وسيختفون فى الصحراء، وأنت ما زلت لم تقطع غير مسافة يوم من المسير. لقد عاشوا هنا طوال عمرهم، يعرفون الأرض. أنت وأنا غرباء – أنت أكثر منى فى ذلك. أنا أنصحك بإخلاص بعدم الذهاب".

يصغى إلىّ حتى أنتهى من كلامى بل وحتى (لدى هذا الإحساس) يغرينى بالاسترسال بعض الشىء. أنا واثق من أن

هذه المحادثة، دونت بعدئذ، مع ملاحظة عليها بأننى "غير سليم عقـليا". عندما استمع إلى ما فيه الكفاية، يرفض اعتراضاتى: "أنا مكلف بمهمة وعلى إكمالها. أيها القاضى أنا وحدى أقدر أن أحكم متى يكون عملى جاهزاً". ويمضى قدما فى استعداداته.

يسـافر فى عربـته السـوداء ذات العجلـتين ومعه فراش لـلرحلات ومنضدة كتابة مطوية، مشدودة إلى السقف. أزوده بالخيول، عربات النقل وعلف وكافة التجهيزات اللازمة لثلاثة أسابيع. يرافقه فى الرحلة ملازم أصغر سنا من أفراد الحامية. أتحـدث عـلى انفراد، مع الملازم: "لا تعتمد على دليلك، إنه ضـعيف البـنية وخائف. راقب الجو. لاحظ علامات الجنود. مهمتك الأولى هى العودة بضيفنا سالماً". يسلم منحنياً.

اقـترب مـن جول ثانية، محاولاً معرفة المخطط التمهيدى لـنواياه. يقـظ: "نعـم، لن أجد نفسى ملزما بتعهد وجهة سير مقدمـاً. وأقول بشكل عام، إننا سنحدد الموضع الذى يخيم فيه هـؤلاء الـبدو الـرحل، جماعتك، ثم سنتقدم أبعد كما تقتضى الحالة".

واسـتمر: "إنـنى أسأل لسبب واحد لأنك إن فُقدتَ، تصبح مهمتـنا هى العثور عليك وإعادتك إلى الحضارة". نتوقف عن الكـلام، مـتذوقين وجهتى النظر المختلفة بيننا، وما تتضمنه الكـلمات مـن تهكـم. يقـول: "نعم، بالتأكيد" ولكن ذلك بعيد

الاحــتمال. محظوظون نحن لامتلاكنا الخرائط الممتازة للإقليم التى جهزت من قبلكم.

"تــلك الخرائط غير معتمدة إلا على القليل، ومستندة إلى ما يســمع ويقال، أيها الكولونيل. لقد جمعتها معا" نقلا عن بيانات مسافرين طوال مدة تمتد إلى عشرة أعوام أو عشرين عاما. أنا شخصــيا لم أضع قدما فى الموقع الذى تخطط الذهاب إليه. أنا ببساطة أحذرك".

مــنذ يومه الثانى فى هذه الأرجاء، كنت غاية فى القلق فى حضوره، كى أكون أكثر من منضبط فى معاملتى إياه. أعتقد، أنه مثل جلاد جوال، معتاد على أن يتجنب. (أم إنه فى الأقاليم فحسب، ما يزال الناس يعتقدون إن الجلادين والذين يمارسون الــتعذيب، هم النجسون؟) متطلعا إليه، أتعجب كيف أحس فى المــرة الأولى بالذات: هل إنه دعى كمبتدئ قليل الخبرة ليلوى الكماشــة أو ليديــر الــلولب أو أى شــىء مــن الأمور التى يمارسونها. ارتجف تماما" بعض الشىء، وهو يعلم أنه فى تلك الحالة، كان يتجاوز إلى ما هو محرم؟ أجد نفسى متسائلا ما إذا كانت له طقوس خاصة للتطهر، تجرى خلف أبواب مغلقة، كى تجيــز له أن يعود ويتقاسم الخبز مع رجال آخرين. هل يغسل يديــه باعتناء، أو ربما يغير كافة ملابسه، أم ان المكتب الثالث ابــتدع رجــالاً جــدداً، باستطاعتهم المرور من غير قلق بين الطاهرين والمدنسين؟

فى ساعة متأخرة من الليل أسمع صرير طبول الفرقة الموسيقية وقرعها تحت أشجار الجوز العتيقة، عبر الساحة. هناك توهج متورد فى الجو، منبعث من قاعدة الفحم الحجرى الكبيرة التى يتحمص فوقها خروف بأكمله، هدية من "سعادته". إنهم سيشربون حتى الفجر، ثم يغادرون مع طلوع النهار.

أجد طريقى إلى مخزن الحبوب، عبر الممرات الخلفية، الحارس ليس فى مكانه. باب الكوخ مفتوح، وأنا أحاول المرور، أسمع أصوات همسات وضحكات. أحدق فى ظلام كالح. أقول، "من هنا؟".

هناك صوت زحف، والحارس الشاب يتعثر مصطدماً بى. يقول: "آسف، سيدى". أشم أنفاسه المخضلة بشراب الرئم. "السجين ناداني وكنت أحاول مساعدته". ومن الظلمة ينبثق صوت ضحكة.

أنام، أستيقظ على أصوات جولة أخرى من موسيقى راقصة قادمة من الساحة. أغرق فى النوم ثانية، وأحلم بجسد مسجى على ظهره، ثروة من شعر العانة، براقٍ سلس أسود ذهبى، عبر البطن، ممتد فوق الحقوين ثم نازلاً تحتهما مثل سهم موجه نحو ثلمة الساقين. عندما أمد يدى لأمس الشعر، يبدأ بالتلوى. انه ليس بشعر، لكنه نحل متجمع بكثافة، الواحدة أعلى الأخرى: مبللٍ بالعسل، دبق، يطير بمجموعه خارجاً من بين الساقين، مروحاً بأجنحته.

* * *

آخـــر فعل مجاملة أقوم به هو الخروج راكباً مع العميد إلى مســـافة حيـــث ينعطف فيه الطريق نحو الشمال الغربى، على امـــتداد الـــبحيرة. الشمس مرتفعة تسطع بوحشية من صفحتها وهـــو مـــا يضـــطرنى إلى حجـــب عينى. الرجال، متعبون، مضطربون بعد ليلتهم من المرح، ينتشرون بغير انتظام خلفنا. فى وسط الطابور، محاطا بحارس راكب جنياً إلى جنب معه، يـــأتى السجين. وجهه شبحى، يجلس على حصانه لشكل غير مريح. بالتأكيد ان جراحـــه ما تزال تســـبب له الآلام. تأتى فى الخـــلف، الخيـــول المحملة والعربات الخفيفة مع براميل الماء، الـــتجهيزات والمعدات الثقيلة: رماح، غدَّارات، ذخيرة حركية، خيـــام. كلها بمجموعها لا تكون منظراً مثيراً. الطابور يمتطى الخيـــول بشـــكل غير متقن. بعض الرجال حاسرى الرءُوس، بعضـــهم يـــرتدى خوذة الخيالة الثقيلة المزينة بريشة، آخرون بقـــبعات جـــلدية اعتيادية. كان الجميع يحول عينيه عن الوهج الساطع ما عدا واحد منهم، يتطلع مقطبا أمامه، من خلال قطعة من زجاج مدخن، ملتصقة بعصا، يمسكها أمام عينيه، فى تقليد لقائده. إلى أى مدى سينتشر هذه التظاهر المنافى للعقل؟

ننطـــلق بصمت. الحاصدون مشغولون فى الحقول منذ قبل بزوغ الفجر، يتوقفون عن العمل، يلوحون عند مرورنا لهم. فى مـــنعطف الطريق أكبح جماح الفرس وأودعه قائلا: "أتمنى لك

عودة سالمة، أيها العميد". أقول ذلك. يميل رأسه بغموض وهو محاط بإطار نافذة عربته.

وهكـــذا، انطلق عائداً، متحرراً من العبء الذى كنت أصله، وســـعيداً أن أكون وحدى ثانية فى عالم أعرفه وأفهمه. أصعد الأسوار لمراقبة الطابور الصغير يلتف بعيداً على طول طريق الشـــمال- الغـــربى، مـــتوجهاً نحو لطخة الضباب الخضراء الـــبعيدة، حيث يتدفق النهر إلى البحيرة، ويختفى خط الخضرة فى ســـديم الصـــحراء. الشمس ما تزال معلقة، برونزية، ثقيلة فـــوق الماء. إلى جنوب البحيرة، تمتد أراض سبخة، مسطحات المـــلح، وخلفهما خط أزرق رمادى من تلال جرداء. الفلاحون فى المـــزارع يحمـــلون العربتين الكبيرتين القديمتين، بالتبن. سرب من البط البرى، يدور فوق الرءُوس وينحدر إلى الأسفل نحـــو المـــاء. نهاية صيف، هو وقت للسلام والوفرة. أنا أؤمن بالسلام، ربما سلام متواز بأى ثمن.

على خط مباشر من جنوب البلدة وعلى مسافة ميلين، تبرز مجموعة كثبان من المشهد الرملى المسطح. اصطياد الضفادع فى المستنقعات والنزول من الكثبان الرملية المنحدرة بمزلجات خشـــبية مصقولة، هى رياضة صيفية أساسية بالنسبة للأطفال، مرة فى الصباح وثانية فى المساء عندما تغرب الشمس وتتسلل الـــبرودة إلى الـــرمال. وعـــلى الرغم من أن الرياح تهب فى

المواســم كافــة، فإن الكثبان تبقى ثابتة، متماسكة – على نحو متصـــل – بطبقة خفيفة من الحشائش، وكما اكتشفت، مصادفة قبل بضعة أعوام، بهياكل خشبية أيضاً. ذلك لأن الكثبان تغطى خــرائب تعــود إلى أزمـــنة قديمة، قبل ان يتم الاستيلاء على الأقاليم الغربية ويُبنى الحصن.

كان التنقيب فى هذه الخرائب، إحدى هواياتى. وإن لم يكن العمــل جاريــاً فى إصلاح مشاريع الإرواء، فإننى أحكم على المذنـــبين الثانويين، بالحفر بضعة أيام فى الكثبان الرملية، كما يرســل الجــنود إلى هنا فيما يخص جزئيات العقوبة. بل إننى اعتدت، فى ذروة حماستى، أن أدفع من جيبى الخاص للأعمال العرضية. العمل غير محبذ. إذ على الحفارين أن يكدحوا تحت أشعة شمس حارقة أو ريح قارسة، دون ملجأ يحميهم مع تطاير الــرمال فى كــل اتجــاه. فى العمــل، تعوزهم الحماسة، لا يشاركوننى هوايتى (التى يعدونها نزوة)، تعوق عملهم السرعة الــتى تــنجرف فيها الرمال إلى أماكنها. ولكننى خلال بضعة أعــوام، نجحــت فى الكشف عن عدد من البنى الكبيرة، لتبدو بمســتوى ســطح الأرض. أحدث ما تم الحفر عنه يبرز مثل حطـــام سفينة فى الصحراء، يبدو للنظر حتى من أسوار البلدة. من هذا المبنى الذى قد يكون مبنى عاماً أو معبداً، أنقذت إسكفة ثقيــلة مـــن خشـــب الزان محفور عليها تصميم يمثل سمكات تتقافز، متداخلة بعضها ببعض، معلقة اليوم فوق مدفأة الجدار.

كانت مدفونة تحت مستوى سطح الأرض، فى كيس تفتت إلى لا شىء، حالما لامسته. وعثرت أيضا على مخبأ لقطع خشبية رفيعـــة مرسومة عليها أشكال بحروف لم أر لها مثيلا. كنا قد وجدنـــا قطعـــاً مـــثل هـــذه من قبل، متفرقة كخرق قماش فى الخـــرائب. ولكـــن معظمها كانت مطموسة الألوان بفعل تأثير الرمال، بحيث إن الكتابة عليها تبدو عصية على الفهم. الأشكال عـــلى الشـــرائح الخشبية الجديدة واضحة وضوح يوم كتابتها. واليـــوم، أملاً فى حل رموز الكتابة، بدأت أجمع كل ما يمكننى مـــنها، وألـــزمت الأطفـــال الذيـــن يلعبون هنا أن يعرفوا، أن عثورهم على واحد منها يعادل دائماً الحصول على بنس واحد.

القطـــع الخشـــبية الكـــبيرة الـــتى نزيل عنها الرمال، جافة ومنسحقة، والكثيرة منها لم تكن متماسكة إلا بفعل كونها محاطة بالـــرمال، وهى حالمـــا يكشف عنها، تتفتت. وما يتبقى منها، يتكســـر بفعل ضغط قليل. كم يبلغ عمر هذه الأخشاب؟ ذلك ما لا أعرفه. البرابرة الذين هم بدو رعويون، يسكنون الخيام، لا يشـــيرون فى أساطيرهم إلى استقرار دائم بالقرب من البحيرة. ولا توجد بين الخرائب، بقايا بشرية. وإن كانت هناك مقبرة ما، فإنـــنا لـــم نعثر عليها. البيوت لا تحوى أثاثا". ولقد عثرت فى كومة من رماد على شظايا فخار طينى و شىء ما بنى اللون، ريمـــا كـــان فى يوم ما حذاء من الجلد أو قبعة، وقد تناثر إلى قطـــع أمـــام عيـــنى. لا أعرف من أين جاء الخشب لبناء هذه

البيوت. ربما في الزمن الغابر، شق مجرمون أو عبيد أو جنود، طريقهم عبر الأميال الاثنى عشر باتجاه النفر، وقطعوا أشجار الزان التي نشرت وسويت، ثم قاموا بنقلها في عربات إلى هذا المكان المقفر، وبنوا البيوت وبنوا حصننا أيضا"، قياسا لكل ما أعرفه، في سياق الزمن الذى انقضى، كي يتاح لأسيادهم وأوليائهم وللحكام والقادة البارزين، تسلق الأسطح والأبراج صبحا ومساء، ليمسحوا العالم من أفق إلى أفق بحثا عن علامات تشير إلى البرابرة. وفي حفرياتي، ربما قمت بخدش سطح الأرض فقط. وربما، على عمق عشرة أقدام منه، تقع خرائب قلعة أخرى، دمرت تماما من قبل البرابرة، كانت مأهولة بالهياكل العالمية للقوم، الذين ظنوا أنهم سيجدون الأمان خلف الجدران العالية. ربما، إنني عندما أقف على أرضية مبنى المحكمة، إن كان الأمر كما أعتقد، فإنني أقف على رأس قاض مثلي، خادم آخر للإمبراطورية، ذي شعر رمادي، سقط في حلبة سلطته، في آخر الأمر، وجها لوجه مع البرابرة. كيف يمكنني أبدا أن أعرف؟ أبواسطة الحفر مثل أرنب؟ هل هذه الأشكال، ستحدثني يوماً؟ كانت هناك مائتان وخمسة وستون قطعة شريحة في الجراب. هل الأمر مصادفة، أن تكون الأعداد تامة؟ بعد أن عددتها للمرة الأولى، وأدركت هذا الاكتشاف، قمت بتنظيف أرضية مكتبي، ونشرتها عليه، أولاً في مربع كبير واحد، ثم في ستة عشر مربعاً أصغر، ثم في

مجموعـــات أخـــرى، مفكراً فيما اعتقدتها، حتى الآن، أحرف كتابة ضمن مقاطع لفظية، قد تكون فى الحقيقة، صورة ستقفز خطوطهـــا الخارجيـــة نحوى، إن حققت الترتيب الصحيح لها: خارطـــة لأرض الـــبرابرة فى الزمن الغابر، أو صورة لهيكل آلهـــة مفقـــود. بل إننى وجدت نفسى أقرأ، أفسر الشرائح من خلال مرآة، أو أتتبعها بوضع شريحة أعلى شريحة أخرى، أو ادمج نصف قطعة مع نصف قطعة أخرى.

فى إحـــدى الأمســـيات، تخلفت بين الخرائب، بعد أن هرع الأطفال إلى بيوتهم لتناول العشاء، فى وقت الغسق الأرجوانى، وعـــند ظهور أولى النجوم، الساعة التى تصحو فيها الأشباح، تـــبيعا للمعـــتقدات التقـــليدية. وضعت أذنى على الأرض، كما علمـــنى الأطفـــال، لســـماع ما يسمعونه: طرقات وأنين تحت الأرض، والضـــرب الخفيض غير المنتظم على الطبول. على صفعة خدى، أحسست بدمدمة الرمال تتحرك من لا مكان إلى لا مكان عبر أراض بور. تلاشى آخر خيوط الضياء، الأسوار بـــدت أكثر قتامة قبالة السماء، ثم تلاشت فى العتمة. انتظرت ساعة من الزمن، ملتفا بمعطفى الفضفاض، مسنداً ظهرى إلى عمود زاوية بيت من البيوت التى لابد أن أناساً قد تحدثوا فيها يوما وأكلوا وعزفوا الموسيقى. كنت أرقب طلوع القمر، مهيئاً حواســـى لليل منتظراً إشارة تدل على أن ما يهجع أمامى، ما يهجـــع تحت قدمى، لم يكن مجرد رمال، غبار عظام، رقاقات

صداً، كسر أثرية، رماد. الإشارة لم ترد. لم أحس بأى رعشة خــوف مــن روح شريرة. موضعى فى الرمال كان دافئاً. لم يمض وقت طويل حتى وجدت نفسى أطأطئ من النعاس.

وقفت ومددت قامتى، ثم سرت مجهداً إلى البيت عبر الظلمة المســكتة، مســتدلاً على اتجاهى بفعل التوهج الباهت للسماء المــنعكس عن نيران المنازل. أمر يثير السخرية، خطر ببالى، رجل بلحية رمادية يجلس فى العتمة، فى انتظار أرواح تَرِدُ من طــرق مجهولة من التاريخ، كى تتحدث معه قبل ان يعود إلى منزلــه، إلى اليخنة العسكرية وإلى فراشه المريح. الفضاء من حولنا، هنا، مجرد فضاء، ليس أحقر أو أرفع من الفضاء الذى فــوق الأكــواخ والــبيوت الفقيرة والمعابد ودوائر العمل فى العاصمة. الفضاء هو الفضاء، الحياة هى الحياة، هى نفسها فى كــل مكــان. أما بالنسبة لى، المتحمل مشاق الآخرين، المفتقر لــرذائل مــتمدنة تملأ وقت فراغى، فإننى أدلل كآبتى وأحاول العثور فى فراغ الصحراء على إثارة تاريخية من نوع خاص. فارغ، متبطل، مضلل. كم أنا محظوظ، لأن أحداً لم يرنى.

* * *

اليوم، بعد مرور أربعة أيام فقط على مغادرة الحملة، تصل أول وجــبة مــن ســجناء العميد. أشاهدهم، من خلال نافذتى، يعبرون الساحة بين حراسهم الممتطين جياداً، مغبرين، مذللين

تـــواً مـــن قـــبل المـــتفرجين الذين احتشدوا حولهم، الأطفال المـــتقافزون، الكـــلاب الناتجة. فى الثكنات، ينزل الجنود عن جيـــادهم، وفى الحـــال يجلس السجناء القرفصاء على الأرض لـــلراحة، ما عدا الصبى، الذى يقف على ساق واحدة، ذراعه على كتف والدته، يتطلع بفضول إلى المتفرجين. يجلب أحدهم جردلاً من الماء ومغرفة. يحتسون الماء بعطش شديد، فى حين يـــزداد الحشـــد ويضغط بقوة من حولهم، بحيث يحجب الرؤية عـــنى، فلا أرى شيئاً. بصبر نافذ أنتظر مجىء الحارس، الذى يشق طريقه الآن عبر المتجمهرين، ويجتاز ساحة الثكنات.

"كيـــف تشرح هذا؟" أصيح فى وجهه. يحنى رأسه، يتلمس جيوبه. وأضيف: "إنهم قوم صيادون، كيف تجلبهم إلى هنا؟".

يقدم لى رسالة. أمزق الختم وأقرأ: "أرجو أن تحتجز هؤلاء والمعتقـــلين القـــادمين فى سجن انفرادى لحين عودتى". تحت توقيعه، يتكرر الختم، ختم المكتب الثالث، الذى حمله معه إلى الصـــحراء والذى إن هلك سأضطر، بلا شك، إلى إرسال بعثة أخرى لاسترداده.

أصيح: "الرجل مضحك!" أدور فى أرجاء الغرفة والغضب يعصف بى. يتحتم على المرء أن لا يحط من قدر الضباط أمام الـــرجال قـــط، أو الآباء أمام أبنائهم، ولكننى اكتشفت أننى لا أحمـــل ولاء فى قلـــبى تجاه هذا الرجل. ألم يقل له أحد ما إن

هؤلاء قوم صيادون؟ الأمر مضيعة للوقت فى جلبهم إلى هنا! كـــان مـــن المفـــروض أن تساعده فى تتبع اللصوص، قطاع الطرق، غزاة الإمبراطورية! هل هؤلاء الناس يبدون خطرين على الإمبراطورية؟". أقذف بالرسالة عند النافذة.

الحشـــد يتفرق أمامى، حتى أقف فى الوسط مواجهاً الاثنى عشـــر ســـجينا المثيرين للشفقة. يجفلون إزاء غضبى، وينزلق الصبى الصغير بين ذراعى والدته. أومئ إلى الحارس: "أخلوا المكـــان واجلـــبوا هـــؤلاء الناس إلى باحة الثكنات". يقودون الأســـرى إلى الأمام، وتغلق بوابة الثكنات خلفنا. أقول، "والآن اشـــرحوا ما حدث، ألم يقل له أحدكم إن هؤلاء الأسرى عديمو الفائدة! ألم يحدثه واحد عن الفرق بين صيادين يحملون الشباك وبيـــن بدو رحل يركبون الخيول ويحملون السهام؟ ألم يقل له أحد إنهم لا يتكلمون حتى اللغة نفسها؟"

يـــبدأ أحد الجنود بالشرح: "لقد حاولوا الاختفاء فى الدغل، عـــندما أبصـــرونا قـــادمين. رأوا فرساننا مقبلين ولهذا حاولوا الاخـــتفاء، وهكـــذا، أمرنا الضابط، صاحب السعادة، بأخذهم، لأنهم كانوا يختبئون".

كان بإمكانى أن ألعن بغيظ. شرطى، استنتاج شرطى! "هل قال صاحب السعادة لماذا أراد جلبهم إلى هنا؟ هل قال لماذا لم يتمكن من سؤالهم عما يريد هناك؟"

"لم يتمكن أحد من التحدث بلغتهم، سيدى".

بالتأكيد لم يتمكنوا! سكان النهر هؤلاء قوم ذوو أصول بدائية قديمة، إنهم أقدم حتى من البدو الرحل ويسكنون مستوطنات، تضم كل واحدة منها عائلتين أو ثلاثا، على طول ضفتى النهر، يمضون غالبية العام فى الصيد أو نصب الشراك للحيوانات. وهم يجدفون نحو أقصى جنوب شواطئ البحيرة فى الخريف للإمساك بالأفاعى الدودية الحمراء وتجفيفها، بناء واقيات ركيكة من القصب، يتأوهون بردا خلال الشتاء، ملابسهم الجلود، يعيشون فى خوف من كل إنسان، يتسللون خلسة بين عيدان القصب، فما الذى يحتمل أن يعرفوه عن مغامرة كبيرة للبرابرة ضد الإمبراطورية؟

أرسل أحد الرجال إلى المطبخ من أجل الطعام. يعود بخبز متبق من يوم أمس، ويقدمه للسجين الأكبر سناً. يتقبل الرجل العجوز رغيف الخبز بكلتا يديه بتبجيل، يشمه، يكسره، ويوزع القطع على من حوله. يحشون أفواههم بهذا المن، يمضغون بسرعة، دون أن يرفعوا أعينهم. تبصق امرأة لقمة ممضوغة فى راحة يدها وتطعم رضيعها. أومئ لجلب المزيد من الخبز. نقف نرقبهم وهم يأكلون وكأنهم حيوانات غريبة. أقول للحراس، "دعوهم يمكثون فى الساحة. لن يكون مناسباً بالنسبة إلينا، ولكن ليس هناك مكان آخر. إن برد الجو فى الليل، سأتخذ ترتيباً آخر. راقبوا تزويدهم بالطعام. أعطوهم شيئا كى

يفعلوه، لأننى لا أريد عاطلين يأتون من أجل التحديق بهم."

وهكـذا أكـبح غيظى وأتصرف كما أمر العميد: أحتجز له سـجناءه الذيـن لا فائدة منهم "فى سجن انفرادى". ويبدو فى خلال يوم أو يومين أن هؤلاء البدائيين قد نسوا أنه كان لهم فى يـوم مـن الأيام، مقر آخر. تم إغواؤهم كليا بالطعام المجانى الوفيـر والخبز بالدرجة الأولى، انهم يرتاحون ويبتسمون لكل واحـد، يتجولون فى ساحة الثكنات من رقعة ظل إلى أخرى، يغفون ويستيقظون، يتهيجون كلما حان ميعاد الوجبات. عاداتهم واضحة وقذرة. تحولت إحدى زوايا الساحة إلى مرحاض حيث يقرفص الرجال والنساء أمام الآخرين وحيث سحابة من الذباب تطـن طوال اليوم. ("أعطوهم معولاً" أقول للحراس، ولكنهم لا يستعملونه.) الخوف قد زال عن الصبى الصغير، يتردد بكثرة عـلى المطـبخ، مسـتجديا السكر من الخادمات. وفضلا عن الخـبز، فـإن السكر والشاى، هما من الأمور الجديدة بالنسبة إليهم. إنهم يحصلون فى كل صباح على قطعة من ورق الشاى المضـغوط، يغـلونها فى دلو سعة أربعة غالونات على حامل ثـلاثى القوائـم. إنهـم سعداء هنا. وبالتأكيد، إن لم نطردهم خارجـاً، فـإنهم قد يبقون معنا إلى الأبد. لقد تطلب إغواؤهم للتخـلى عـن حياتهم الطبيعية، كما يبدو، شيئا ضئيل القيمة. أمضـى سـاعات أراقبهم عبر نافذة الطابق العلوى (كان على العاطلين الآخرين مراقبتهم عبر البوابة). أراقب النسوة يلتقطن

القمـل، يمشـطن، يضـفرن بعضهن شعور بعض، السوداء الطويلة. تعانى بعضهن من نوبات سعال جافة وحادة. ما يثير الدهشة عدم وجود أطفال فى المجموعة ما عدا الطفل الرضيع. هل بعض سريعى الحركة، المتيقظين منهم، قد نجحوا بعد كل شىء فى الهرب من الجنود؟ آمل ذلك. آمل، عندما نعيدهم إلى بيوتهـم، سـتكون لديهـم قصـص من أماكن بعيدة يحكونها لجيرانهم. آمل أن يدخل تاريخ أسرهم فى أساطيرهم، ما ينتقل مـن الجد إلى الحفيد. ولكننى فى الوقت نفسه آمل أن لا تكون ذكـريات البـلدة بحياتها السهلة وطعامها الدخيل، بالقوة التى سـتغريهم بـالعودة. أنـا لا أريد سلالة من المتسولين، أتولى الإشراف عليهم.

يغـدو قوم الصيادين لبضعة أيام تغييراً، بثرثرتهم الغريبة، وشـهيتهم الهائلة، وعدم إحساسهم بالحياء، ومزاحهم وطباعهم سـريعة الـتأثر. يتلكأ الجنود حول مداخل الأبواب لمراقبتهم، يطـلقون تعليقات داعرة حولهم فيتقبلونها ضاحكين لعدم فهمهم إياهـا، وهـناك عـلى الدوام أطفال يضغطون وجوههم على قضبان البوابة. ومن نافذتى، أتطلع إلى الأسفل، غير منظور، خلف الزجاج.

لكننى بعد ذلك، وبمجموعنا، نفقد التعاطف معهم. إذ ازدادت وبشـدة القذارة والرائحة الكريهة وأصوات مشاجراتهم، وهناك حـادث عرضـى مزعج، ذلك عندما حاول أحد الجنود سحب

إحــدى نســائهم إلى الغرف، ويتعرض للرشق بالحجارة، أمر ربمــا لا يحــدث إلا فى مسرحية ما، ولا أعرف من الذى قام بذلــك. وتبدأ إشاعة بالسريان، إنهم مصابون بالمرض، وإنهم ســيجلبون وباء إلى البلدة. وعلى الرغم من أننى أرغمهم على حفــر ركــن فى زاويــة الساحة ورمى نفايات الليل فيه، فإن العاملين فى المطبخ يرفضون إعطاءهم الأوانى ويبدأون برمى الطعــام إليهــم من مدخل الباب وكأنهم حيوانات فعلا. الجنود يغــلقون الــباب المــؤدى إلى قاعــة الثكنات، لم يعد الأطفال يقــتربون من البوابة. يقذف أحدهم بقطة ميتة فوق السور فى خــلال الليل ويثير جلبة. إنهم فى خلال الأيام الحارة الطويلة، يــتجولون فى الســاحة الحاليــة. الطفــل يبكى ويسعل، يبكى ويسعل، حتى أضطر الالتجاء إلى أبعد زاوية فى شقتى. أكتب رســالة غاضبة إلى المكتب الثالث، الحارس اليقظ الذى لا ينام للإمبراطورية، أشجب فيها عدم أهلية وكلائها، أكتب: "لماذا لا ترســلون أناســا ذوى خبرة بالحدود للتحقيق فى اضطرابات الحدود؟" بحكمة أمزق الرسالة. أسائل نفسى، هل إن قمت بفتح البوابة فى هدأة الليل، سيتسللون خارجاً؟ ولكننى لا أفعل شيئاً. وجــاء بعدئذ يوم، لاحظت فيه أن الطفل قد توقف عن البكاء. وعندما تطلعت من النافذة، لم أجد له أثراً فى أى مكان. أبعث حارساً للبحث ويعثر على جثة الصغير تحت ملابس أمه. إنها لا تتخلى عنه وكان علينا انتزاعه منها. تجلس القرفصاء وحيدة

طوال النهار، بعد ذلك، مغطية وجهها رافضة الطعام. ويظهر أن قومها ينأون بأنفسهم عنها. أتساءل، هل تجاوزنا بعض تقاليدهم، بأخذ الطفل ودفنه؟ ألعن العميد جول لكافة المشاكل التى جلبها علينا، وأيضاً بسبب الإحساس بالعار.

فيما بعد، وفى منتصف الليل يعود. تقض رقدتى نداءات بوق آتية من الأسوار. تنفجر قاعة الثكنات هياجا، بسبب تزاحم الجنود لأخذ أسلحتهم. يختلى تفكيرى، أرتدى ملابسى ببطء، وفى الوقت الذى أصل فيه إلى الساحة، أجد طابور الجند قد بدأ للتو، باجتياز البوابة، بعضهم يمتطى الخيول، بعضهم يقود دابة. أقف فى المؤخرة، بينما يتزاحم المتفرجون فى المكان، يتلمسون الجنود ويحتضنونهم، يضحكون منفعلين ("كلهم سالمون" بعضهم يصيح)، ولم أر ما كنت أخشاه، إلا بعد وصولى إلى منتصف الطابور: العربة السوداء، ثم مجموعة من الأسرى، يسيرون بتثاقل مربوطين بالحبال معاً، رقبة إلى رقبة. شخوص لا شكل معين لهم، تحت ضوء القمر الفضى، فى معاطفهم المصنوعة من جلود الخراف، ثم يأتى خلفهم آخر الجنود، وهو يقود العربات ومجموعة من الخيول. وكلما ازداد وازداد عدد الناس القادمين هرولة، ازدادت البلبلة. أدير ظهرى نحو انتصار العميد وأشق طريقى عائداً إلى غرفتى. من هذه النقطة، أبدأ بإدراك عدم جدوى العيش، كما اخترت أن أفعل، فى الشقة غير المنتظمة، فوق غرف المخزن والمطبخ، التى

خصصت لآمر الموقع الذى لم يعين منذ أعوام، وذلك بدلا من المنزل الجذاب ذى النوافذ التى يعرش عليها الجيرانيوم والتى يخفـق الحكـام المدنيـون فى الحصول عليها. أود أن يكون بمقـدورى صـد أذنى عن الأصوات القادمة من الساحة أسفل الشـقة، والـتى أصبحت الآن، كما يبدو، تتحول بوضوح إلى ساحة سجن. ينتابنى إحساس بالتعب والكبر وبرغبة فى النوم. أنـام فى هـذه الأيام أينما أقدر، وعندما أصحو، استيقظ على مضـض. لـم يعد النوم مغطساً شافياً، من أجل استعادة القوى الحيويـة، بـل وسيلة للنسيان، مناوشة قصيرة مع الإبادة. غدا العيـش فى الشقة مؤذياً لى. ولكن، ليس ذلك فحسب، فلو أننى كـنت أقمت فى منزل القاضى، فى أهدأ شارع فى البلدة، أعقد جلسـات المحكمـة كـل اثنين وثلاثاء، أذهب إلى الصيد كل صـباح، أشـغل أمسـياتى بالآثار الكلاسيكية، أغلق أذنى عن فعاليـات هـذا الشرطى حديث النعمة، إن كنت قررت امتطاء الـزمن الـردىء، محتفظاً بمشورتى لنفسى، لربما كففت عن الإحسـاس كرجل واقع فى قبضة تيار مضاد قوى، يتخلى عن المقاومـة، يـتوقف عـن السـباحة، ويدير وجهه نحو البحر المكشوف والموت. إلا أن الأمر هو معرفة مدى استمرار حالة عـدم الاستقرار التى أنا فيها، كم هو متوقف على نحيب طفل تحـت نافذتى فى يوم ما وتوقفه عن ذلك فى اليوم التالى، ذلك يجـلب لى أسـوأ أحاسـيس الخزى، أكبر لا مبالاة للفناء. أنا

أعرف الكثير إلى حد ما، ومن هذه المعارف، أن المرء ما إن يصاب بالعدوى فلا شفاء، كما يبدو، له. ما كان على قط تناول فانوسى لرؤية ما كان يجرى فى الكوخ بجوار مخزن الحبوب. مـــن جهة أخرى، لم يكن هناك خيار آخر، ما دمت قد التقطت الفـــانوس، تقـــع علىّ مهمة وضعه ثانية على الأرض. تتعقد الأنشوطة حول نفسها، لا أستطيع العثور على النهاية.

يمضى العميد، اليوم التالى بأكمله، فى النوم، فى غرفته فى الفـــندق، ويكـــون عـــلى العاملين السير على أطراف أصابع أقدامهـــم، فى خـــلال إنجـــاز واجباتهم. أحاول عدم الاهتمام بالحزمة الجديدة من السجناء فى الباحة. ومن المؤسف أن كافة أبـــواب مبنى الثكنات فضلاً عن باب السلم المؤدى إلى شقتى تنفـــتح على الساحة. أهرع خارجا فى الضياء الأول للصباح، أشـــغل نفسى بإيجارات البلدية، أتعشى مساء مع أصدقاء. فى طـــريق العـــودة إلى المـــنزل أقابل الملازم الشاب الذى رافق العميـــد جول إلى الصحراء وأهنؤه على سلامة العودة، "ولكن لمـــاذا لم تشرح للعميد أن الصيادين قد لا يكونون قادرين على مســـاعدته فى تحقيقاته؟" يبدو مرتبكاً، ويقول لى، "لقد تحدثت ولكن كل ما قاله كان، "السجناء هم السجناء". وقررت أنه ليس بإمكانى النقاش معه".

يـــبدأ العميد تحقيقه فى اليوم التالى. فيما مضى اعتقدت أنه

كســول، إلى حــد أبعد من رجل بيروقراطى ذى ميول فاسدة، اليوم أدرك كم كنت مخطئا. لا يتعب فى بحثه عن الحقيقة. يبدأ الاســتجواب فى ساعة مبكرة من الصباح، ولا يزال مستمراً، لحين عودتى بعد هبوط الظلام. لقد جند مساعدة صياد أمضى حياته فى إطلاق النار على الخنازير على طول النهر، ويعرف مائــة كــلمة مــن لغة قوم الصيادين. واحداً بعد آخر، يؤخذ الصــيادون إلى الغرفة التى كان العميد قد استقر فيها ، ليسألوا ان كــانوا قــد شــاهدوا حركات خيالة غرباء. الطفل أيضاً تم اســتجوابه، "هــل قــام غرباء بزيارة والدك فى خلال الليل؟" (أخمــن بطــبيعة الحــال، ما يدور فى الغرفة، أخمن الخوف والارتــباك والشــرود.) لا يعود السجناء إلى الساحة، بل إلى قاعــة الثكنات الرئيسة: الجنود قد تفرقوا ، وزعوا على جهات البلدة الأربع. أجلس فى غرفتى، نوافذى مغلقة، أحاول القراءة، فى ســخونة الجــو المضغوط لمساء بلا ريح، اجهد نفسى أن أســمع أو لا أسمع أصوات العنف، وأخيراً، فى منتصف الليل، يــتوقف التحقيق، وتخمد فرقعة الأبواب ووقع الخطى، الساحة ساكنة تحت ضوء القمر، عند ذلك يؤذن لى بالنوم.

لقد غادر الفرح حياتى. أقضى النهار فى التعامل مع بيانات وأعــداد، متوســعاً فى أعمالى البسيطة عن أجل ملء الفراغ. أتــناول الطعــام فى الفندق مساء ثم أعود مرغما إلى البيت. أصــعد إلى الطــابق العــلوى، إلى الجزء المخصص للغرف

المنفصـــلة، المكعـــبة الشكل، حيث ينام سُواس الخيول وحيث تُسَرِّى الفتيات عن أصدقائهن من الرجال.

أنام مثل رجل ميت. عندما أصحو أجد فى الضوء الشاحب لســاعات الصباح الأولى، البنت متمددة، منطوية على نفسها، على أرضية الغرفة. ألمس ذراعها: "لمازا تنامين هنا؟ ". تبتسم لى. "كـــل شـــىء عـــلى مـــا يرام، أنا فى وضع مريح. (ذلك صـــحيح: مســـتلقية على جلد خروف ناعم، تتمطى وتتثاءب، جســـدها الدقيـــق لا يكاد يملؤه.) "كنت تهذر قى نرمك، طلبت عنى الانصراف، وهكذا قررت انه من الأفضل لى النوم هنا.

"طلبت أنا منك الانصراف؟"

"نعـــم، فى خلال نومك، لا تنزعج". تصعد إلى جوارى فى السرير، احتضنها بامتنان، وبلا رغبة.

أقول: "أود النوم هنا ثانية تة الليلة". تمرغ انفها فى صدرى. يخطـــر بـــبالى ان كل ما أريد ان أقوله لها، سيسمح بمشاركة وجدانيـــة، بحـــنان. ولكن ماذا باستطاعتى القول؟ أمور مخيفة تجـــرى فى الليل، بينما نكون انت وأنا نائمين"؟ الثعلب يسرق أحشاء الأرنب، ولكن العالم يستمر فى الدوران.

امضى نهاراً آخر وليلة أخرى بعيداً عن سلطة الألم. أغلى فى الـــنوم بين ذراعى الفتاة. ثانية، تكون مستلقية على أرضية الغـــرفة فى الصـــباح. تضحك عند نزعى: "لقد دفعتنى خارج

الســـرير، ليديك وقدميك. أرجو ان لا ترتبك، نحن لا نستطيع التحكم بأحلامنا أو ما نفعله فى خلال النوم". أتأوه وأدير وجهى عــنها. أنـــا اعرفها منذ عام. أقوم بزيارتها أحياناً مرتين فى الأســـبوع، فى هــذه الغــرفة. أحس بمشاعر هادئة تجاهها قد تكـــنون أفضـــل ما يأمله المرء من علاقة بين رجل متقدم فى الســـن وفـــتاة فى العشرين، أفضل بالتأكيد من هوى متملك لقد ناورت مع فكرة الطلب منها للعيش معى. أحاول ان أتذكر أى كابوس تملكنى عندما دفعتها بعيداً عنى، لكننى أخفق. أقول لها، "ان فعلتها ثانية يوما ما، عليك ان تعدى بإيقاظى".

فى مكتــبى فى دار المحكمة، بعدئذ، يعلن عن قدوم زائر. العميـــد جول مرتدياً، فى داخل الغرفة، غطائى عينيه، يجلس ليعد دخوله فى مواجهتى. أقدم الشاى إليه، مندهشاً لمدى ثبات يـــدى. يقـــول انه على وشك الرحيل، هل يتوجب على إضفاء فرحتى؟ يحتسى شايه، جالساً بعناية، منتصباً، متفحصا الغرفة، صـــفوف هـــن أوراق فـــوق صفوف مرزومة معا" ومشدودة بـــرباط، ســـجلات لعقـــود مـــن الإدارة المملة، حافظة كتب للنصوص القانونية، المكتب المركوم بغير انتظام. يقول، انه قد أنـــهى استقصــــاءاته، فى الوقـــت الحاضـــر، وانه مسرع إلى العاصمة لكتابة تقريره. تبدو عليه سيماء انتصار يسيطر عليها بقـــوة. أحنى رأسى متفهما. أقول له: "ماذا يمكننى أن أفعل من اجـــل تسهيل مهمتك...؟" تمر برهة من السكون بيننا. ثم إلى

الصمت، اقذف بسؤالي، مثل حصاة ترمى في بركة: "هل كانت تحقيقاتك أيها العميد بين أقوام البدو والبدائيين ناجحة كما كنت تأمل؟"

يقرب يديه، رأس أصابع يدٍ إلى رأس أصابع الأخرى، قبل أن يجيب. امتلك إحساساً من معرفته إلى أي درجة كبيرة تثيرني عواطفه. نعم، أيها القاضي، أستطيع أن أقول: "إننا قد حققنا بعض النجاح. وخاصة أن تضع في الاعتبار أن تحقيقات مماثلة، تجري في أماكن أخرى على طول الحدود، وبشكل متناسق".

"ذلك أمر حسن. هل يمكنك أن تخبرنا فيما إذا كان هناك ما نخشاه؟ هل بإمكاننا النوم بأمان في الليل؟".

تتجعد زاوية فمه في ابتسامة ضيقة. يقف بعدئذ، ينحني، يستدير ويغادر. في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي يرحل برفقة حارسه الضئيل، متخذاً الطريق الشرقي الطويل، عائداً إلى العاصمة.

لقد تدبرنا طوال مدة مرهقة، أن يتصرف كل واحد منا نحو الآخر، كأناس متحضرين. لقد آمنت طوال حياتي بالسلوك المتحضر، وفي هذه المناسبة، لا أستطيع أن أنكر، ان الذاكرة تتركني مشمئزاً من نفسي.

كان عملي الأول زيارة السجناء. افتح أقفال قاعة الثكنات،

الـــتى أصبحت سجناً لهم، تتقزز حواسى بسبب الرائحة النتنة لـــلعرق والـــروائح الكـــريهة الأخـــرى. أفـــتح الأبواب على مصـــراعيها. "أخـــرجوهم مـــن هنا!" أصيح بوجه الجنود – المـــرتدين نصـــف ملابســـهم الواقفين حولنا، يراقبوننى وهم يتناولون حساءهم. من خلال العتمة فى الداخل، يحدق السجناء بلا مبالاة بالمقابل. أصرخ، "اذهبوا إلى الداخل ونظفوا المكان تمامـــاً. أريد أن يبدو كل شئ نظيفاً! صابون وماء! أريد أن يعـــود كل شئ إلى ما كان عليه من قبل! يسرع الجنود لتلبية الأوامر، لابد أنهم يتساءلون، لماذا أوجه غضبى نحوهم. يخرج الســـجناء إلى ضوء النهار، تطرف أعينهم، يقومون بتغطيتها. إحـــدى النسوة فى حالة تستدعى المساعدة. إنها ترتعش طوال الوقـــت مثل شخص عجوز، على الرغم من كونها شابة. هناك آخرون مرضى أيضاً، لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم.

مضـــت خمســـة أيام على رؤيتى إياهم (ان كنت أقدر على الادعـــاء قـــط من رؤيتى لهم، ان فعلت قط أكثر من المرور ببصرى على وجوههم بغير انتباه ومع نفور...). لا أعرف ما الـــذى عـــانوه فى خلال هذه الأيام الخمسة. الآن وبعد أن تم اقتيادهم من قبل الحراس، يقفون فى حزمة صغيرة يائسة، فى زاويـــة مـــن الساحة، البدو والصيادون معا، مرضى، جوعى، متضـــررون، فـــزعون. سيكون من الأفضل، لو ينهى وعلى الفـــور هـــذا الفصـــل الغريب من تاريخ العالم، أن تمت إزالة

هــؤلاء القوم من على وجه الأرض وأقسمنا نحن على أن نبدأ مـــن جديد من أجل إدارة إمبراطورية لا يوجد فيها المزيد من الظلم، المزيد من الألم. سيكلف الأمر قليلاً، أن نقودهم خارجا" فى مسيرة إلى الصحراء (بعد أن نضع قى جوفهم وجبة طعام، ربمــا كى نجعل المسيرة ممكنة)، أن ندفعهم كى يحفروا بآخر قــوة فيهم، حفرة يكون حجمها كافيا" (أو ربما نحفرها لهم!)، وندعهــم مدفونين، هناك إلى أبد الآبدين، وأن نعود إلى البلدة المسورة ممتلئين بنوايا جديدة، وقرارات جديدة. ولكن ذلك لن يكــون طــريقى. رجال إمبراطورية جديدة هم الذين يؤمنون بــبدايات جديدة، فصول جديدة، صفحات نظيفة. أناضل أنا مع القصة القديمة، آملاً أنها قبل أن تنتهى ستكشف لى عن السبب الــذى جعلنى أظن أنها جديرة بالعناء. وهكذا يكون الأمر. بعد أن عــادت إلى اليــوم مهمـــة إدارة القــانون والنظام فى هذه الأرجــاء، آمــر أن يطعم السجناء، وأن يستدعى الطبيب إليهم لعمل ما فى وسعه، أن تعود الثكنات إلى كونها ثكنات، أن تتخذ الترتيبات لإعادة السجناء إلى حياتهم بأسرع وقت ممكن، والى أبعد حد ممكن.

* * *



تجـثو فى ظـل جدار الثكنات على مسافة عدة ياردات عن الـبوابة، ملـتفة فى معطف جد واسع عليها، قبعة من الفراء أمامهـا عـلى الأرض. لديها الحاجبان المستقيمان الأسودان، الشـعر الأسـود الـلماع للـبرابرة. ما شأن امرأة بربرية فى الاسـتجداء بالبـلدة؟ لا يوجـد فى قبعتها غير عدد ضئيل من القروش.

أمر بها مرتين تقريبا فى خلال النهار. تمنحنى فى كل مرة نظـرة غريبة، محدقة باستقامة إلى الإمام، حتى أقترب منها، عـندئذ تديـر رأسها عنى ببطء شديد. فى المرة الثانية أسقط قطعـة نقود فى القبعة. أقول، "الجو بارد والوقت متأخر للبقاء خارج البيوت". تومئ برأسها. الشمس تغيب خلف شريط طويل وضيق من غيوم سوداء. الريح القادمة من الشرق، بدأت الآن تحمل ذرات من الثلج. الساحة خالية، أمضى إلى الأمام.

لـم تكـن هناك فى اليوم التالى، أتحدث مع حارس البوابة، "كانت امرأة تجلس هناك طوال يوم أمس، تتسول. من أين آتية هى؟". يجيـب لأن المرأة عمياء. إنها واحدة من البرابرة التى جاء بهم العميد إلى هنا. لقد تركت وراءهم بعد رحيلهم.

أراها، بعد بضعة أيام، تجتاز الساحة، تسير ببطء وبارتباك

بعكازين، أطراف معطفها المصنوع من جلد الخراف، تتجرجر خلفها في التراب. أصدر أوامري: بأن تستدعي إلى حيث أسكن، حيث تقف أمامي متوكئة على عكازين. أقول" "انزعي – قبعتك"، يقوم الجندي الذي كان قد جلبها إلى بنزع القبعة عنها. إنها عين الفتاة، الشعر الأسود نفسه بقصة على الجبين، الفم الواسع نفسه، العينين السوداوين اللتين تتطلعان مباشرة ثم تتجاوزانني.

"يقولون لي: انك عمياء".

تقول، "أستطيع أن أرى" تتحرك عيناها مبتعدتين عن وجهي وتستقران في مكان ما خلفي من جهة اليمين.

"من أين قدمت؟". ألقي بلا تفكير نظرة خاطفة من فوق كتفي. أنها لا تحدق في شيء غير جدار خال. أصبحت نظرتها أكثر صراحة. عارفاً، بالتو، الجواب، أعيد سؤالي، تواجهه بالصمت.

أصرف الجندي. نبقى وحدنا.

أقول: "اعرف من تكونين. هل تسمحين بالجلوس؟". أتناول عكازيها أساعد في إجلاسها علي مقعد بلا مسند. تحت معطفها ترتدي سروالاً تحتانياً عريضاً من الكتان، أدخلت أطرافه في حذاء ذي ساق طويلة (جزمة) وبنعل ثقيل. تفوح منها روائح دخان، ملابس بالية، وسمك. يداها خشنتان.

أسأل: "هل تكسبين رزقك بالتسول؟ ليس من المفروض، كما تعلمين ، أن تكونى فى البلدة. بإمكاننا طردك فى أى وقت وإعادتك إلى قومك".

تجلس محدقة إلى الأمام بشكل غريب.

أقول: "انظرى إلى".

"أنا انظر. هكذا أبدو".

أحرك يداً أمام عينيها. تطرف عيناها. أقرب وجهى منها وأتفرس فى عينيها. تدير نظرتها من الجدار نحوى. القزحيتان، عوضتا ببياض كالحليب، صافيتان كعيون الأطفال. ألمس خدها. تجفل.

سألت "كيف تكسبين رزقك؟"

تهز كتفيها، "اغسل الملابس".

"أين تقيمين؟"

"أعيش".

"نحن لا نسمح بالمتسولين فى البلدة. الشتاء على الأبواب. لابد ان يكون لديك مكان ما للسكن، والا فعليك أن تمضى عائدة إلى قومك".

تجلس بشكل فظ. أدرك أننى أحوم حول الموضوع.

"بإمكـــانى توفير عمل لك. أريد أحداً يعتنى بترتيب الغرف وبـــتدبير أمـــر الغسيل. المرأة التى تقوم بهذه الأعمال حالياً، ليست مناسبة".

تدرك ما أعرضه عليها. تجلس متصلبة، يداها فى حضنها.

"هل أنت وحيدة؟ أرجو الإجابة؟"

"نعم"، يأتى صوتها هامسا. تنظف حنجرتها، "نعم".

"قدمـــت عرضـــاً بوجـــوب قدومـــك للعمل هنا. لا يمكنك الاســـتجداء فى الشـــوارع. لا أستطيع السماح بذلك. ولابد من مكـــان للإقامة فيه. بإمكانك، إن عملت هنا، مشاركة الطباخة غرفتها".

"إنك لا تفهم. أنت لست فى حاجة إلى واحدة مثلى. " تتلمس الطريق إلى عكازيها. أدرك أنها غير قادرة على الإبصار.

"أنـــا..."، تمسك بسبابتها، تقبض عليها، تلويها. لا امتلك أنا فكـــرة عما تعنيه الحركة. "هل بإمكانى الذهاب؟". تجد بنفسها الطـــريق نحـــو رأس السلم، وبعد ذلك، كان عليها الوقوف فى انتظارى لمساعدتها على النزول.

يـــوم يمر. أحدق فى الساحة ملياً، حيث الريح تطارد هبات الـــتراب. ولدان صغيران يلعبان بطوق. انهما يطلقانه للريح ، الطوق يتدحرج إلى الأمام، يتباطأ، يتأرجح، يعود إلى الوراء،

يسـقط. يرفع الولدان وجهيهما ويركضان خلفه، الشعر يتطاير عن جبينيهما الأملس.

أجـد الفـتاة وأقف أمامها. تجلس وظهرها مسند إلى جذع إحـدى أشجار الجوز الضخمة. من الصعب ملاحظة إن كانت مسـتيقظة. أقـول، "تعـالى"، وألمـس! قبعتها وأناولها إياها، أساعدها فى الوقوف على قدميها، أسير ببطء إلى جوارها عبر السـاحة الخالية الآن إلا من حارس البوابة، الذى يظلل عينيه، للتحديق بنا.

النار موقدة. أسدل الستائر، أشعل المصباح. ترفض الجلوس عـلى المقعد، ولكنها تستسلم وتتخلى عن عكازيها وتجثو على السجادة.

أقـول: "الأمـر ليـس مـا تعتقدينه". الكلمات تخرج على مضـض. هل أنا حقاً على وشك تبرير نفسى؟ شفتاها مطبقتان بشـدة، أذناهـا بـلا شـك أيضاً. إنها لا تريد شيئا من رجال مـتقدمين فى السـن وضـمائرهم التى تنطق بالشكوى. أدور حولهـا، مـتحدثاً عن قانون البلدة المحلى، مشمئزاً من نفسى. بشرتها تبدأ بالتوهج من دفء الغرفة المغلقة، تسحب معطفها، تعـرض رقبـتها للـنار. البعد بينى وبينها معذب، وهو جدير بالإهمال. يقشعر بدنى.

"أريـنى قدميـك، "أقول بالصوت الجديد الذى يبدو أنه لى.

"أرينى ما فعلوه بقدميك".

إنهــا لا تســاعدنى ولا تمنعنى. أحل الأشرطة الجلدية عن ثقــوب المعطف، افتحه اخلع عنها الحذائين. انه حذاء (جزمة) مــن نــوع الأحذيــة الرجالية، جد واسع عليها. وقدماها، فى داخلهما ملفوفتان، لا شكل لهما. أقول، "دعينى أر".

تــبدأ فى فك الأربطة القذرة. أغادر الغرفة، أنزل تحت إلى المطــبخ. أعود بطست وإبريق ماء دافئ. تجلس منتظرة على السجادة. قدماها عاريتان. إنهما عريضتان، والأصابع غليظة، الأظافر مكسوة بطبقة من القذارة.

تمرر إصبعاً عبر طرف كاحلها، "هنا، المكان الذى انكسر، الآخر أيضاً". تميل إلى الخلف مستندة على يديها وتمد قدميها.

أقــول: "هــل يؤلمك؟". أمرر إصبعى على الخط، دون أن أحس بشىء.

"لم يعد كذلك، لقد اندمل. ولكن ربما عندما يبرد الجو".

أقــول: "عليك بالجلوس". أساعدها فى خلع معطفها، أجلسها عــلى المقعد. أصب الماء فى الطست، وأبدأ فى غسل قدميها. تــبقى قدماهــا متصــلبتان لوهلة، ثم تستريحان. مكوناً رغوة صــابون، أغســل على مهل، قابضاً على ربلة الساق بلحمها المتماسك، معالجاً عظام قدميها وعروقهما، ممرراً أصابعى بين

أصابعها. أغير موضعى لأجثو، ليس أمامها، بل إلى جوارها، إذ إننى بالإمساك بالساق بين المرفق والجنب، أكون قادراً على تدليك القدم بكلتا يدى.

أفقد صوابى فى إيقاع ما أفعله. أفقد الإحساس بوجود الفتاة نفسها. هناك فاصلة من الزمن خالية بالنسبة لى، ربما حتى أنا غيـــر موجـــود فيها. عندما أعود إلى نفسى، أصابعى تكون قد ارتخت، القدم ترتاح فى الطست، رأسى يتدلى.

أجفــف القـــدم اليمنى، أتحول إلى الجهة الأخرى، أرفع ساق الســـروال العريض حتى الركبة، أقاوم النعاس، أبدأ بغسل الساق اليســـرى. أقـــول، "تغدو هذه الغرفة، أحياناً، حارة جداً". لا يقل ضغط ساقها على جنبى. أواصل حديثى، "سأبحث عن ضمادات نظيفـــة لقدمـــك، ولكـــن ليس الآن". أدفع الطست جانباً وأجفف القدم. أحس أن الفتاة تجهد نفسها للوقوف، ولكنى أفكر ان عليها الآن أن تعتـــنى بنفســـها. عيناى مغلقتان. يصبح الاحتفاظ بهما مغلقتين سعادة بالغة، أن أستمتع بدوار منتهى البهجة.

أتمدد على السجادة. وفى لحظة أستغرق فى النوم. أستيقظ فى منتصف الليل، مقروراً ومتصلباً. النار انطفأت، الفتاة رحلت.

* * *

أرقـــبها تـــأكل، إنها تأكل كشخص أعمى، محدقة فى لقطة

بعيدة، تتلمس طريقها، تمتلك شهية جيدة، شهية امرأة ريفية قوية.

أقول: "ألا أصدق أنك قادرة على الإبصار".

"نعم، بإمكانى الإبصار. عندما أنظر باستقامة ، لا أجد شيئاً، هناك..." (تدعك الهواء أمامها، مثل شخص ينظف نافذة).

أقول: "لطخة".

"هناك لطخة، لكننى أستطيع الرؤية عبر زاويتى عينى. العين اليسرى افضل من اليمنى. كيف يمكننى إيجاد طريقى إن لم أكن قادرة على الرؤية.

"هل فعلوا هذا بك؟"

"نعم".

"ماذا فعلوا؟"

تهز كتفيها وتصمت. صحنها فارغ. أصب لها المزيد من يخنة الفاصوليا التى يبدو أنها أعجبتها كثيراً. تأكل بسرعة كبيرة. تتجشأ خلف يد كأسية الشكل ثم تبتسم. تقول، "الفاصوليا تولد الغازات". الغرفة دافئة، معلق معطفها فى زاوية وتحته حذاؤها، إنها ترتدى القميص الأبيض فقط والسراويل الطويلة. عندما لا تكون ناظرة نحوى فأنا كلب صيد من كثرة التحرك حواليها. غير قادر على تحديد محيط دائرة بصرها. عندما

تتطـــلع نحـــوى، أكون لطخة، صوتاً، رائحة، مركز طاقة تسقط فى الـــنوم وهى تغســـل قدميهـــا وفى اليـــوم الـــتالى، تطعمها الفاصولياء، وفى اليوم التالى- إنها لا تعرف.

أجلسها، املأ الطست، ألف أطراف السراويل حتى ركبتيها. والآن وبعد أن تصبح قدماها معاً فى الماء، أستطيع أن أرى أن اليسرى ملتوية أكثر إلى الداخل من اليمنى. وأنها عندما تقف، يـــتوجب عليها الوقوف على الحافة الخارجية لقدمها. كاحلاها ممتلئان، لا شكل لهما، البشرة ذات ندوب أرجوانية.

أبدأ بغسلها. ترفع قدميها لى بالتتابع. أدلك وأدعك الأصابع الـــرخوة بواســـطة الصـــابون اللبنى الناعم. سرعان ما تنغلق عيناى، يتخاذل رأسى. إنها نشوة من نوع ما.

بعـــد الانـــتهاء من غسل قدميها أبدأ بغسل ساقيها. من أجل هـــذا، عـــليها الوقـــوف فى الطست والاستناد إلى كتفى. يداى تتحركان أعلى وأسفل ساقيها من الكاحلين حتى الركبتين، خلفا وأمامـــاً، معتصراً، ملاطفاً ومربتاً. ساقاها قصيرتان وقويتان، قويـــة الربلـــتين. تتحرك أحياناً أصابعى خلف ركبتيها، متتبعة العـــروق، ضـــاغطة على الفراغات بينهما، خفيفة كريشة تتيه صاعدة نحو فخذيها.

أساعدها فى الذهاب إلى السرير، وأجففها بمنشفة دافئة. أبدأ بتشـــذيب وتـــنظيف أظافـــر قدميها. ولكن أمواج النوم، تكون

آنذاك، متدفقة فى. أفاجأ برأسى منحنياً، جسدى متهالكاً إلى أمام فى غيبوبة. أضع المقص بعناية جانباً، ثم أنام، بكامل ملابسى، عـــلى الســـرير بجوارها، بشكل متعاكس، رأسى نحو قدميها. أطـــوى ســـاقيها بين ذراعى، أضع رأسى عليهما، وفى لحظة أكون نائماً.

أصـــحو فى الظلام. ضوء المصباح منطفئ، ورائحة ذبالة محـــترقة فى المكان. أنهض وأفتح الستائر. تنام الفتاة مجتمعة عـــلى نفســـها، ركبتاها مشدودتان نحو صدرها. تتأوه، عندما ألمسها، وتجمع نفسها بشدة أكثر.

أقـــول، "إنك تتعرضين للبرد". ولكنها لا تسمع شيئاً. أفرش بطانية فوقها ثم بطانية ثانية.

* * *

تـــأتى أولاً طقوس الاغتسال، وهى عارية من أجلها، أغسل قدميهـــا، كمـــا فى الســـابق، ساقيها وردفيها. يداى المصوّبتان تـــرحلان، من دون اهتمام كما أحس إلى ما بين فخذيها. ترفع ذراعيها وأنا أغسل إبطيها. أغسل بطنها، صدرها، أدفع شعرها جانباً وأغسل رقبتها، حنجرتها. إنها صبور. أشطفها وأجففها.

تستلقى على السرير، أدعك جسدها بزيت اللوز. اغلق عينى وأفقد صوابى فى إيقاع الدعك، بينما النار، مغذوّة بكومة عالية، تهدر فى الموقد.

لا أمتـــلك أى رغـــبة فى دخول هذا الجسد القوى الممتلئ القـــوى الصـــغير المتلألئ الآن فى ضوء النار. مضى أسبوع على تبادلنا الكلام. أطعمها، آويها، استعمل بدنها، إن كان الأمر كذلـــك كهذه الطريقة الغريبة. كانت هناك لحظات تتصلب فيها لمداعبات حميمة معينة، ولكن جسدها الآن يستسلم عندما أفرك رأســـى ببطـــنها أو أمسك بقدميها بين فخذى. إنها تستسلم لأى شـــىء. تتســـلل أحياناً إلى النوم قبل أن أنتهى. بعمق تنام كما الأطفال.

بالنســـبة لى، أقدر، تحت بصرها الأعمى، على نزع ثيابى، فى الدفء الشديد للغرفة، دون ارتباك، معرّيًا، ساقىّ النحيفتين، أعضـــائى التناسلية المسترخية، بطنى، والصدر المتهدل لرجل عجـــوز مثـــلى، وحنجرتى ذات الجلد الشبيه بجلد ديك رومى. أجـــد نفسى متجولاً فى المكان، دون تفكير بهذا العرى، وابقى أحيانـــاً، متدفئاً عند النار، بعد أن تخلد الفتاة إلى النوم، أو أقرأ جالساً على كرسى.

ولكنـــنى فى الغـــالب، فى تمام فعل ملاطفتها، يتغلب على النوم، مثل فأس جزار، أسقط فى لا وعى وأنبطح علي جسدها بغيـــر انتظام، وأصحو بعد ساعة أو ساعتين، دائخاً، مرتبكاً، عطشـــاناً. هذه النوبات الخالية من الأحلام أشبه بموت بالنسبة لى أو سحر، فراغ مطلق خارج الجسد.

ذات أمســية، ماســحا جلدة رأسها بالزيت، مدلكا صدغيها وجبيــنها، ألاحظ فى زاوية إحدى عينيها تجعيدة بلون ضارب إلى الرمادى وكأنما يرقة فراشة تستلقى هناك، ترعى، ورأسها تحت جفن الفتاة. أسأل متتبعا اليرقة بإصبعى، "ما هذا؟"

"ذلك حيث لمسونى، "تقول وهى تدفع يدى بعيداً.

"أيؤلمك؟"

تهز رأسها.

"دعينى أر"

الأمر قد بدا يتضح لى أكثر وأكثر. إنه ما لم تُكتشف وتُفهم معــنى العلامــات على جسد هذه الفتاة. فإننى غير قادر على الســماح لها بالذهاب. بين السبابة والإبهام، أفصل بين جفنيها. اليــرقة تصــل نهايتها، حيث ينقطع رأسها، عند حافة الزاوية الوردية للجفن. لا توجد علامات أخرى. العين لم تمس.

أنظر فى العين. هل أصدق أن نظراتها المستجيبة، لا ترى شيئاً - ربما قدمى، أجزاء من الغرفة، دائرة مضببة من ضياء. وأمــا فى الوســط، حيث أنا، فلا شىء غير الضباب، الفراغ؟ أمرر يدى ببطء أمام وجهها، مراقباً بؤبؤها. لا أميز حركة ما. انها لا تطرف. لكنها تبتسم: "لماذا تفعل هذا؟ هل تعتقد أننى لا أبصر"؟

عينان بنيتان، بنيتان جداً، وكأنهما سوداوان.

ألمس بشفتى جبينها. أدمدم، "ماذا فعلوا بك؟" لسانى يطىء، أتأرجح جهداً. "لماذا لا تريدين إخبارى؟"

تهز رأسها. أتذكر وأنا على حافة اللاوعى، أن أصابعى فى مرورها على وركيها، أحسست بشبح خطوط متشابكة مرتفعة تحت الجلد. أغمغم، "لا شىء أسواء مما نتخيله". لا يبدو عليها علامـــة مـــا عـــلى أنها حتى قد سمعتنى. أستلقى متهالكا على المضـــجع، ســـاحباً إياها إلى جوارى، متثائباً. أريد أن أقول، "احـــكى لى، لا تجعـــلى من الأمر سراً. الألم هو الألم". ولكن الكـــلمات تنفـــلت منى. تلتف ذراعاى حولها، شفتاى فى فراغ أذنها، أجهد نفسى كى أتحدث، ثم تسقط العتمة.

* * *

لقـــد خلصـــتها من عار التسول، وعينتها خادمة فى حجرة غســـل الأطباق والأوانى. "من المطبخ إلى سرير القاضى فى ســـت عشـــرة درجـــة سهلة" هكذا يتحدث الجنود عن خادمات المطـــبخ. مـــن أقوالهم الأخرى، "ما هو آخر ما يفعله القاضى عندما يغادر صباحاً؟ - إنه يحجز أحدث فتياته فى الفرن. كلما كـــانت البـــلدة أصغر، اغتنت همهمات القيل والقال. لا توجد مسائل شخصية هنا. القيل والقال هو الهواء الذى نتنفسه.

انهـــا، فى جـــزء مـــن الـــنهار ، تغســـل الأوانى، تقشـــر الخضـــراوات، تساعد فى إعداد الخبز وتهيئ الأعمال الرتيبة المتعـــلقة بالعصيدة والحساء واليخنة، التى تقدم للجنود. وهناك إلى جوارها، السيدة العجوز التى سيطرت على المطبخ طوال المـــدة الـــتى أمضيتها كقاض، تقريبا، وأيضاً فتاتان، الصغرى مـــنهن صعدت الدرجات الست عشرة مرة أو مرتين فى العام الماضـــى. أشـــعر، فى بـــادئ الأمر، بالخوف من أن الاثنتين ســـتتحدان ضـــدها، ولكـــن لا، يـــبدو أنهن وبسرعة أصبحن صـــديقات. مجـــتازاً باب المطبخ فى طريقى للخروج، أسمع، مختـــلطا لـــدفء الـــبخار، أصواتاً، ناعمة، تثرثر، وتضحك. استمتع بتتبع أثر باهت للغيرة فى داخلى.

أسألها، "أأنت راغبة فى العمل؟"

"أحب الفتيات الأخريات. إنهن لطيفات."

"انه على الأقل، افضل من الاستجداء. أليس كذلك؟"

"نعم".

الفـــتيات الـــثلاث ينمن معاً فى غرفة صغيرة، على مبعدة أبـــواب عـــن المطبخ، إن لم يكن نائمات فى مكان آخر. إنها الغرفة التى تجد هى طريقها إليها فى الليل أو فى ساعة مبكرة فى الصـــباح. لا شـــك ان صديقاتها قد ثرثرن حول مواعيدها هذه، والتفاصيل كلها فى طول ساحة السوق وعرضها.

كلما كان الرجل متقدما فى السن أكثر، اعتبر ارتباطه بجنس آخر أكثر غرابة. مثل تشنجات حيوان ميت. فأنا لا اقدر أن ألعب دور رجل حديدى أو أرمل قديس.

ضحكات نصف مكبوتة، دعابات، نظرات تقول بأنها تعرف، هى جزء من ثمن قررت دفعه..

أسألها بحذر، "هل تحبين العيش فى البلدة؟"

"أحب ذلك فى أغلب الأحيان. هناك أمور أكثر يفعلها المرء."

"هل هناك أشياء تفتقدينها؟"

"أفتقد شقيقتى".

أقول، "إن كنت حقاً تريدين العودة، سأعمل لتؤخذين".

تقول، "أؤخذ إلى أين؟". تتمدد على ظهرها وذراعاها موضوعتان على صدرها. أستلقى إلى جوارها، متحدثاً بنعومة. هذا هو الموضع الذى يحدث فيه القطع دائماً. هنا حيث يدى تداعب بطنها، تبدو فيه خرقاء تماماً كسرطان بحر. الدافع الحسي، إن كان هذا ما قد يكون يرتخى، وباندهاش أجد نفسى، متعلقاً بهذه الفتاة البلَيدة، غير قادر على تذكر أى شىء رغبت به فيها قط، غاضبا" على نفسى، لأننى أريدها ولا أريدها.

هى شخصيا" غافلة عن تأرجح مزاجى، لقد بدأت أيامها

نستقر فى سياق رتيب، تبدو فيه مقتنعة. فهى فى الصباح وبعد مغـــادرتى، تـــأتى لكنس وتنظيف الشقة. ثم تساعد فى المطبخ لإعـــداد طعـــام منتصـــف النهار، ساعات الظهيرة فى الغالب تخصــــها وحدهـــا. بعـــد وجـــبة المساء، وبعد أن تكون كافة الصـــحون والقدور قد كلت والأرضية غسلت والنار أخمدت، تترك رفيقاتها وتأخذ طريقها صاعدة السلم إلى. تخلع ملابسها وتســـتلقى على الفراش، فى انتظار ملاطفاتى الغامضة. ربما أجلس بجوارها، مطبطبا" على جسدها، منتظراً فورة دم، قد لا تأتى قط بشكل حقيقى. ربما أطفئ المصباح ببساطة وأستقر فى الفـــراش بجوارهـــا. فى الظـــلمة، سرعان ما تنسى وجودى وتســـتغرق فى الـــنوم. وهكـــذا أتمدد جنب هذا الجسد الشاب الموفـــور الصـــحة، بينما يكون فى خلال ذلك، ينسج نفسه فى خلال النوم للحصول على مزيد من القوة، يعمل بصمت، حتى عـــند درجات الضرر الذى لا ينصلح، العينان، القدمان، ليكون سليماً ثانية.

أرمى بذاكـــرتى إلى الوراء، محاولاً استعادة صورة لها كما كـــانت مـــن قبل. على أن أقتنع بأننى لا بد قد رأيتها فى اليوم الذى جلبت فيه من قبل الجنود مربوطة الرقبة إلى رقبة سجين بربرى آخر. أعلم أن نظرتى لابد أن تكون قد مرت عليهـــا، عـــندما جلست مع جمع الأسرى فى ساحة الثكنات، فى انتظار الذى سيحدث فى الخطوة التالية. عيناى عبرتا عليها، ولكننى لا

احمـــل أى ذكـــرى لذلك العبور. فى ذلك اليوم، كانت ما تزال خاليـــة مـــن العلامـــات. ولكـــن على أن أقتنع بأنها كانت بلا علامـــات، كمـــا على أن أقتنع بأنها ذات يوم كانت طفلة، فتاة صـــغيرة ذات ضفيرة تتدلى من مؤخرة رأسها، تركض خلف حَمَلها المدلل فى عالم حيث أمضيت فى مكان بعيد عنها بخطى واســـعة ريعان حياتى. مجهداً نفسى كما أرغب، تبقى الصورة الأولى التى أتذكرها هى الفتاة الجاثية المستجدية.

لـــم أدخل بها بعد. لم تجرفنى الرغبة ومنذ البداية إلى ذلك الاتجـــاه. إيـــواء عضـــوى الذابـــل لرجل مسن فى ذلك الغمد الساخن، يجعلنى أفكر بمادة حمضية فى حليب، رماد فى عسل، طباشـــير فى خـــبز. عـــندما أتطلع إلى جسدها العارى وإلى جســـدى، أدرك أنـــه من المستحيل أن أعتقد بأننى فى يوم من الأيـــام قد تخيلت الشكل البشرى على شكل وردة تشع من نواة فى منطقة العانة. هذان الجسدان، لها ولى، مسهبان واهيان لا مركز لهما، يبرمان فى لحظة ما حول دوامة هنا، وعند التالية يتخـــثران يثخـــنان فى مكان آخر، ولكنهما فى الغالب راكدان وغيـــر مـــثمرين. لا أعرف ماذا أفعل معها، أكثر مما تعرف سحابة فى السماء أن تفعله مع أخرى.

أرقـــبها وهى تخلع ملابسها. محاولاً أن أعثر فى حركاتها عـــلى إشـــارة مـــا لحالة حرة قديمة. ولكن حتى الحركة التى

تسـحب بهـا ثوبهـا من أعلى رأسها وترميه جانباً، مبهمة، دفاعيـة، مقيـدة، وكأنما كانت خائفة من الارتطام بعائق غير مرئى. وجهها يحمل نظرة من يعرف أنه مراقب.

مـن صـياد يضع الشراك، اشتريت ثعلباً فضياً صغيراً، لا يتجاوز عمره بضعة شهور، فطم منذ أمد قريب، له أسنان مثل منشار جيد. أخذته هى معها فى اليوم الأول إلى المطبخ، لكنه ذعـر مـن النار والأصوات، وأنا، لهذا السبب أبقيه الآن فى الطـابق العـلوى، حيث يربض تحت قطع الأثاث. أسمع، فى خـلال الـليل، أحيانـاً صـوت طقطقة مخالبه على الأرضية الخشبية، حيث يتجول. إنه يلعق من إناء حليب ويأكل فضلات الـلحم المطهو. لا يمكن تربيته فى البيوت، فسرعان ما بدأت رائحـة فضلاته تنتشر فى الغرف. ولكن الوقت ما زال مبكراً جـداً على تسريحه ليتجول فى الساحة. وبين كل بضعة أيام، أنادى حفيد الطباخة ليزحف خلف الخزانة وتحت الكراسى من اجل تنظيف القاذورات.

أقول، "إنه مخلوق جميل جداً".

تهز كتفيها، "الحيوانات تنتمى إلى العراء".

"هل تريدين أن آخذه إلى البحيرة وأطلقه هناك؟"

"إنـك لا تقدر على القيام بذلك، إنه صغير جداً، وهو سينفق جوعاً أو تصيده الكلاب".

وهكـــذا يبقى الثعلب الصغير معنا. أرى أحياناً خطمه الحاد يتسلل من خارج زاوية مظلمة. وما عدا ذلك فهو مجرد صوت فى الليل، ورائحة نفاذة للبول، منتظراً أن يكبر إلى درجة كافية للتخـــلص منه. "سيقول الناس إننى أحتفظ بحيوانين بريين فى مسكنى، ثعلب وفتاة".

لا تفهم الدعابة، أو أنها لا تعجبها. شفتاها مطبقتان، نظراتها مركزة بقوة على الجدار، أدرك أنها تبذل أقصى ما فى وسعها للـــنظر نحـــوى. يميل قلبى إليها، ولكن ماذا بإمكانى أن أفعل؟ فســـواء كـــنت مـــرتدياً أرواب عملى المزخرفة، أو كنت أقف عارياً أمامها، أو أمزق صدرى وأفتحه لها، فإننى الرجل نفسه. أقـــول، "أنـــا آسف"، أبسط خمسة أصابع مجندة وأمسد شعرها "بالتأكيد، انه مختلف".

واحدا بعد آخر، أقابل أولئك الرجال الذين كانوا فى الواجب عـــندما كان التحقيق يجرى مع السجناء. أحصل من كل واحد منهم على المعلومات نفسها. إنهم نادرا ما تحدثوا مع السجناء، لم يسمح لهم بدخول الغرفة التى كان التحقيق يجرى فيها، وهم غيـــر قادرين على معرفة ما كان يدور هناك. ولكننى أحصل مـــن المـــرأة المسؤولة عن الكنس، على وصف للغرفة نفسها: "مجـــرد مـــائدة صـــغيرة، وكراسى بلا مساند، ثلاثة كراسى، وحصـــيرة فى الزاوية، وما عدا ذلك، كانت الغرفة عارية من

الأثـــاث... لا، لا نيران، مجرد مجمرة. اعتدت أن أفرغها من الرماد".

والآن والحياة قد عادت إلى طبيعتها، أصبحت الغرفة تحت الاســتعمال مجــدداً. وبناء على طلبى، يسحب الجنود الأربعة الذين كانوا استقروا هناك، خزاناتهم خارجا إلى الرواق، كوموا أمامهم فراشهم، أوانيهم وأكوابهم وفككوا حبال ملابسهم. أوصد الباب وأقف فى الغرفة الخالية. الهواء جامد وبارد. بدأت الآن ميـــاه البحيرة فى التجمد من جهة إلى أخرى. الثلوج الأولى قد تســاقطت، من بعيد أسمع أجراس عربة حصان. أغلق عينى وأبذل جهداً فى تخيل الغرفة كما لا بد أنها كانت قبل شهرين، فى خلال زيارة العميد. وأجد صعوبة فى الاستغراق مع وجود الشبان الأربعة فى الخارج، يتسكعون، يفركون أياديهم ببعضها، يدقون الأرض بأقدامهم، يدمدمون، وقد نفد صبرهم، فى انتظار خروجى، وأنفاسهم الدافئة تشكل هبات دخان فى الهواء.

أجــثو على الأرض، لأتفحص أرضية الغرفة. انها نظيفة، وهى تكــنس يومياً، وهى مثل أرضية أى غرفة أخرى. أرى ســخاماً فــوق المصــطلى، على الجدار والسقف. هناك أيضاً علامـــة بحجـــم كفى حيث تم فرك السخام من على الجدار. ما عدا ذلك فالجدران نظيفة من أى أثر.

أيـــة علامات، باستطاعتى البحث عنها؟ أفتح الباب وأشير

إلى الرجال أن يعيدوا حاجياتهم إلى الغرفة.

في مرة ثانية، أستجوب الحارسين اللذين كانا في الواجب في الساحة. "حدثاني بما جرى تماماً عندما تم التحقيق مع السجناء. احكيا ما شاهدتماه شخصياً".

الأطول يجيب، غلام ذو فك طويل و ذو مظهر متلهف للعمل وقد استحسنته، باستمرار، "الضابط..."

"ضابط الشرطة؟"

"نعم، كان ضابط الشرطة اعتاد المجيء إلى القاعة حيث احتجز السجناء. وكان يشير. وكان علينا جلب السجناء الذين أرادهم وأخذهم إلى الخارج للتحقيق معهم. وكان بعد ذلك يعيدهم إلى أماكنهم".

"سجين في كل مرة؟"

"ليس دائما، أحياناً اثنان".

"هل تدري أن أحد السجناء توفي لاحقا. هل تتذكر ذلك السجين؟ هل تعرف ماذا فعلوا به؟"

"سمعنا أنه اهتاج بشدة وهاجمهم".

"نعم؟"

"هذا ما سمعناه. ساعدت في إعادته إلى القاعة، حيث كانوا

نائمين جميعاً. كان يتنفس بغرابة. بعمق شديد وبسرعة. كان ذلك آخر ما شاهدته منه. فى اليوم التالى كان ميتاً.

"واصل حديثك. أنا مصغ. أريد منك أن تحدثنى عن كل شيء يمكنك تذكره".

يبدو الإعياء على وجه الغلام. أنا واثق من أنه قد نصح بعدم الكلام. "تم التحقيق مع ذلك الرجل مدة أطول من أى واحد آخر. رأيته جالساً وحده، في أحد للزوايا، على غرار ما كان عليه فى المرة الأولى، ممسكاً برأسه". ترف عيناه نحو رفيقه. "لم يشأ أكل أى شيء. لم يكن جوعانا. كانت معه ابنته. حاولت هى أن تجعله يتناول الطعام ولكنه رفض".

"ماذا حدث لابنته؟"

"استجوبت هى أيضاً. ولكن ليس طويلا".

"استمر".

ولكن لم يكن لديه المزيد لإخبارى.

أقول، "اسمع. كلانا يعرف من تكون الابنة. إنها الفتاة التى تقيم معى. الأمر ليس سراً. والآن واصل كلامك. احك لى ما حدث".

"أنا لا أعرف، سيدى! لم أكن هنا فى معظم الأوقات". يناشد رفيقه، ولكن رفيقه أبكم أخرس. كانت هناك صرخات فى بعض الأوقات. أعتقد أنهم قاموا بضربها. ولكننى لم أكن

هناك. فأنا أغادر المكان، حال انتهاء واجبى".

"أنت تعلم بأنها الآن لا تقدر على السير. لقد كسروا قدمها. هل فعلوا هذه الأمور أمام الرجال الآخرين، والدها؟"

"نعم، أعتقد ذلك".

"وهـــل تعلم أنها لم تعد قادرة على الرؤية جيداً. متى فعلوا ذلك"؟

"سيدى، كان هنالك العديد من السجناء فى حاجة إلى العناية بهم. بعضهم كان مريضاً! علمت أن قدميها كسرتا، ولكننى لم أعـــلم شيئاً عن كونها عمياء إلا بعد وقت طويل. لم يكن هناك مـــا أقـــدر على فعله. أنا لم أشأ أن أكون متدخلا فى مسألة لا أفهمها".

لـــم يكـــن لدى رفيقه ما يضيف. أصرفهما. أقول، "لا تخافا لأنكما قد تحدثتما إلى".

يعاودنى الحلم فى الليل. أنا أسير مجهداً عبر سهل ثلجى لا نهاية له متوجها نحو شخوص بشرية ضئيلة تلعب حول قصر مـــن الثـــلج. وبينما أقترب منهم، يبتعدون جانباً أو يذوبون فى الهواء. شخص واحد يبقى فى المكان. طفلة ذات معطف بقبعة، تجـــلس مديـــرة ظهرها لى. أحوم حول الفتاة، التى تستمر فى التربيت على الثلج، على جوانب القصر، حتى أقدر على التطلع إلى مـــا تحت القبعة. الوجه – الذى أراه – فارغ، بلا ملامح،

إنــــه جنينٌ، أو حوت صغير جداً، إنه ليس بوجه على الإطلاق ولكـــنه جزء من جسم إنسان، ذلك الذى يبرز من تحت الجلد، انـــه أبيض اللون، إنه الثلج نفسه. أقدّم، من بين أصابع خدرة، قطعة من نقود.

* * *

الشـــتاء ترســـخ فى البلدة. تهب الريح من الشمال، وستبقى تهب دون انقطاع فى الأشهر الأربعة القادمة. واقفاً أمام النافذة وجبهـــتى عـــلى الـــزجاج البارد، أسمعها تصفر فوق أفاريز الأســـطح، رافعة ومسقطة آجرة مقلقة. تتعاقب هبات من تراب عبر الساحة، يضرب التراب بسرعة وتكرار جوانب الأشياء. الســـماء ممتلـــئة بـــتراب ناعم، الشمس تنزلق عالياً فى سماء بـــرتقالية وتغيب فى أحمر– نحاسى. هناك بين آونة وأخرى، هبات من الثلج ترقش الأرض – فى وقت قصير – بالبياض. حصـــــار الشـــتاء مستمر. الحقول خالية، لا أحد يمتلك مبرراً لـــلذهاب خارج أسوار البلدة، ما عدا قلة من الذين يعتمدون فى معيشـــتهم عـــلى الصيد. عُلق استعراض الحامية، مرتين فى الأســـبوع. مُـــنح الجنود إجازة لمغادرة الثكنات، إن رغبوا فى ذلـــك، والعيـــش فى البلدة، لأن هناك القليل مما يعملونه غير الشـــرب والـــنوم. عندما أذرع الأسوار، فى ساعة مبكرة من الصباح، أجد أن نصف مواقع الحراسة خالية والحراس نائمون

فى خلال واجبهم، ملتفون بالفراء، يجهدون أنفسهم لرفع أيديهم بالــتحية. وســواء بالنســبة لهم، ان مكثوا فى فراشهم. إذ إن الإمــبراطورية تكــون آمنة خلال الشتاء. وخارج نطاق أعين الــبرابرة أيضــاً، المزدحمون حول مواقدهم، يصرون أسنانهم تجاه البرد.

لــم يكــن هــناك زوار بربريون خلال هذا العام. كان من المعتاد أن تقوم مجموعات من البدو الرحل بزيارة المستوطنة فى الشــتاء وأن تقيــم خيامهــا خارج الأسوار وترتبط بالبيع والشــراء، مقايضــين الصــوت، الجلود، اللباد، المصنوعات الجــلدية مقابل بضائع قطنية، شاى، سكر، فاصولياء، طحين. نحــن نثمن المصنوعات الجلدية للبرابرة وعلى الأخص الحذاء (المــتين) بالســاق الطويــلة. الذى يخيطونه. شجعت أنا فى الماضى التجارة، ولكننى منعت الدفع نقدا. كما حاولت أن أبقى الحانــات والخانات مغلقة بالنسبة لهم. وفوق كل شىء لا أريد أن أرى مســتوطنة طفيلية تنمو فى أطراف البلدة، يعيش فيها المتسولون والضالون مستعبدين لمشروبات قوية... كان يؤلمنى فى الزمن السالف، رؤية هؤلاء الناس وهم يقعون ضحايا لمكر الباعة من أصحاب الدكاكين، يقايضون بضائعهم بأشياء تافهة، يستلقون. سكارى فى أقنية البالوعات، معززين بذلك ابتهالات المستوطنين المتحاملة عليهم، عن أن البرابرة كسالى، فاسدون، قــذرون، بليدون. حيث إن الحضارة كانت خلف إفساد فضائل

الـــبرابرة وخلق أناس من الطفيليين، قررت مقاومة الحضارة، وعــلى هــذا القرار، اعتمدت فى قيادة إدارتى. (أقول هذا، أنا الذى يحتفظ بفتاة بربرية فى سريرى الآن).

ولكـــن ستاراً سقط. فى هذا العام على طول الحدود. نحدق إلى الخلف من وراء متاريسنا، نحو الأراضى القفر. لأن كل ما نعــرفه أن عيونـــاً أمضى من عيوننا تتطلع بالمقابل. التجارة وصـــلت إلى نهايتها. ومنذ أن وصلت الأنباء من العاصمة عن أن أى إجـــراء، مهمـــا كـــان، يجـــب اتخاذه، من أجل حماية الإمبراطورية، دون أى اعتبار للثمن، عدنا إلى عهد الغزوات والاحـــتراس المســلح. ليـــس هناك شىء نفعله غير الاحتفاظ بسيوفنا لامعة، نراقب وننتظر.

أمضـــى وقتى فى وسيلتى القديمة للاستجمام، أقرأ الأعمال الكلاسيكية. أواصل تصنيف مجموعاتى المتعددة. أقارن بين ما عـــندنا من خرائط إقليم الصحراء الجنوبية. وفى الأيام التى لا تكون فيها الريح قارسة بشدة، آخذ مجموعة من الحفارين إلى العـــراء لتـــنظيف الحُفَر فى الكثبان الرملية، وأسافر، مرة أو مـــرتين، وحـــدى، وفى ساعة مبكرة من الصباح لصيد الظباء على طول الخط الموازى للبحيرة.

كـــانت هـــناك، قـــبل جيل مضى، أعداد غفيرة من الظباء والأرانـــب الوحشـــية بحيث كان يتعين على عدد من الحراس

وكلابهم حراسة الحقول فى دوريات أثناء الليل، من أجل حماية الحـنطة فى بدء موسم نموها. ولكن وتحت ضغط المستوطنة؟ بـالأخص من كلاب برية والصيد بوفرة، تراجعت الظباء إلى الخـلف، نحو الشرق والشمال، نحو منحدرات النهر والشاطئ البعيد. وعلى الصياد اليوم أن يكون مستعدا للسفر راكباً مسافة ساعة على الأقل قبلى أن يتمكن من مطاردة فريسته.

فى بعـض الأحيـان، وفى صباح مناسب، يتاح لى أن أستعيد كـل طاقـة وخفـة وحركة مرحلة شبابى. مثل طيف، انحدر من أجمـة إلى أجمة. منتعلاً حذائى طويل الرقبة المزيت بزيت عمره ثلاثـون عامـاً. أخوض عبر مياه متجمدة. أرتدى فوق معطفى، ردائى الكـبير من جلد الدب. تتشكل قشرة من الجليد على لحيتى، ولكـن أصابعى تكون دافئة داخل قفازيها. عيناى هادئتان، سمعى قوى، أشم الهواء مثل كلب صيد، أحس بمتعة خالصة.

اترك حصانى اليوم مقيداً حيث ينتهى حد حشائش المستنقع عـند السـاحل الجنوبى الغربى الأجرد، وأبدأ فى شق طريقى عبر حُزَم أدغال القصب. الريح تهب قارسة وجافة عمودية فى عيـنى، الشـمس معـلقة مثل برتقالة فى أفق مخطط بالأسود والأرجوانى. وفى الحال تقريباً، وبحظ جيد غير معقول، أفاجأ بظـبى ماء، كبش بقرون ثقيلة ملتوية، أشعث بردائه الشتوى، واقـف على طريق جانبىّ، يتأرجح وهو يمدد جسده للقفز فوق

أعـــالى القصـــب، ومـــن مسافة تقل عن ثلاثين خطوة، أرى اســـتكانة حركة شدقيه الدائرية، أسمع طرطشة حوافره، وأميز حول مفاصله دوائر من حبات الجليد.

أنـــا بالكاد تناغمتُ الآن مع ما يحيط بى، ومع ذلك ، وبينما الكبش يرفع نفسه، طاوياً قائمتيه الأماميتين تحت صدره، أستل البـــندقية عالياً وأوجه خلف كتفه. الحركة هادئة وثابتة، ولكن ربمـــا الشمس ومضت على ماسورة البندقية، لأنه فى ارتفاعه، يدير رأسه ويرانى. حوافره تلامس الجليد بتكتكة، يتوقف شدقاه فى منتصف حركتهما، نتطلع إلى بعضنا البعض.

لا يتســـارع نبضى: بوضوح، موت الكبش، أمر غير مهم بالنسبة لى.

يمضـــغ ثانيـــة بمنجل واحد فى إحدى فكيه، ويتوقف. فى هدوء الصباح التام، أكتشف عاطفة غريبة متوارية خلف حافة وعيى. والظبى أمامى معلق فى جموده، يبدو ان هناك وقتاً لكل الأشـــياء. وقتا كافيا لإدارة نظرتى المحدقة إلى داخلى لأفهم ما هـــو الشىء الذى سلب القنص لذته: الإحساس بأن هذا لم يعد قنصـــاً صباحيا، ولكنها مناسبة إما أن يكون الظبى المتغطرس فيهـــا نازفـــاً حـــتى الموت على الجليد، وإما أن يخسر الرجل العجـــوز هدفـــه. ذلك أنه بسبب امتداد هذه اللحظة المتجمدة، انحبســـت الـــنجوم فى ترتيب تصبح فيه الحوادث ليست نفسها

ولكـــنها ترمز لأشياء أخرى. تحت ستارى التافه أقف محاولاً نفى هذا الإحساس المثير والخارق للطبيعة، حتى يستدير الظبى وبخفقة من ذيله، وطرطشة قصيرة بحوافره يختفى بين القصب العالى.

أسير مجهداً بلا هدف لمدة ساعة قبل أن أعود راجعاً.

"لـــم يتملكنى من قبل قط إحساس بعدم عيش حياتى الخاصة بحسب شروطى الخاصة".

أقول للفتاة جاهداً فى شرح ما حدث. إنها مضطربة بحديث مـــثل هـــذا، أبـــدو كأنـــنى بذلك المطلب، أريد إكراهها على الاستجابة. تقول، "أنا لا أفهم"، تهز رأسها.

"ألم ترد إطلاق النار على الظبى؟"

يمتد الصمت بيننا مدة طويلة.

تقول بثبات، "إن كنت تريد أن تفعل شيئاً، افعله"، إنها تبذل جهداً كى تكون واضحة. ولكنها ربما تعنى "إن كنت قررت أن تفعلـــه، كـــان عـــليك أن تفعله". فى اللغة البديلة المؤقتة التى نتقاسمها، لا توجد فوارق دقيقة فى المعنى. ألاحظ ان لها ميلا لـــلحقائق، للأقـــوال العملية، لا تحب الخيال ، الأسئلة، التأمل، نحن زوجان غير منسجمين. ربما أنها الطريقة التى ينشأ عليها أطفـــال البرابرة: استظهار من غير فهم، بواسطة الحكمة التى تعود إلى الآباء والتى تسلم للأبناء.

أقول، "أنت، هل تفعلين كل ما تريدين؟" لدى إحساس بأننى قد أطلقت العنان لنفسى، منسحباً بالكلمات إلى مسافة خطرة.

"هل أنت هنا فى الفراش معى لأنه الشىء الذى تريدينه؟"

تستلقى عارية، بشرتها المزينة تتقد ذهباً نباتياً تحت وهج النار. هناك لحظات - أشعر ببداية واحدة منها الآن- عندما تكون الرغبة التى أحس تجاهها، غامضة عادة، تترجرج فى شكل أقدر على إدراكه. تهتاج يدى، تركت عليها، تكيف نفسها مع محيط ثديها.

إنها لا تجيب عن سؤالى، ولكنى أغوص فيه، محتضنا إياها بشدة، متحدثا بصوت أجش ومكتوم فى أذنها: "تعالى، اخبرينى لماذا أنت هنا".

"لانه لا يوجد مكان آخر أذهب إليه".

"ولماذا أريدك أنا هنا"؟

تتلوى فى قبضتى، تطبق يدها بين صدرها وصدرى. "أنت تريد أن تتكلم طوال الوقت"، تتذمر. بساطة اللحظة تنقضى، نفترق ونستلقى بصمت جنباً إلى جنب. أى طير يمتلك قلبا ليغنى فى أيكة من أشواك؟ "عليك بعدم الذهاب إلى الصيد إن كنت لا تستمتع به".

أهز رأسى، ذلك ليس مغزى الرواية، ولكن ما فائدة النقاش؟

أنـــا مـــثل مدير مدرسة غير كفء، أتصيد بكلاب التسالى(*)، بينما يتوجب على أن املأها بالحقيقة..

تتكلم، "إنك باستمرار تسألنى ذلك السؤال،، لهذا سأحكى لك الآن. كـــانت شوكة، شوكة من ذلك النوع الذى له سنان. كانت هناك عقد صغيرة فوق السن كى تجعلها مثلومة. يضعونها فى الفحـــم حـــتى تحـــمى. ثم يلمسونك بها، ليحرقوك، لقد رأيت العلامات فى المكان الذى قاموا فيه بحرق الناس".

هـــل هـــذا هو السؤال الذى وجهته؟ أريد أن أحتج ولكننى عوضًا أستمر فى الإصغاء، مقشعراً.

"انهم لم يحرقونى، لكنهم قالوا بأنهم سيحرقون عينى، لكنهم لـــم يفعلوا. قربها الرجل جدا من وجهى وأرغمنى على النظر إليها. أمسكوا بجفنى مفتوحين ولكن لم يكن لدى ما أخبرهم به. كان ذلك كل شىء.

"كـــان ذلـــك عندما حدث الضرر. بعدها لم أعد قادرة على الإبصار جيداً. كانت هناك لطخة فى منتصف أى شىء أتطلع إليه. بإمكانى رؤية ما حول الحافات. إنه أمر يصعب شرحه.

(*) التســـالى: خـــاص بالطـــريقة السقراطية القائمة على توجيه الأسئلة المتعاقبة أو شبيه بهذه الطريقة.

"ولكـــنها تتحسن الآن. العين اليسرى أصبحت أفضل. ذلك كل شيء.

أتناول وجهها بين يدى وأتفرس فى مركزى عينيها الميتتين، اللـــتين تـــنعكس عـــنهما صـــورتين مماثلتين لى تتطلعان بكآبة بالمقابل. "وهذا؟" أقول، متلمساً الأثر الدودى الشكل فى الزاوية.

"ذلـــك لا شـــىء. ذلـــك حيـــث مسنى الحديد. أحدث حرقة صغيراً. انه غير مؤلم". تبعد يدى جانباً.
"ماذا تحسين تجاه الرجال الذين فعلوا هذه؟"

تســـتلقى مفكـــرة مـــدة طويلة. ثم تقول: "أنا قد سئمت من الكلام".

* * *

هـــنالك أوقـــات أخرى عندما أعانى من نوبات غيظ تجاه عبوديـــتى لطقوس التزييت والدلك، النعاس، السقوط فجأة فى اللاوعى. أتوقف عن إدراك أى سعادة استطعت اكتشافها يوماً فى عـــنادها، وفى فتور جسدها، بل اكتشفت فى داخلى دوافع لـــلازدراء. أصبحت منطوياً على نفسى، سريع الغضب. تدير الفتاة ظهرها وتستغرق فى النوم.

فى الحالة النفسية هذه، أقوم فى إحدى الأمسيات، بزيارة إلى غرف الطابق الثانى من الفندق،

وبينما أنا أصعد السلم الخارجى الواهن، يمر بى رجل مسرعا وهو يوارى وجهه. أطرق على الباب الثانى فى الممر وأدخل. الغرفة هى نفسها، كما أتذكرها: السرير مرتب بإتقان، الرف الذى فوقه، مرصوصة عليه الألعاب والدمى، شمعتان مضيئتان. وهج من الدفء منبعث من مسرب أنبوب الهواء الساخن الممتد على طول الجدار، رائحة زهر البرتقال فى الجو. الفتاة نفسها مشغولة أمام المرآة. تجفل لدخولى، لكنها تنهض مبتسمة مرحبة بى ثم تدير رتاج الباب. لا شىء يبدو أكثر طبيعيا من إجلاسها على السرير والبدء بخلع ملابسها. تساعدنى هى فى تعرية جسدها الرشيق، مع قليل من حركات اللامبالاة والتلوى. تتنهد، "كم اشتقت إليك!" وأهمس، "يا لها من بهجة أن أعود!" ويالها من بهجة أن يكذب عليك بمثل هذا الإطراء! أحتضنها، أدفن رأسى فيها. أتيه فى تهيجها الناعم كعصفورة. جسد الفتاة الأخرى، مغلق، ثقيل، نائم فى سريرى فى مكان بعيد، يبدو عصيا على الفهم. لا أقدر أن أتصور الآن ما الذى جذبنى إلى ذلك الجسد الغريب، وأنا منشغل بهذه المتع الرقيقة. ترتعش الفتاة بين يدى، تلهث، تصرخ عند وصولها إلى الذروة. مبتسما بجذل، منزلقا إلى نوم جزئى متراخ، يخطر لى أننى لا أتمكن حتى من تذكر وجه الأخرى. أقول لنفسى، "انها ناقصة!" على الرغم من أن الفكرة تبدأ بالعوم بعيداً، فإننى أتشبث بها. تراودنى صورتها مغلقة العينين ووجهها المتكتم

المغــطى بطــبقة رقيقة من الجلد. فارغ مثل قبضة تحت شعر مســتعار أسود. يبرز الوجه خارجا عن الرقبة وخارج الجسد الفــارغ تحــته، ارتعد فجأة من ردة فعل قوية وأنا بين ذراعى أنثاى – العصفورة الصغيرة. أضمها إلى.

فى وقــت متأخر من منتصف الليل، عندما أحرر نفسى من ذراعيها، تتذمر ولكنها لا تستيقظ. أرتدى ملابسى فى الظلمة، أغــلق الباب ورائى، أتلمس طريقى هابطاً السلم، أعود مسرعاً إلى الــبيت والثــلج ينسحق تحت قدمى بقرقشة وريح زمهرير تحفر فى ظهرى.

أشعل شمعة وأنحنى فوق الشكل الذى ، أنا كما يبدو مستعبد منه بدرجة ما. أتحسس بخفة خطوط وجهها بأطراف أصابعى. أتلمس جفنيها، فكيها الواضحين، عظمتى وجنتيها المرتفعتين، الفم الواسع. أتلمس برقة جفنيها. أنا واثق من كونها مستيقظة، على الرغم من أنها لا تشى بعلامة ما.

أغــلق عيــنى. أتنفس بعمق لتهدئة تهيجى، وأحصر ذهنى تمامــاً فى رؤيتها عبر أصابعى المعتمة. هل هى جميلة؟ الفتاة التى فارقتها قبل قليل، الفتاة التى ربما (أدرك فجأة) أنها ستتشم رائحــتها منى، جميلة جداً، لا جدال فى ذلك: حدة نشوتى معها ازدادت بــتأثير قوامها الدقيق، أسلوبها، حركتها. وأما بالنسبة لهــذه الفتاة فلا يوجد شىء أقوله عنها بكل ثقة. لا توجد صلة

يمكن أن أحددها بين أنوثتها ورغبتي. لا أستطيع حتى أن أقول متأكداً إننى أرغب فيها. كل هذه التصرفات الحسية الخاصة بى غيـــر مباشرة: أجوس حولها، متلمساً وجهها، مداعباً جسدها، دون أن أدخل بها، أو أجد لحظة واحدة لاستنطاق شهوتى: إن أرغـــب فيهـــا كـــان يعنى احتضانها والدخول بها، أن أخترق سـطحها وأهز هدوءها الداخلى فى عاصفة من النشوة. ثم إن أنسحب، أن أخمد فى انتظار أن تتشكل الرغبة نفسها من جديد. ولكـــن بالنســـبة لهذه المرأة وكما يبدو، فلا مدخل لها، مجرد سطح أجوس فيه ذهابا وإياباً باحثاً عن مدخل. هل هذا ما شعر بـــه مـــن قـــاموا بتعذيبها صيداً لإسرارهم، أيا كان ذلك الذى يعـــتقدونه؟ أحس وللمرة الأولى بشفقة متحفظة تجاههم، كم هو خطـــأ فطـــرى أن تصدق أنك تقدر أن تحرق أو تمزق أو أن تفرض سبيلك إلى داخل الجسد المتكتم لآخر! الفتاة مستلقية فى فراشـــى، ولكن لا يوجد سبب مقنع لماذا يتوجب أن يكون هذا فراشـــا". أتصـــرف أنا فى بعض الحالات مثل عاشق – أخلع عـــنها ملابســـها، أحممهـــا، امسدها، أنام بجوارها – ولكننى بالدرجـــة نفسها تماما، أقدر على ربطها إلى كرسى وضربها، ولن يكون ذلك الأمر أقل حميمية.

الأمـــر ليـــس أن شـــيئاً ما حاصل فى مجرى ما يحدث لى والـــذى يحدث لبعض الرجال فى سن معينة. تطور عكسى من فســـق إلى أفعـــال انتقامية لتوق عقيم. إن كان تغيير ما قد بدأ

يحــدث فى السلوك الأخلاقى لكينونتى، فإننى كنت سأحس به. ولا كــنت قد خضت تجربة هذا المساء المجددة للطمأنينة. أنا الرجل عينه الذى كنته دائما، ولكن الزمن قد تهشم، شيء ما قد سـقط مــن الســماء فوقى، بشكل عشوائى، من لا مكان: هذا الجســد فى فراشـــى، الذى أتحمل مسئوليته أنا، أو هكذا يبدو الأمــر، وإلا فلماذا أقوم بالاحتفاظ به؟ أنا ببساطة مرتبك، فى الــزمن الراهن وربما إلى الأبد. يبدو الأمر سواء إن استلقيت عــلى الفراش بجانبها واستغرقت فى النوم، أو إن طويتها فيٍ داخل ملاءة ودفنتها فى الثلج. ومع ذلك، منحنياً عليها، متلمسا جبهتها بأطراف أصابعى، أكون حذراً أن لا أدلق نوبة غضبى.

* * *

ســواء أتحزر هى أين كنت أنا، فذلك شيء لا أقدر أنا البت فيــه، ولكــن فى الليلة التالية، عندما استكنت للنوم تقريباً عبر تـــناغم مع التزييت والتدليك، أحس أن يدى أبقيت وأحتفظ بها، ووجهت إلى تحت بين ساقيها. تستقر برهة على أنوثتها، أرج بعدئذ المزيد من الزيت الدافئ على أصابعى وأبدأ فى مداعبتها. يــتجمع الــتوتر فى جسدها، تتقوس وترتعد وتدفع يدى بعيداً. أستمر فى تدليك جسدها حتى أسترخى أنا أيضاً ويستولى على النوم.

لا أجــد أى إثارة فى هذا العمل الأكثر تعاوناً الذى قمنا به

حتى الآن. إنه لا يقربنى منها أكثر ويبدو أنه يؤثر فيها بعض الشــىء. استكشــف وجهها فى الصباح التالى: إنه بلا تعبير. تــرتدى ملابســها وتمشى مرتبكة نازلة إلى عملها اليومى فى المطبخ.

أنا قلق. "ماذا يتوجب على ان أفعله من أجل إثارتها؟" "هذه هى الكــلمات التى أسمعها فى أذنى فى دمدمات خفية والتى قد بــدأت تــأخذ مكان المحادثة بيننا. "ألن يثيرك أحد؟" وبانتقالة رعــب أرى الجواب الذى كان منتظرا طوال الوقت يقدم نفسه لى فى صورة لوجه مستتر بواسطة عينين سوداوين زجاجيتين حشــريتين، لا تــجىء مــنها نظــرة متبادلة، ولكن صورتى المتضاعفة فقط مرتدة نحوى.

أهز رأسى بضراوة الإنكار. لا! لا! لا! أصرخ لنفسى. إنه أنــا الــذى أضــلل نفســى، بدافــع الفراغ. نحو هذه المعانى والتطابقات. أى فساد هذا الذى يزحف على. أبحث عن أسرار وإجابات مهما تكن غرابتها، مثل امرأة عجوز تقرأ فى أوراق الشاى. لا يوجد شىء يربطنى بأولئك الذين يمارسون التعذيب. أنــاس يقــبعون منتظرين مثل خنافس فى أقبية مظلمة. كيف يمكننى أن أعتقد أن الفراش هو أى شىء ما عدا فراش، جسد امرأة هو أى شىء ما عدا موضع للابتهاج؟ يجب على أن أؤكد على بعدى عن العميد-جول! لن أعانى أنا بسبب جرائمه!

* * *

أبدأ بزيارة الفتاة فى الفندق بانتظام. هناك لحظات فى خلال النهار، فى مكتبى خلف قاعة المحكمة، يهيم فيها انتباهى وأنجرف مع أحلام يقظة حسية، أزداد سخونة وانتفاخاً بل باهتياج، أتريث فوق جسدها مثل شاب حالم شهوانى، ثم على مضض يتوجب على استعادة نفسى إلى ضجر أوراق العمل أو أسير نحو النافذة وأحدق فى الشارع، أتذكر كيف أننى اعتدت فى الأعوام الأولى لتعيينى هنا، التجوال فى الأحياء الغريبة للبلدة وقت الغسق، مظللا وجهى بمعطفى الواسع. وكيف فى بعض الأحايين، إن زوجة قلقة، تميل على الباب المفتوح جزئياً، ونيران الموقد يلتمع من خلفها، تستجيب لنظرتى دون أن تحجم، وكيف كنت أشرع فى محادثة مع فتيات شابات يقمن بنزهة اثنتين.. اثنتين أو ثلاث، اشترى لهن (الشربت)(*)، وقد أقود بعدئذ واحدة بعيداً فى الظلام إلى مخزن الحبوب القديم وفراشى من الأكياس. إن كان هناك شىء يمكن إن يحسد عليه فى وظيفة على الحدود، أخبرنى أصدقائى، فهو السلوك الأخلاقى العفوى للواحات. أمسيات الصيف العطرة الطويلة، لين جانب نسائهن فريدات الأعين. لبست لعدة أعوام مظهر خنزير برى وافر الصحة جدير للفوز بجائزة ما. بعدئذ تعدلت تلك الاتصالات غير الشرعية إلى علاقات أكثر تحفظاً مع

(*) شربت (Sherbet): شراب مثلج يعد من عصير الفاكهة المحلى.

مدبرات منازل وفتيات أقمن أحياناً في مكان إقامتي في الطابق العلوي، ولكن في الغالب، في الطابق الأرضي بمساعدة المطبخ، والى علاقات مع فتيات يقمن في الفندق. اكتشفت أنني احتجت إلى النساء بصورة أقل تكراراً عن ذي قبل. أمضيت وقتا أطول مهتما بعملي، هواياتي، جمع الآثار، ورسمي للخرائط.

ليس ذلك فحسب: كانت هناك مناسبات غير مستقرة، عندما، في منتصف الفعل الجنسي، كنت أحس بأنني أضل طريقي مثل راوي قصة يضيع منه طرف خيط قصته. تذكرت برجفة شخوص الفكاهة أولئك، رجال سمان مسنون تتوقف عن النبض قلوبهم المثقلة بأكثر مما تتحمل، الذين يفارقون الحياة بين أذرع حبيباتهم مع اعتذار على شفاههم ويتم نقلهم إلى الخارج كي يلقوا في زقاق معتم من أجل انقاذ سمعة الدار. ذروة الفعل نفسها غدت نائية، ضئيلة، شيئاً غريباً. في بعض الأحيان كنت أساق إلى وقفة، وأحياناً كنت أمضي آلياً حتى النهاية. وكنت لمدة أسابيع وأشهر أتقاعد متبتلا. البهجة القديمة في دفء أجساد النساء وجمالها لم تخذلني، ولكن كان هنائي لغز جديد. هل أريد أنا حقا أن أدخل وأن أدعي امتلاك هذه المخلوقات الجميلة؟ الرغبة كما تراءت تجلب معها شجن البعد والفراق والذي كان من العبث إنكاره. ولا أستطيع أن افهم دائماً السبب الذي يجعل من جزء واحد من جسدي، بتوقه غير المبرر

ووعـــوده المزيفة، يتوجب الاهتمام به أكثر من أى جزء آخر كمجـــرى للرغبة. يتراءى لى فى بعض الأحيان، أن ذكورتى هى كـــائن آخر تماما، حيران غبى يعيش متطفلاً علىّ، ينتفخ ويتضاءل بحسب شهيته المستقلة، مرتكزاً إلى جسدى بمخالب لا أســتطيع فكها. لماذا يتحتم على حملك هنا وهناك من امرأة إلى امـــرأة، سألت أنا: أببساطة لأنك قد ولدت من غير ساقين؟ هل يعنى الأمر أى اختلاف بالنسبة إليك ان كنت قد زرعت فى قطة أو كلب بدلاً من فىّ؟

هـــنالك مـــع ذلـــك أوقات أخرى، وعلى الأخص فى العام الماضـــى مـــع فتاة تكنى كيبا فى الفندق باسم النجمة، ولكننى فكـــرت فيها على الدوام كأنها عصفورة، وقتها أحسست مجدداً بـــالقوة المألوفـــة للســـحر الحسى، انزلقت بعيداً فى جسدها، وانتقلت إلى الحدود السابقة للمتعة. وهكذا فكرت: "إن الأمر لا يعـــدو كونه مسألة عمر، دورات الرغبة وفتور الإحساس فى جسد والتى تبرد وتموت بتباطؤ. عندما كنت شاباً، كانت مجرد رائحـــة امرأة تثيرنى، واليوم وبوضوح، لا تمتلك تلك القوة إلا أجملهن وأصغرهن وأحدثهن، وسوف يكون الأمر فى يوم من هـــذه الأيـــام أولاداً صـــغاراً. نظرت ببعض النفور قدما إلى أعوامى الأخيرة فى هذه الواحات المعطاء.

الآن ولـــثلاث ليال متتاليات، أزورها فى غرفتها الصغيرة،

حـــاملاً هدايـــا مـــن زيت كانانغا، حلوى، وجرة من البطارخ المدخـــنة، الـــتى أعرف أنها تحب التهامها علي انفراد. تغلق عيـــنيها عندما أحتضنها: مرتعشة لما يبدو فرحاً يجتاح كيانها. تحـــدث الصديق الذى زكاها لى قائلاً عن مواهبها: "الأمر كله تمثيل بطبيعة الحال، ولكن الاختلافات فى حالتها هو أنها تؤمن بـــالدور الـــذى تقوم به. بالنسبة لى، اكتشفت أننى غير مهتم. مأســـورا بأدائهـــا، أفـــتح عيـــنى فى منتصـــف كل الاهتياج والارتعاش والتأوه، ثم أغرق فى النهر المظلم لمتعتى الخاصة. أمضيت ثلاثة أيام فى تراخ حسى، مثقل الجفنين، مستغرقاً فى أحلام اليقظة. أعود إلى مكان إقامتى بعد منتصف الليل وأنزلق إلى الفـــراش، غير مبد أى اهتمام بالشكل المسترسل فى عناده والـــراقد بجـــوارى. وفى الصـــباح، إن استيقظت على صوت استعداداتها، فإنى أتظاهر بالنوم حتى تكون قد ذهبت.

حـــدث ذات مرة وأنا أجتاز باب المطبخ المفتوح، أن ألقيت نظرة إلى الداخل. ومن خلال أعمدة الدخان، والبخار، أرى فتاة قصـــيرة ممتلئة الجسم جالسة عند مائدة تهيئ الأكل. أفكر فى نفســـى بدهشـــة، "أنـــا أعرف من تكون تلك"، ومع ذلك، فإن الصـــورة الـــتى بقيت تلح فى ذاكرتى وأنا أعبر الساحة، هى مـــنظر كومة القرع الأخضر أمامها على المائدة. أحاول وبتأن أن أنقل النظرة التى تكونت فى الذاكرة من القرع ثم إلى اليدين اللـــتين تقطعانـــه ومن اليدين إلى الوجه. أعثر فى نفسى على

نفور ومقاومة. يبقى اهتمامي منحصراً بانبهار فى القرع، وفى ومضـــة النور على قشرتها المبللة. لا تتحرك الصورة وكأنما بـــإرادة مـــنها. وهكذا أبدأ فى مواجهة حقيقة ما أنا أحاول أن أفعلـــه، أدرك أننى إن تناولت قلما لتخطيط وجهها فلن أعرف من أين أبدأ، هل هى حقاً بلا ملامح إلى هذا الحد؟ أركز بجهد تفكيـــرى فيها. أرى شكلا يرتدى قبعة ومعطفاً ثقيلاً لا شكل له واقـــف بشـــكل مقلقل، منحن نحو الأمام، مباعد الساقين، يسند نفســـه بعكـــازين. كم هو قبيح، أقول لنفسى يشكل فمى الكلمة البشعة. أنا مندهش للأمر، ولكننى لا أقاوم: إنها قبيحة، قبيحة.

أعـــود فى الليـــلة الرابعة بمزاج سيئ، أضرب فى أرجاء شقتى بصوت عال، غير مهتم بمن هو صاح كان المساء فشلاً فتيار الرغبة المتجدد قد توقف. أرمي حذائى العالى الرقبة على الأرض وأصـــعد إلى الفراش، راغباً فى شجار، أتوق إلى من ألومه، خجلاً أيضا من صبيانيتى. غير قادر على فهم ما الذى تفعلـــه هذه المرأة التى تجاورنى فى حياتى. فكرة المتعة التى وصـــلت إليهـــا عبر جسدها الناقص، تملؤنى باشمئزاز متحفظ ســـاخر، وكأنـــنى أمضيت ليلى أجامع دمية من قش وجلد. أى شـــىء رأيته منها فى أى وقت مضى؟ أحاول أن أتذكرها كما كـــانت مـــن قـــبل أن يـــبدأ معالجو الألم تقديم خدمتهم. الأمر مســـتحيل لأن نظرتى لم تعبر فوقها وهى جالسة مع البرابرة الآخرين، فى اليوم الذى جلبوا فيه إلى المكان. أنا مقتنع أنه فى

مكان ما فى دماغى الملىء بالثقوب، شىء مودع، ولكننى غير قـــادر عـــلى استعادته. أقدر على تذكر المرأة مع الطفل، بلى وحـــتى الطفـــل نفسه. أقدر على تذكر كل التفاصيل: الحاشية الـــبالية للشـــال الصوفى، غشاء العرق تحت خصلات الشعر الجميـــل لـــلطفل. أقدر على تذكر الأيدى الناتئة العظام للرجل الـــذى مـــات، أعتقد أننى حتى أقدر، بجهد، على إعادة تشكيل وجهـــه. ولكـــن هناك إلى جانبه حيث يتوجب أن تكون الفتاة، فراغ، فسحة خالية.

أصـــحو فى الليل والفتاة تهزنى وصدى أنين خافت ما زال عالقـــاً فى الجـــو. تقـــول، "كنت تصرخ فى خلال نومك. لقد أيقظتنى".

"بماذا كنت أصرخ؟"

تدمدم بشىء ما، تدير ظهرها نحوى.

فى ساعة متأخرة من الليل، توقظنى ثانية: "كنت تصرخ".

أحـــاول، وأنـــا مـــثقل الـــرأس، مرتبكا وغاضباً أيضا، أن استكشـــف ما فى داخلى، ولكننى لا أبصر غير دوامة فى قلب دوامة النسيان.

تقول: "أهو حلم؟"

"لا أستطيع أن أتذكر أى حلم".

هل الأمر أن حلم الطفلة ذات القبعة التي تبني قصر الثلج قد بدأ يعاودني؟ إن كان الأمر كذلك، فلابد أن نكهة أو رائحة أو انعكاسات منه ستتخلف معي.

أقول، " هناك شيء أريد أن أسألك. هل تتذكرين اليوم الذي جلبت فيه إلى هنا، إلى ساحة الثكنات؟ لقد أرغمكم الحراس على الجلوس على الأرض. أين جلست؟ أي جهة كنت تواجهين؟"

أتمكن عبر النافذة من أن أرى خطوطاً من غيوم تعبر وجه القمر، من خلال الظلمة وهي بجواري، تقول، "لقد جعلونا نجلس سوياً في الظل. كنت إلى جوار والدي":

أستجمع صورة والدها. أحاول في صمت أن أعيد خلق الحر الشديد، الغبار، رائحة كل تلك الأجساد المتعبة. أجلس السجناء في ظل جدار الثكنات، واحداً بعد واحد، أقدر على تذكر كل شيء. أضع المرأة مع الطفل، شالها الصوفي، صدرها العاري. الطفل يبكي، أسمع النحيب، إنه متعب جداً إلى حد أنه غير قادر على الشرب. الأم متسخة بالوحل، عطشى، تنظر إلي، حائرة فيما إن كنت قادراً على تقديم مساعدة لها. يليها شكلان ضبابيان. ضبابيان، لكنهما حاضران: أعرف ذلك من خلال جهد نصف ذاكرة، نصف خيال، بإمكاني ملء الفراغين. ثم يأتي والد الفتاة، يداه الناتئتا العظام مطويتان

أمامـــه. طـــرف قبعـــته على عينيه، إنه لا يتطلع إلى الأعلى. والآن أستدير نحو الفراغ بجواره.

"على أية جهة من والدك كنت تجلسين؟"

"جلست إلى يمينه".

الفســـحة على يمين الرجل تبقى خالية. بتركيز مؤلم، أبصر حتى كل حصاة على الأرض بجواره وتركيب الجدار خلفه.

"حدثيني عما كنت تفعلين".

"لا شيء. كنا جميعاً منهكين. كنا قد بدأنا السير قبل الفجر".

"هل رأيتني؟"

"نعم، لقد رأيناك جميعاً.

أشبك يدى حول ركبتى مفكراً بتركيز. الفسحة بجوار الرجل تبقى خالية ولكن هناك إحساس ضئيل بوجود الفتاة، أو هالة ما فى الجـــو، تبدأ فى الظهور الآن! ألح على نفسى: الآن سأفتح عينى، وستكون الفتاة هناك. أفتح عينى. فى النور المعتم أميز حجمهـــا إلى جوارى. باندفاعة من أحاسيس أبسط يدى لألمس شـــعرها، وجهها. لا توجد أى استجابة حية. الأمر مثل مداعبة جرو أو كرة، شيء كله سطح.

أقـــول، "كنت أحاول أن أتذكرك كما كنت قبل كل ما حدث، أجـــد الأمر صعباً. من المؤسف أنك غير قادرة على إخبارى".

لا أتوقع استنكاراً، وهو لم يصدر.

* * *

وصـــلت كتيبة من المجندين الإلزاميين لتسلم أماكن الرجال الذيـــن أنهـــوا أعوامهـــم الـــثلاثة الـــتى سفحت على الحدود، والمســـتعدون للرحيل إلى منازلهم. كانت الكتيبة بقيادة شاب، سينضم إلى مجموع مساعديه.

أدعـــوه مع اثنين من زملائه، لتناول العشاء معى فى الفندق. تمضـــى الأمســـية بشـــكل مرض: الطعام جيد، الشراب وفير، وضـــيفى لديـــه العديـــد من القصص عن رحلته، التى تمت فى طقـــس قاس وفى إقليم غريب عنه تماماً لقد فقد ثلاثة رجال فى الطـــريق، يقـــول: غـــادر أحدهم خيمته فى الليل استجابة لنداء الطـــبيعة ولـــم يعـــد مطلقاً، اثنان آخران هربا على مرأى من الواحـــات تقريـــباً، انسابا خارجاً للاختفاء بين القصب. صانعو مشاكل، ينعتهم، وهو لم يتأسف لأنه تخلص منهم. ومع ذلك، لا أعـــتقد أن قرارهم حماقة؟ أجيب، حماقة كبيرة، وأسأل إن كانت لديـــه فكـــرة عن السبب الذى جعلهم يهربون؟ يقول، لا، كانوا يعاملون بشكل جيد، كل واحد عومل بشكل جيد، ولكن هناك بعد ذلـــك مجندون... يهز كتفيه. اقترح، كان من الأفضل لهم الفرار فى وقـــت مبكر، الريف من حول المكان لا يساعد على العيش، إنهم رجال أموات إن لم يكونوا قد عثروا على ملجأ حتى الآن.

نتحدث عن البرابرة. يقول، إنه مقتنع بأنه كان، فى جزء من طريقه، متبوعاً عن بعد من قبل البرابرة. أسأل، هل أنت متأكد من انهم كانوا برابرة؟ يجيب، ومن غيرهم يقدر على ذلك؟ يتفق زملاؤه معه.

أعجب بحيوية هذا الشاب، اهتمامه بالمشاهد الجديدة فى إقليم الحدود، وإنجازه فى جلب رجاله إلى هنا فى هذا الموسم الميت، أمر حميد. عندما يلتمس رفاقنا الانصراف بسبب تأخر الوقت، أضغط عليه للبقاء. نجلس معاً بعد منتصف الليل للحديث والشراب. أستمع إلى أحدث الأخبار عن العاصمة، التى لم أرها منذ زمن طويل. أحكى له عن بعض المناطق التى أتذكرها بحنين: سرادق الحدائق حيث يعزف الموسيقيون للزوار المتجولين، وكيف أن قدم المرء تخشخش عبر أوراق الكستناء المتساقطة فى الخريف. أتذكر جسراً يستطيع المرء وهو فوقه أن يرى انعكاس القمر على الماء الذى يتموج حول مثلثات على هيئة زهرة البارادايس(*).

يقول، "تسرى الأقاويل فى مركز قيادة الفرقة أنه سيكون هناك هجوم عام ضد البرابرة فى الربيع لدفعهم عن الحدود نحو الجبال".

أنا آسف لقطع قطار الذكريات. لا أريد أن أنهى الأمسية

(*) Paradise: الجنة، الفردوس.

بمشـــاحنة. مع ذلك أستجيب. "أنا واثق من أنها مجرد إشاعة: إنهم غير قادرين على القيام بذلك، الناس الذين تنعتهم بالبرابرة هـــم مـــن الـــبدو، إنهـــم يرتحلون كل عام ما بين الأراضـى المنخفضـــة والمـــرتفعة، تلك هى طريقتهم فى الحياة. إنهم لن يسمحوا لأنفسهم قط بأن يُحجزوا فى الجبال".

يتطـــلع إلى بغرابة. أحس للمرة الأولى فى هذه الأمسية أن حاجـــزاً ينزل. الحاجز ما بين العسكرى والمدنى، يقول، "لكن بالـــتأكيد، إن كنا نريد الصراحة، ذلك هو معنى الحرب. إكراه أحـــد ما على خيار لن يفعله عن طريق آخر". يعايننى بعجرفة شاب متخرج فى الكلية الحربية. أنا متأكد من أنه يتذكر القصة، الـــتى انتشرت الآن حتماً فى الأرجاء، كيف إننى امتنعت عن التعاون مع ضابط من المكتب الثالث. اعتقدت أننى أعرف ماذا يـــرى أمامـــه: موظفاً إدارياً ثانوياً غطس، بعد أعوامٍ، فى هذا الموضـــع الخلفى المنعزل، فى أساليب فطرية، كسولاً، متأخراً فى تفكيـــره، مستعداً للمقامرة على أمن الإمبراطورية فى سبيل بديل مؤقت، سلام متزعزع.

يميل إلى الأمام، متظاهراً بحيرة صبى يراعى الآخرين: أنا مقتنع أكثر فأكثر بأنه يتلاعب بى. يقول، "قل لى، سيدى سراً، ما هى الأمور التى يستاء منها البرابرة؟ ماذا يريدون منا"؟

يتوجب على أن أكون حذراً، ولكنى لا أكون. يتوجب على

أن أتــثاءب متملصاً من سؤاله، أن أنهى الأمسية، ولكننى أجد نفسى أصعد إلى الطعم (متى سأتعلم أن أمسك بلسان ماكر؟).

"إنهــم يــريدون وضـــع نهايـــة لانتشار المستوطنات عبر أراضـــيهم. إنهــم يــريدون عودة أراضيهم، فى النهاية. إنهم يريدون أن يكونون أحراراً فى التجوال مع قطعانهم من مرعى إلى مــرعى، كمــا اعتادوا". لم يفت الأوان بعد لوضع نهاية للمحاضــرة. بدلاً أسمع صوتى ترتفع نبرته وأتنازل عن نفسى آسفا لثمالة الغضب. "لن أقول شيئاً عن الغزوات الأخيرة التى شنت عليهم، بلا أىّ مبرر تماماً، تبعتها أعمال غاية فى القسوة، مــا دام أمــن الإمبراطورية فى خطر، أو هذا ما أخبرت به، سيتطلب الأمر أعواماً من أجل ترقيع الخراب الذى حصل فى تلك الأيام المعدودات، ولكن دع ذلك يمر، دعنى على الأصح، أخــبرك عن الذى أجده مثبطاً لهمتى كموظف إدارى حتى فى أوقــات الســلم، حتى عندما تكون علاقات الحدود جيدة. هناك وقــت فى الســنة، أنــت تعرف، عندما يزورنا البدو للتجارة. حســناً: اذهــب إلى أى كشك لبيع البضاعة وابصر بنفسك من الــذى يستخف به ويغش ويتعرض لصراخ ويخدع. شاهد من الذى يرغم على ترك أهله من النساء خلفه فى الخيمة خوفاً من أن يتعرضــن للإهانــة من قبل الجنود. اشهد بنفسك من الذى يستلقى ثملاً فى قنوات البالوعات، واشهد من الذى يرفسه حيث هــو متمدد. إنه هذا الاحتقار للبرابرة، احتقار يبدو ظاهرا من

قبل أبسط عامل إلى فلاح فى مزرعة، ذلك أننى كقاض كان علـى أن أجادل ضد ذلك لعشرين عاما. كيف يمكنك استئصال الاحتقار، خاصة عندما يكون الاحتقار مبنياً على أمر جوهرى لا يعدو كونه اختلافات فى آداب المائدة، اختلافات فى تركيب جفن العين؟ هل أخبرك ما الذى أتمناه أحياناً؟ أتمنى لو أن هؤلاء البرابرة يثورون ويعلموننا درساً، من أجل أن نتعلم احترامهم. نحن نفكر فى هذا البلد وكأنه ملكنا، جزء من إمبراطوريتنا - قاعدتنا الأمامية، مستوطنتنا، مركزنا التجارى. ولكن هؤلاء الناس، هؤلاء البرابرة لا يفكرون إطلاقاً بنفس الطريقة. لقد مضى على وجودنا هنا أكثر من مائة عام، لقد استصلحنا أراضى من الصحراء وأنشأنا مشاريع إرواء وزرعنا حقولاً وبنينا منازل ثابتة ووضعنا سوراً حول بلدتنا، ولكنهم ما يزالون يفكرون بنا كزوار عابرين. هناك أناس من كبار السن بينهم يتذكرون آباءهم وأمهاتهم يحكون لهم عن هذه الواحات كما كانت فى يوم من الأيام: مكاناً ظليلاً على ضفة البحيرة فيها وفرة من المراعى حتى فى الشتاء. تلك هى الكيفية التى ما زالوا يتحدثون بها، ربما الكيفية التى ما زالوا يرونها، وكأننا لم يقلب ملء مسحاة واحدة من الأرض ولم توضع أجرة واحدة فوق أخرى. الشك لا يساورهم من أننا فى يوم من هذه الأيام سنحمل عرباتنا ونرحل إلى حيثما جئنا منه، وأن كافة مبانينا ستصبح بيوتاً للفئران والسحالى، وأن حيواناتهم سترعى

فى هذه الحقول التى قمنا بزراعتها. أتبتسم أنت؟ هل أقول لك شيئاً؟ البحيرة تزداد مياهها ملوحة سنوياً. هناك تفسير بسيط – لا تبال قط به – البرابرة يعرفون هذه الحقيقة. انهم فى هذه اللحظة بالذات يقولون لأنفسهم، "كن صبوراً، فى يوم من هذه الأيام، ستبدأ محاصيلهم بالذبول جراء الملوحة، لن يكونوا قادرين على إطعام أنفسهم، سيكون لزاماً عليهم الرحيل. ذلك ما يفكرون به. ذلك أنهم يفوقوننا قدرة على الاستمرار".

"ولكننا غير مغادرين". يقول الشاب فى هدوء.

"هل أنت واثق؟"

"نحن غير راحلين. ولهذا فإنهم يرتكبون خطأ. لن نذهب حتى إن أصبح ضرورياً تزويد المستوطنة بقوة عسكرية للحماية، لأن هذه المستوطنات هى خط الدفاع الأول للإمبراطورية. كلما فهم البرابرة هذا عاجلاً كان أفضل".

على الرغم من مظهره الخارجى الجذاب فهناك صرامة فى تفكيره لابد أنها مستمدة من دراسته العسكرية. أتنهد. لم أحصل أنا على شيء جراء إطلاق نفسى فى الكلام. لقد تأكدت أسوأ ظنونه بلا شك: ذلك أننى معتل عقلياً، كما أننى من طراز محافظ. وهل أنا حقاً، بعد كل شيء، أؤمن بما كنت أقوله؟ هل أتطلع بلهفة إلى انتصار وجهة نظر البرابرة: خمول ذهنى، قذارة تامة، تسامح تجاه المرض والموت؟ إن قدر لنا أن نختفى

فهل البرابرة سيمضون أمسياتهم فى الكشف عن آثارنا فى خرائبنا؟ هل سيحافظون على وثائقنا الرسمية للإحصاء السكانى ودفاتر تجار حبوبنا فى صناديق زجاجية، أم أنهم سيكرسون أنفسهم لحل نصوص رسائل الحب العائدة لنا؟ هل سخطى تجاه السلوك الذى تنتهجه الإمبراطورية فى أى حال من الأحوال والى حد بعيد ضجر رجل عجوز لا يريد أن تتعكر طمأنينة أيامه الأخيرة على الحدود؟ أحاول أن أوجه المحادثة إلى موضوعات أكثر ملاءمة، إلى الخيول، الصيد، الجو، ولكن الوقت يصبح متأخرا، وصديقى الشاب يرغب فى المغادرة وعلى أن أسدد حساب ضيافة الأمسية.

* * *

الأطفال يلعبون فى الثلج ثانية، فى وسطهم، والظهر نحوى، هو الشكل ذو القبعة للفتاة. وبينما أنا أجهد نفسى نحوها، تكون فى لحظات اختفت عن النظر خلف ستارة من ثلج متساقط. تغوص قدماى عميقاً إلى حد أنى لا أقدر على رفعهما. كل خطوة تستغرق دهراً. إنها أسوأ ثلوج تساقطت فى أحلامى. وعندما أجرى متثقلا باتجاههم، يتخلى الأطفال عن لعبهم ليتطلعوا إلى. يديرون نحوى وجوههم الرزينة المتألقة، تتدفع أنفاسهم البيضاء منهم بنفثات. أحاول ان أبتسم وألمسهم عندما أمر وأنا فى طريقى إلى الفتاة، ولكن تقاطيع وجهى متجمدة،

الابتسامة لا تظهر، وهناك كما يبدو طبقة من جليد تغطى فمى. أرفـــع يـــداً لأزيلها: أجد ان الهد ترتدى قفازاً ثقيلاً، الأصابع مـــتجمدة فى داخل القفاز، لا أحسن بشىء عندما ألمس وجهى بالقفـــاز. لا أحسن بأى شئ. أشق طريقى بخطوات ثقيلة ماراً بالأطفال.

الآن يمكننى أن أرىَ ما تفعله الفتاة، إنها تبنى قلعة من ثلج، بـــلدة مســـورة أعـــرفها بكل تفاصيلها: جدار الحصن وأبراج الحراسة الأربعة فيه، البوابة وكوخ البواب بجوارها، الشوارع والبيوت، الساحة الكبيرة ومجمع الثكنات فى أحد الزوايا. وها هى الـــبقعة عينها التى أقف عليها! ولكن الساحة خالية، البلدة بأكمـــلها بيضـــاء وخرســـاء صماء وخالية! أشير إلى مركز الساحة. أريد أن أقول، "لابد أن تضعى أناساً هناك!"، لا صوت يخرج من فمى، حيث يرقد لسانى متجمداً مثل سمكة. مع ذلك تستجيب هى. تجلس على ركبتيها وتدير رأسها المغطى بقبعة نحوى. فى هذه اللحظة الأخيرة، أخاف أن تكون خيبة أمل، أن يكون الوجه الذى ستقدمه لى بليداً، زلقاً، مثل عضو داخلى، لم يعد للعيش فى الضياء. ولكن لا، إنها نفسها، نفسها بالرغم من أنـــنى لم أرها مطلقا، طفلة باسمة، يتلألأ الضوء على أسنانها، وتـــلقى نظرة سريعة من عينيها اللتين بلون الكهرمان الأسود. أقـــول لنفســـى، "إذن هذا هو الشىء الذى يتعين على إدراكه". أريـــد إن أتحدث إليها من خلال فمى المتجمد. أريد ان أقول،

"كيف تصنعين كل ذلك العمل الجميل ويداك فى القفاز؟" تبتسم بلطف لدمدمتى. ثم تستدير عائدة إلى قلعتها فى الثلج. أبزغ من الحلم مقروراً ومتصلباً. إنه الوقت الذى يسبق الضياء الأول بساعة، النار منطفئة، جلدة رأسى تحس بالخدر والبرد. الفتاة إلى جوارى، نائمة متجمعة حول نفسها فى كرة. أغادر الفراش، وبمعطفى الواسع ملفوفا حولى، أبدأ فى إذكاء النار ثانية.

الحلم متجذر، أعود، ليلة بعد ليلة إلى رقعة الساحة المترامية الأطراف المكتسحة بالثلج، مجهداً السير نحو الشكل فى مركزها، مؤكداً فى كل مرة، أن البلدة التى تقوم ببنائها الفتاة، خالية من الحياة.

أسأل الفتاة عن شقيقاتها. لديها شقيقتان. الصغرى، كما تقول، جميلة جداً، ولكنها مشتتة الذهن. "أسأل"، ألا تودين رؤية شقيقتيك مجدداً؟" الاضطراب يتدل بشكلى منفر فى الجو بيننا. يبتسم كلانا تقول، "بالطبع".

أسأل أيضا عن المدة التى أعقبت سجنها، عندما، مجهولة من قبلى، عاشت فى هذه البلدة تحت نطاق سلطتى القضائية. "كان الناس رحماء بى عندما أدركوا أننى قد تركت وحيدة. اعتدت النوم فى الفندق حيناً من الزمن فى الوقت الذى بدأت فيه قدماى بالتحسن. كان هناك رجل تولى الاعتناء بى. لقد

ذهـب الآن. كـان يقتنى الخيول. "كما أنها تذكر الرجل الذى أعطاهـا زوجى الأحذيـة بالرقبة العالية التى كانت ترتديهما عـندما التقيت بها فى المرة الأولى. أسأل عن رجال آخرين. "نعـم، كان هناك رجال آخرون. لم يكن لدى خيار. كان ذلك كيف وجب أن يكون الأمر".

بعد هذه المحادثة ازدادت العلاقات مع عامة الجنود توتراً. مغـادراً فى الصـباح شقتى إلى دار العدالة، أمرٌ بأحد مواكب التفـتيش العسكرية النادرة. أنا متأكد أن من بين هؤلاء الرجال الواقفين فى استعداد، وتجهيزاتهم فى رزمة عند أقدامهم، بعضا ممن نام مع الفتاة. ليس ذلك اننى أتخيلهم بضحكون بتهكم من خـلف أيديهـم. لـم أرهـم قط واقفين برزانة أكثر فى الريح المتجمدة التى تضرب عبر الساحة. ولم تكن قط ملامحهم أكثر احـتراما. أعـرف أن بإمكانهم أن يقولوا لى إن تمكنوا، نحن رجال جميعاً، وإن بإمكان أى رجل أن يفقد عقله بسبب امرأة. ومـع ذلـك، أحـاول المجىء إلى البيت متأخرا فى الأمسيات لتفادى صف الرجال عند باب المطبخ.

هـناك أخبار ترد عن جنديى الملازم الهاربين. واضع أفخاخ عـثر عليهما متجمدين حتى الموت فى مخبأ بدائى لا يبعد غير ثلاثين ميلاً شرق مستوطنتنا. وعلى الرغم من أن الملازم ميال إلى تركهم هناك (ثلاثون ميلاً للوصول وثلاثون ميلا للعودة فى

هــذا الجو، أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لرجال لم يعودوا رجالاً، ألا تعــتقد ذلك؟)، أقنعه بإرسال بعثة إلى هناك. أقول، "يجب أن تجرى لهم الشعائر، فضلاً من كونه أمراً جيداً بالنسبة لمعنويات رفــاقهم. عــليهم أن لا يتصــوروا بــأنهم أيضا سيموتون فى الصحراء ويرقدون منسيين. ما نقدر على عمله من أجل تخفيف رهبــتهم من حتمية مغادرة هذه الأرض الجميلة، يجب أن نفعله. وبعــد كل شيء، فنحن الذين نقودهم إلى هذه المخاطر". وهكذا تغــادر البعثة، وتعود بعد يومين بالجثتين الملتويتين المتصلبتين انجمــاداً فى عربة. ما زلت أجد الأمر غريباً إن رجالاً يتوجب عــليهم ترك منازلهم إلى مسافة مئات الأميال وعلى بعد مسيرة يــوم واحد من الطعام والدفء، ولكننى لا أتتبع الموضوع أبعد مــن ذلــك. واقفا عند حافة المقبرة المتصلبة أرضها جليداً بينما تجــرى آخــر الشــعائر ورفــاق المتوفى الأسعد حظاً يراقبون حاســرى الــرءوس، أكــرر لنفسى إننى بالتأكيد على المعاملة الصــحيحة لــلعظام، أحاول أن أبين لهؤلاء الرجال الشباب أن المــوت غيــر فــان، واننا نبقى أحياء مثل فروع فى ذاكرة من عرفــناهم. مــع ذلــك هل أنا حقا ومن أجل فائدتهم وحدها أقيم المراســم؟ ألا أواســى نفسى أيضا؟ أبدى استعداداً لتولى المهمة الروتيــنية الشــاقة فى الكتابة إلى الوالدين لإعلامهما بمصابهما الشخصى. أقول، "إنها أخف وقعاً على رجل مسن".

* * *

تسأل، "ألا تحب أن تفعل شيئاً آخر؟"

قدماهــا تســتريحان فى حضنى. أنا منذهل، تائه فى إيقاع دعك الكاحل المتورم ودلكه. سؤالها يباغتنى. إنها المرة الأولى الــتى تحدثــت فيها بوضوح تام. لا أبالى بالسؤال، أحاول أن أنــزلق عــائداً إلى غيبوبــتى، غير بعيد عن النوم متمنع عن الانحراف عنه.

تــتحرك القــدم فى قبضتى، تسرى فيها الحياة، تخز بلطف منــبت فخــذى. افــتح عيــنى على الجسد الذهبى العارى فى الفراش. تستلقى هى ورأسها بين يديها، تراقبنى بالطريقة غير المباشــرة التى اعتدتها الآن، مبدية صدرها المتماسك وبطنها الملســاء، تطفــح بصحة جسد شاب. تستمر أصابع قدميها فى الجــس، ولكنها فى هذا السيد العجوز المتراخى الجاثى أمامها يردائه المنزلى الأرجوانى الداكن لا تجد استجابة.

"فى مــرة ثانية". أقول ولسانى يلتوى ببلادة حول الكلمات. إنهــا كذبة على قدر ما أعرف، ولكننى أتلفظها. "ربما فى مرة ثانيــة". ثــم أرفــع قدمهــا جانبا، وأستلقى بجوارها. الرجال المــتقدمون فى السن، لا يمتلكون عفة كى يحافظوا عليها، ماذا أستطيع أن أقول إذن؟" إنها كذبة عرجاء على نحو هزيل، وهى لا تفهمها. تنزلق تفتح ردائى وتبدأ بمداعبتى، بعد وقت قصير أدفع يدها بعيداً.

تهمس، "أنت تزور فتيات أخريات، هل تعتقد بأننى لا أعرف؟"

أشير إليها بشكل قاطع أن تصمت.

تهمس، "هل تعاملهن أيضا هكذا؟" وتبدأ فى النشيج.

على الرغم من أن قلبى يتمزق من أجلها، لا يوجد شىء أنا قادر على القيام به. ومع ذلك أى إذلال لها! أنها لا تقدر حتى مغادرة الشقة دون ترنح أو تحسس وهى تقوم وتجلس. إنها سجينة الآن بقدر ما كانت قبلاً. أربت على يدها وأغرق فى كآبة عميقة.

إنها الليلة الأخيرة التى ننام فيها فى فراش واحد. أنقل سريراً نقالاً إلى غرفة الاستقبال وأنام هناك. الألفة الجسدية تنتهى بيننا. أقول، "فى الزمن الراهن. حتى نهاية الشتاء، هكذا أفضل". تتقبل العذر دون كلمة ما. عندما أعود إلى المنزل فى الأمسيات تجلب لى الشاى وتجثم عند الصينية لخدمتى. تعود بعدئذ إلى المطبخ. بعد ساعة من الوقت تضرب طريقها صاعدة السلم خلف الفتاة التى تحمل صينية العشاء. نأكل معاً. بعد الوجبة أخلد إلى مكتبى أو أخرج مساء، مجدداً جولاتى الاجتماعية التى أهملتها: شطرنج فى بيوت الأصدقاء، ورق مع الضباط فى الفندق. كما أننى أقوم بزيارة أو اثنتين للطابق الثانى من الفندق ولكن مع إحساس بالذنب مما يفسد المتعة.

ولدى عودتى أجد على الدوام، الفتاة نائمة، وأضطر إلى السير على أطراف أصابعى كزوج خاطئ.

تتقـبل الفـتاة الأسلوب الجديد دون تذمر. أقول لنفسى إنها تخضـع بسبب من تربيتها البربرية. ولكن ما الذى أعرفه أنا عـن التربية البربرية؟ ما أسميه أنا استسلاما قد لا يكون غير عـدم مـبالاة. مـا الذى يهم متسولة، فتاة بلا أب ما إذا نمتٍ مـنفرداً أم غير ذلك ما دامت تمتلك سقفا" فوق رأسها وطعاماً فى بطنها؟ لقد أحببت حتى الآن أن افكر فى أنها لا تقدر الكف عن رؤيتى رجلا فى قبضة الرغبة: كيفما كانت الرغبة منحرفة وغريـبة الأطوار، ذلك أنها فى الصمت المليء بالتوتر والقلق والذى يشكل الجزء الكبير من اتصالات، لا تقدر إلا الإحساس بـنظرتى المتفرسـة تضغط عليها بثقل جسد. أنا أفضل عدم الخوض من أن الإمكانية التى تعلمها التربية البربرية لفتاة قد لا تؤهـلها للـتكيف مـع كل نزوات الرجل، ومن ضمنها نزوة الإهمال، بل أن تنظر إلى الرغبة الجنسية سواء فى حصان أو ماعز أو رجل أو امرأة كحقيقة حياتية مجردة بأوضح وسائلها وأوضـح نهاياتها. ولهذا فإن التصرفات المرتبكة لغريب متقدم فى السن يلتقطها من الشوارع ويجلسها فى شقته كى يقدر تارة أن يقـبل قدميها، تارة يرهبها بالصياح والعبوس، تارة يدهنها بـزيوت غريـبة، تارة يتجاهلها، تارة ينام بين ذراعيها طوال الـليل، والآن يـنام منفردا متقلب المزاج، قد لا تدل إلا على علامـات عجـز، تردد، انسلاخ، عن رغباته الشخصية. وفى

الوقــت الذى لم أكف عن النظر إليها كجسد معطل، متضرر، يحمــل ندبات، ربما إنها فى هذا الوقت قد نضجت وأصبحت ذلك الجسد الناقص الجديد، غير حاسة بتشوهها أكثر مما تحسه قطة بالتشوه أن امتلكت مخالب بدلاً من الأصابع. سأفعل حسناً إن أخذت هذه الأفكار بجدية. أن أكون اعتيادياً بدرجة أكبر مما أحب أن أعتقد، قد تكون لها وسائلها كى تجدنى اعتيادياً أيضاً.

* * * .



الهـــواء ممتـــلئ فى كـــل صـــباح يخفق أجنحة بينما تطير العصـــافير قادمة من الجنوب محومة فى حلقات فوق البحيرة قـــبل استقرارها فى الأطراف الناتئة المالحة للمستنقعات. عند الهـــدوء المؤقـــت للرياح، تصل إلينا تنافر نغماتهم، طبطبات، قوقـــأة، صيحات حادة، مثل صوت مدينة مزاحمة على الماء: أنواع من سمك نهرى، طيور، بط بأنواع وألوان مختلفة.

يؤكـــد وصـــول الوجـــبة الأولى من طيور الماء المهاجرة العلامات الأولى، الأثر الباهت لدفـــء جديد فى الريح، الشفافية الـــزجاجية لجـــليد البحيرة. الربيع فى طريقه، فى يوم من هذه الأيام يكون الوقت مناسباً للزرع.

الوقت الحاضر هو موسم نصب الأفخاخ. قبل الفجر، تغادر فـــرق مـــن رجـــال إلى البحيرة لوضع شباكها. يعودون عند منتصـــف النهار بصيد وفير: طيور ملوية الرقاب تتدلى معلقة مـــن أرجلها على أعمدة صفاً بعد صف، أو حشرت وهى حية فى أقفـــاص خشـــبية، تصرخ تغضب، يدوس بعضها بعضاً، وأوزة ضـــخمة تجثم بينها فى صمت شديد. خصب الطبيعة.: فى الأسابيع المقبلة سيأكل كل واحد منا جيداً.

قبل أن أسافر، هناك وثيقتان على تهيأتهما: الأولى معنونة إلى الحاكم الإقليمى. أكتب، "من اجل إصلاح بعض الأضرار التى نتجت عن غزوات المكتب الثالث، ومن أجل استعادة بعض النوايا الحسنة التى كانت سابقاً، سأقوم بزيارة قصيرة للبرابرة". أوقع وأختم الرسالة.

لا أعرف حتى الآن شيئاً عن مضمون الرسالة الثانية. شهادة؟ سيرة ذاتية، اعتراف؟ تاريخ ثلاثين عاما على الحدود؟ أجلس طوال ذلك النهار فى غيبوبة على مكتبى محدقاً فى الورقة البيضاء الخالية، منتظراً، أن تأتى الكلمات. يمر يوم ثان بالطريقة نفسها. أستسلم فى اليوم الثالث، أعيد الورقة إلى الدرج وأتهيأ لبعض الاستعدادات للسفر. يبدو الأمر متناسبا فى ان رجلاً لا يعرف ماذا يفعل بامرأة فى فراشه، لا يعرف ماذا يكتب.

اخترت ثلاثة رجال لمرافقتى. اثنان شابان مجندان إلزامياً أنا مسؤول عن عملهما الإضافى. الثالث رجل أكبر منهما ولد فى هذه الأطراف، صياد وتاجر خيول، سأتولى دفع أجوره من جيبى الخاص. أدعوهم معاً إلى فى الظهيرة التى تسبق سفرنا. أقول لهم، "أنا أعرف أن الوقت غير ملائم للسفر. إنه وقت غدار، نهاية ذيل شتاء، ربيع لم يبدأ بعد هنا، ولكن إن انتظرنا أكثر فلن نجد البدو قبل أن يبدأوا الشروع بهجرتهم"، لا يطرحون أى سؤال.

للفـتاة أقول ببساطة، سآخذك إلى أهلك، أو إلى أقرب نقطة أتمكن من الوصول إليها. مدركاً أنهم قد تفرقوا الآن". لا تبدى علامــة فرح ما. أضع إلى جوارها الفراء الثقيل الذى اشتريته لهــا لتســافر بــه، مع قبعة من جلد الأرنب مزخرفة بحسب الطريقة المحلية وزوجاً من الأحذية طويلة الساق وقفازين.

الآن وقد أعددت نفسي لوجهة معينة، أنام بسهولة أكثر، بل حتى أتتبع فى داخلى شيئاً كالسعادة.

نغــادر فى الثالث من آذار، ترافقنا عبر البوابة ومنحدرين إلى الطريق ثم إلى طرف البحيرة، مجموعة غوغاء من أطفال وكلاب. بعد اجتيازنا سور الإرواء منحرفين عن طريق النهر، مــتخذين الطــريق إلى اليمين الذى لا يستعمله غير الصيادين وصــائدى الطيــور، يــبدأ عدد مرافقينا بالتضاؤل حتى يبقى صــبيان عــنيدان يهرولان خلفنا، قد قرر كل واحد منهما أن يتفوق على الآخر.

الشمس قد أشرقت ولكنها لا تبعث دفئاً. الريح تضربنا آتية عــبر الــبحيرة إلى حد تشرق أعيننا بالدمع. سائرين فى رتل الواحــد خلف الآخر، أربعة رجال وامرأة، أربع دواب محملة، تــتحمل الخيول بعناد قسوة الريح مع الحاجة إلى توزعها هنا وهــناك، نلــتف مبتعدين عن البلد المسورة، الحقول الظاهرة للعيان وبعيدا أيضا عن الصبيين اللاهثين.

خطــتى هى تتبع هذا الطريق حتى نلتف حول البحيرة إلى الجــنوب، ثــم نندفع جهة الشمال الشرقى عبر الصحراء نحو وديان المراعى حيث يشتى بدو الشمال. انه طريق يسلك نادرا. مــنذ أن بــدأ البدو، فى خلال هجرتهم مع قطعانهم، فى تتبع مجــرى النهر القديم فى اجتياح واسع شرقاً وجنوباً. على أى حــال، هذا الطريق يقلل الرحلة من ستة أسابيع إلى أسبوع أو اثنين.

وهكــذا، نكدح فى السير ثلاثة أيام جنوباً ثم باتجاه الشرق. تمتد إلى يميننا أرض شبه مستوية من صلصال نحتتها الرياح، مندمجة فى أقصى أطرافها مع ركام من سحابة غبار أحمر. ثم مع السماء الصفراء المكفهرة. على يسارنا مستنقعات منبسطة، حلقات من القصب والبحيرة حيث طبقة من جليد فى الوسط لم تــذب حــتى الآن. الريح الهابة فوق الجليد تجمد أنفاسنا، إننا نفضــل الســير فى الغــالب أوقاتا طويلة، بدلاً من الركوب، محتمين بخيولنا. تلف الفتاة شالاً حول وجهها عدداً من اللفات، وهى جاثمة على سرجها، تتبع على نحو أعمى من يقودها.

اثــنان مــن الــدواب محملان بحطب الوقود، ولكننا علينا الاحــتفاظ به للصحراء. مرة، ونحن نصف مغمورين فى كتل رمــلية مــندفعة، نفاجــأ بشجرة طرفاء ممتدة مثل أكمة، نقوم بــتقطيعها إرباً من أجل الوقود. فى الأيام المتبقية كان علينا

الاكـــتفاء بحزم من قصب يابس. الفتاة وأنا ننام جنباً إلى جنب في خيمة واحدة، كل واحد منا محشور فى فرائه تجنباً للبرد.

فى هذه الأيام الأولى من الرحلة، نأكل بشكل جيد. لقد جلبنا لحمـــاً ممـــلحاً، فضـــلاً عن الطحين، الفاصوليا، فواكه مجففة وهـــناك طـــرائد كـــثيرة للصيد. ولكن كان علينا الاقتصاد فى المـــاء. ميـــاه المستنقع الضحلة فى الأطراف الجنوبية الناتئة، مالحة جداً لا تصلح للشرب. كان على أحد رجالنا أن يخوض عشـــرين أو ثلاثين خطوة فيها، إلى عمق ربلة ساقيه، من أجل ان يمـــلأ القـــرب، أو الأفضل، لكسر كتل الجليد. ولكن، حتى الميـــاه الجليدية المذابة، مرة جداً ومالحة، بحيث إنها لا تصلح للشـــرب إلا مـــع شاى قوى أحمر. فى كل عام تزداد البحيرة ملوحة بينما يقرض النهر من ضفافها ويكنس الملح والشب إلى البحيرة. وبسبب من عدم تدفق المياه فى البحيرة، فإن نسبة ما تتضـــمنه مـــن عناصر معدنية، يبقى في ارتفاع، وخاصة فى الجنوب، حيث تعزل كمية من المياه سنوياً بفعل حواجز رملية. ويجـــد الصيادون، بعد فيضان الصيف، أسماك شبوط عائمة، بطـــنها إلى أعلى فى المياه الضحلة. يقولون إن أسماك الفرخ الـــنهرية لـــم تعد ترى فيها. وما الذى سيحدث للمستوطنة إن تحولت البحيرة إلى بحر ميت؟

بعد يوم من شاى مالح، يبدأ كل واحد منا، ما عدا الفتاة، فى

المعانـــاة مـــن الإســـهال. كنت الأسوأ ممن ابتلى. أحس بشدة بمشـــاعر الإذلال للتوقفات المتكررة، خلع الملابس وارتداؤها بأصـــابع متجمدة محتميا بحصان بينما ينتظر الآخرون. أحاول ان أشرب أقل كمية ممكنة من الماء، إلى الدرجة التى يبدأ فيها عقـــلى، وأنـــا راكـــب بطرح صور تعذبنى للماء مقترباً منى ومبـــتعداً. بـــرميل ممتـــلئ عند طرف بئر والماء يتناثر عن المغرفة، نظيف أبيض كالثلج. قيامى أحياناً بصيد البط مستعيناً بصـــقر، معاشـــراتى العابـــرة للنساء (دون هدف)، ممارسات رجولـــتى، قـــد حجـــبت عنى، مدى النعومة التى صار إليها جسدى. عظامى تؤلمنى بعد سير مسافات طويلة، ومع مجىء الـــليل، أحـــس بـــتعب شديد يجعلنى بلا شهية. أمشى مسافات طويـــلة مجهـــداً حتى لا أقدر أن أضع قدما أمام الأخرى، ثم أتســـلق بجهـــد فـــوق السرج، ألف نفسى بمعطفى الفضفاض، وألـــوح لأحد الرجال بالتقدم ليتولى مهمة العثور على الطريق الـــباهت. لا تتركـــنا الـــريح أبداً، إنها تتبح علينا عبر الجليد، تعصـــف من لا مكان إلى لا مكان، مغطية السماء بسحابة من تـــراب أحمـــر. لا مجال للاختفاء من التراب: إنه يتسلل إلى ثيابـــنا، يغلف وجوهنا، يتغلغل فى أمتعتنا، نأكل بأفواه مغلفة، نبصق غالباً، تصر أسناننا، يصبح التراب لا الهواء هو الوسط الذى نعيش فيه. نعوم عبر التراب مثل سمك عبر ماء.

لا تشـــكو الفتاة، تأكل جيداً، لا تمرض، تنام بعمق متكورة

مــثل كــرة فى جــو بارد أتمنى فيه أن أحتضن كلباً من أجل الراحة. تسير راكبة طوال النهار دون تذمر. مرة، ملقيا نظرة نحوها، أراها راكبة وهى نائمة، وجهها هادئ كوجه طفلة.

فى اليوم الثالث تبدأ أطراف المستنقعات بالالتواء إلى الخلف نحو الشمال، ونعلم عندئذ أننا قد

درنــا حــول البحيرة. نقيم مخيماً فى ساعة مبكرة ونمضى ســاعات الضــياء الأخيرة فى جمع أى فضلة ممكنة من قطع الوقــود، بيــنما تــرعى الخيــول للمرة الأخيرة فى حشائش المســتنقعات الهزيــلة. وفى فجر اليوم الرابع، نبدأ بقطع قاع المجــرى القديــم للــبحيرة الممتد أربعين كيلومترا آخر خلف المستنقعات.

أرض الــبادية أكثر قفرا من أى شئ آخر رأيناه حتى الآن. لا شئ ينبت فى قاع هذه البحيرة الملحية. التى تنبعج فى بعض مناطقها وتندفع إلى الأعلى فى انشقاقات بلورية مثلومة سداسية الأضلاع بعرض قدم واحدة. هناك مخاطر أيضا. الجواد الأول يغوص فجأة فى قشرة الأرض خلال عبوره رقعة ناعمة بشكل غير اعتيادى، ويغطس حتى الصدر فى وحل كدر معشوشب. يقف الرجل الذى يقوده مصعوقاً فى فراغ واه قبل أن يسقط هو أيضا متلوثا برشاش من قذارة. نكافح من أجل سحبهما خارجا، تتشــظى القشــرة الملحية تحت حوافر الجواد، تتوسع الحفرة،

تنتشـــر الروائح الكريهة للماء الآسن فى كل مكان. ندرك الآن أنـــنا لـــم نترك البحيرة خلفنا: انها تمتد هنا تحتنا، تحت غطاء يمتد أحياناً عدة أقدام عمقا، وفى أحيان أخرى تحت قشرة رقيقة مـــن ملح هش. كم من زمن قد مضى منذ أن أشرقت الشمس آخـــر مـــرة على هذه المياه الميتة؟ نوقد نارا على أرض أكثر صـــلابة، لتدفئة الرجل المرتعش وتجفيف ملابسه. يهز رأسه ويقـــول، "سمعت على الدوام، احذروا البقع الخضر، ولكننى لم أر مـــثل مـــا حدث من قبل". إنه دليلنا، الرجل الوحيد الذى قد ســـافر عبر شرق البحيرة. ندفع خيولنا، بعد ما حدث، بضغط أشـــد، وبسرعة أكبر من أجل الخلاص من هذه البحيرة الميتة، خشـــية أن نـــتيه فى مادة مائعة أشد برداً من الجليد، معدنية، خفيـــة، بـــلا هواء. نحنى رؤوسنا ونندفع فى العاصفة، تنتفخ معاطفـــنا مثل بالونات خلفنا، ملتقطين درباً فوق القطع الملحية المتكسرة المثلومة، متجنبين الأرض الناعمة. تشع الشمس مثل برتقالة من خلال نهر الغبار الذى يتقدم بمهابة عبر السماء، لا تـــدفئ شيئا. عندما يسقط الظلام، ندق أوتاد الخيمة فى شقوق الملح المتصلبة كالحجارة، نوقد نارنا بثمن باهظ، ومثل البحارة نصلى من أجل أرض.

فى اليوم الخامس، نترك، قاع البحيرة خلفنا ونمر عبر حزام مـــن الأمـــلاح المتبلورة الناعمة التى سرعان ما تستسلم أمام الرمال والحجارة. تشتد عزائمنا جميعاً، حتى الخيول، التى فى

خـــلال عـــبورها الأرض المالحـــة، لم تتناول شيئا غير بضع حفنات من بذر الكتان ودلو من ماء آسن أجاج. حالتها بوضوح متدهورة جداً.

أمـــا بالنسبة للرجال، فإنهم لا يتذمرون. اللحم الطازج ينفد ولكـــن يتبقى لدينا اللحم المملح والفاصوليا المجففة ووفرة من طحين وشاى وهى قوام الطريق الأساسية، نغلى الشاى فى كل اســـتراحة وقـــوف ونقـــلى (كتلة متراصة من السمن)، كعكة ضخمة، لقمة لذيذة بالنسبة للجائع. يقوم الرجال بالطبخ: كونهم خجلين من الفتاة، غير واثقين من موقفها، غير واثقين أكثر من أى شـــئ آخـــر، مـــا نفعلـــه فى أخذهـــا للبرابرة، هم بالكاد يخاطبونها، يتجنبون النظر إليها، ولا يسألون، بالتأكيد مساعدة مـــنها فى الطبخ. أنا لا أقوم بالضغط عليها للتقدم نحوهم، آملاً أن تتـــبدد قيـــود الكـــبح فى خلال الطريق. لقد اخترت هؤلاء الـــرجال لأنهـــم شديدو القدرة على التحمل وأمناء، ومستعدون للعمل. انهم يتبعونني بأقصى ما يقدرون من خلو البال فى مثل هذه الظروف، على الرغم من أن الدرع الممتاز الصقيل الذى ارتـــداه كـــل واحـــد من الجنديين الشابين عند اجتيازنا البوابة الكـــثيرة، مربوط الآن علي ظهر الدواب فى حزم بين الأمتعة وغمـــد سيفه ممتلئان رملاً. تبدأ المسطحات الرملية تتغير إلى كثـــبان رملية. يتباطأ تقدمنا ونحن نصعد بكد جوانب الكثبان. إنهـــا أسوأ تضاريس أرضية بالنسبة للخيول والتى تسير بتثاقل

وبطء، بضعة انجات فى كل مرة، منغرزة حوافرها عميقاً فى الــرمل. أتطلع إلى دليلنا ولكن كل ما يقدر عليه هو هز كتفيه: "سيســتمر الأمــر هكــذا أميالاً، علينا اجتيازها، لا سبيل آخر أمامــنا". واقفاً فى أعلى كثيب رملى، مغطياً عينية متطلعاً إلى الأمام، لا أستطيع ان أرى غير دوامة من رمال.

فى تلك الليلة، لا يتناول أحد الخيول ما نقدمه له من طعام. وفى الصــباح، وتحــت أقسى السياط، يرفض النهوض. نقوم بإعادة توزيع الأحمال ونتخلى عن قسم من حطب الوقود. أبقى خــلفهم، فيمــا يســير الآخرون. بإمكانى أن أقسم أن الحيوان يعــرف ما سيحدث له. أمام مرأى السكين، تتقلب عيناه، ومع تفجــر الدم من رقبته، يندفع طليقاً من الرمل ويترنح خطوة أو اثنــتين باتجــاه الريح قبل أن يسقط. سمعت أن البرابرة، فى حــالات الشــدة المهلكة، يفرغون عروق خيولهم من الدم. هل سنبقى على قيد الحياة كى نتأسف على هذا الدم المراق بإسراف على الرمل؟

فى اليــوم الســابع، والكثبان قد أصبحت خلفنا أخيراً، نميز قــبالة المــنظر الطــبيعى الخالى الممل بلونه الرمادى البنى، شــريطا مــن الرمادى الغامق. من مسافة أقرب نجد أنه يمتد شرقاً وغرباً عدة أميال. بل هناك أيضاً أشكال سوداء لأشجار. يقول دليلنا، نحن سعداء، من المؤكد وجود ماء هنا.

مـــا تعـــثرنا به هو قاع مجرى قديم لمستنقع. قصب أبيض وهش عند الملمس، يحدد ما كان ضفافه. الأشجار هى الحور، وهى أيضا ميتة منذ زمن طويل. لقد ماتت منذ أن تراجع الماء الموجـــود تحـــت الأرض إلى مسافة أبعد مما يمكن لجذورها الوصول إليه قبل أعوام وأعوام.

نـــنزل حمولـــة الحيوانـــات ونبدأ بالحفر. نصل عند مسافة قدميـــن عمقاً إلى طبقة سميكة من صلصال كثيف أزرق. تحت هـــذه الطـــبقة رمال أيضاً، ثم طبقة أخرى من صلصال ظاهر الـــلزوجة. عـــند عمق سبعة أقدام، وقلبى يخفق بشدة وأذناى تطـــنان، اضطر إلى رفض دورى مع المعول. يستمر الرجال الـــثلاثة فى الكدح، رافعين التراب المخلخل من الحفرة بقطعة من قماش خيمة بعد ربط زواياها.

على عمق عشر أقدام، يبدأ الماء بالتجمع حول أقدامهم. إنه حـــلو، لا يوجد أثر للملوحة فيه، نبتسم بفرح لبعضنا البعض، ولكـــنه يـــتجمع ببطء شديد كما أن جوانب الحفرة تحتاج إلى اســـتخراج مـــا يتقوض منها باستمرار. فى ساعة متأخرة من العصــــر فقـــط، ننتهى من إفراغ آخر ما لدينا من ماء البحيرة الآســـن الأجاج ونملأ القرب الجلدية ثانية. وقبل حلول الظلمة تماماً، ندلى البرميل إلى بئرنا ونسمح للخيول بشرب الماء.

فى ذلـــك الوقـــت نفسه، وبعد توفر خشب الحور لدينا، قام

الـــرجال بحفـــر فـــرنين صـــغيرين فى الصلصال، ملتصقين بظهريهما وعززوا ناراً مزمجرة على قمة كل واحد منهما من أجل طبخ الصلصال وتجفيفه. عندما تتضاءل النيران، سيكون بإمكـــانهم جرف الفحم وإعادته إلى الفرن والبدء بأعداد الخبز. تـــرقب الفـــتاة واقفة كل ما يحدث، مستندة إلى عكازيها اللذين قمـــت بتثبيت قرصين خشبيين عليهما من أجل مساعدتها على الوقوف. ويتدفق الكلام فى غمرة هذه العلاقة الحميمة والسهلة مـــع راحـــة موعودة. مازحين معها، يبدأ الرجال بإبداء أولى عـــروض الصـــداقة: "تعـــالى وأجلسى معنا وتذوقى ما يخبزه الـــرجال!" تبتسم مستجيبة لهم، رافعة ذقنها فى حركة ربما أنا وحـــدى أعـــرف أنها محاولة منها للنظر. بحذر تجلس وتتخذ لنفسها مكانا على الأرض بجوارهم لتنغمر فى وهج الفرنين.

أنـــا نفســـى أجلس فى مكان أبعد، محتمياً من الريح بفتحة مقدمـــة خيمـــتى، أحـــد القناديل الزيتية يومض بقربى. أدون يوميـــات العمـــل فى السجل الخاص، مصغياً أيضاً فى الوقت نفسه. يتواصل المزاح والهزل بلغة الحدود المبسطة المفهومة، وهى تتحدث دون ارتباك. أندهش لطلاقة لسانها، خفتها، ثقتها بنفسها. بل إننى أنتبه لنفسى، متوهجاً بالفخر: إنها ليست مجرد أنـــثى الرجل العجوز، إنها ذكية، امرأة شابة جذابة! لو أننى قد عـــرفت كيفيـــة استعمال لغة المزاح التى تبعث السعادة لكانت علاقة بعضنا ببعض قد غدت أكثر صميمية ودفئاً. ولكننى مثل

مغفل، بدلاً من منحها وقتاً طيباً، ضغطت عليها بالهموم. حقا، إن العالم يجب أن يخص المغنين والراقصين! مرارة غير ذات جـدوى، كآبـــة لا قيمة لها، ندم أجوف! أطفئ القنديل، أجلس مسنداً ذقني على قبضتي محدقاً في النار، أصغى إلى قرقرة معدتي.

* * *

أنـــام نوم الانهماك المطلق. وعندما أكاد أبزغ إلى الصحو، تـــرفع طـــرف فـــراء الدب الكبير وتدنو مني التماساً للدفء. "الطفـــل يستبرد في الليل" – هذا ما أفكر فيه وأنا في حالة من التشوش عقب الصحو، أشدها نحو انحناءة ذراعي، متسللاً إلى نعـــاس. ربمـــا أســـتغرق مدة من زمن في النوم ثانية. بعدئذ، صاحياً تماماً، أحس بيدها متحسسة تحت ملابسي، لسانها يلحس أذني، موجة من بهجة حسية صياح كل كياني، أتثاءب، أتمطى، وأبتسم في الظلمة. تعثر يداها على ما تبحث عنه، "ماذا بشأنه؟" أفكـــر. "ماذا إن فنينا في منتصف اللامكان؟ دعنا على الأقل لا نمـــوت محرومين تعساء!". كانت عارية تحت قميصها، بدفعة كـــنت فوقها، إنها دافئة، مفعمة بعاطفة قوية، مستعدة لي، وفي دقيقـــة، يزول تردد فارغ استمر أشهراً خمسة وأنا أطفو عائداً إلى حالة من سلوان حسي سلس.

عندما أستيقظ يكون ذلك بذاكرة ممسوحة خالية تماماً بحيث إن الفزع يتصاعد في. لا أقدر إلا بعد بذل جهد متأن من إعادة

نفسى إلى الزمان والمكان: إلى فراش، خيمة، عالم، جسد يمتد شـــرقاً وغرباً، وعلى الرغم من كونى منبطحاً عليها بثقل ثور ميت، فإن الفتاة نائمة، ذراعاها ملتفان باسترخاء حول رقبتى. أرخى نفسى عنها، أعيد ترتيب غطائنا وأحاول تهيئة نفسى. لا أتخيـــل ولـــو للحظة واحدة أننى سأقدر يوم غد على تقويض مخيـــم، أن أســـير عـــائداً إلى الواحـــات، وفى منزل القاضى المشمس، أستقر وأعيش ما تبقى من حياتى مع عروس شابة، أنـــام فى سكون إلى جوارها، أكون أباً لأولادها، أرقب تعاقب الفصـــول. لا أشـــعر بالخجل من فكرة أنها لو لم تكن أمضت الأمسية مع رجال شبان حول نار المخيم، فمن المحتمل أنها لم تكـــن قد وجدت أى حاجة إلى. ربما إن الحقيقة هى أن واحداً مـــنهم كانت تحتضنه هى عندما أمسكتها بين ذراعى. أصغى مرتاعاً إلى ترددات تلك الفكرة فى داخلى، ولكننى لا أقدر على كشـــف غصـــة للقلب تقول لى إننى قد جرحت. تنام هى، تمر يدى إلى الأمام ووراء بطنها الناعمة مربتة على فخذيها. لقد تم الأمـــر، أنـــا مرتاح البال. وفى الوقت نفسه، أنا على استعداد للاعتقاد انه لم يكن سيتم ما لم أكن فى خلال أيام مفارقاً إياها. ولا إن توجب على أن أكون صريحاً، كانت المتعة التى وجدتها فيهـــا، المـــتعة التى ما يزال غصن غارى يستشعر انعكاساتها الـــبعيدة، تسرى عميقا. قلبى لا يثب إليها أكثر من ذى قبل ولا يخفـــق دمى عـــند ملمسها. أنا معها ليس من أجل أى نوع من

نشـــرة قـــد تعدنى بها أو تمنحها، ولكن لأسباب أخرى والتى ســتبقى غامضـــة بالنسبة لى كما أبدأ. ما عدا أنه لم يغب عن ذاكرتى أنه فى الفراش فى الظلام تنسى بسهولة العلامات التى تـــركها عليها من قاموا بتعذيبها، القدم الملتوية والعينان نصف العميـــاوين. هـــل أن القضية إذن أنها المرأة الكاملة هى التى أريـــد، وأن متعـــتى فيها تسلب ما لم تمح عنها هذه العلامات وتعـــود كما كانت، أم إن القضية (لست بأبله، دعونى أقل هذه الأمـــور) ان هذه العلامات عليها هى التى جذبتنى إليها ولكن لخيـــبة أملى، أكتشف أنها لا تمتد إلى عمق كاف؟ كثير جداً أو قليل جداً: هل هى التى أريد أم آثار تأريخ يحمله جسدها؟ أبقى مستلقياً مدة طويلة محدقاً فى ما يبدو منحدر سواد، على الرغم مـــن أنـــنى أعرف أن سقف الخيمة لا يبعد غير ذراع فقط. لا فكـــرة أنعـــم الـــنظر فيها، لا لفظ، إلى أى هدى كان مناقضاً، لمصدر رغبتى يبدو مقلقاً بالنسبة لى. أفكر، "لابد أننى متعب. أو ربما مهما يكن الملفوظ واضحاً فإن التعبير عنه يكون زائفاً، "تتحرك شفتاى بصمت، مشكلة ومعيدة تشكيل الكلمات. أو ربما إنها القضية الوحيدة إلى حد بعيد التى لم تلفظ بل التى تجب أن تعاش بكل ما فى الكلمة من معنى. "أتفرس فى هذا الافتراض دون ان أســتبين فى نفســـى أى نزعة استجابة نحو موافقة أو معارضة. تصبح الكلمات أكثر وأكثر غموضاً أمامى. سرعان مـــا تكـــون قـــد فقدت معناها. أتنهد فى نهاية يوم طويل، فى

منتصـــف ليـــلة طويلة. ثم أستدير إلى الفتاة، أحتضنها، أشدها بقوة إلىّ تخرخر فى نومها، حيث سرعان ما انضممت إليها.

* * *

نـــرتاح فى اليوم الثامن، إذ إن الخيول الآن فى حالة يرثى لهـــا. وهى تـــلوك بجـــوع أنسجة بلا عصارة لسيقان القصب الميتة. إنها تنفخ بطونها بالماء وتخرج ريحاً بقوة. لقد أطعمناها آخر ما لدينا من بذر الكتان وحتى جزء من خبزنا. وما لم نجد مرعى لها فى خلال يوم أو يومين، فإنها ستنفق.

* * *

نـــترك خلفاً بئرنا، والرابية التى قمنا بحفرها، نحث السير شـــمالاً. كل واحد منا ماشٍ ما عدا الفتاة. لقد تخلينا عن كل ما فى اســـتطاعتنا من أجل تخفيف أحمال الخيول، ولأننا لا نقدر الـــبقاء على قيد الحياة من غير نار، فما زال عليها نقل حمولة ثقيلة من الخشب.

أسأل دليلنا، "متى سنرى الجبال؟"

يـــوم واحد أو يومان. من الصعب القول. لم أسافر فى هذه الأرجاء من قبل. لقد مارس الصيد على طول الساحل الشرقى للبحيرة والحدود الخارجية للصحراء دونما حاجة إلى اجتيازها. انتظر أنا، مانحاً إياه كل فرصة لشرح ما يدور فى ذهنه، ولكنه

لا يـــبدو قلقاً، وهو لا يعتقد أننا فى خطر. "ربما يومان قبل أن نصـــلها، ثـــم يوم آخر من السير قبل الوصول إليها". يغمض عيـــنيه نصف إغماضه، متطلعاً فى الضباب البنى الذى يغلف الأفق، إنه لا يسأل عما سنفعله عند وصولنا الجبال.

نصـــل نهاية الأرض المسطحة الحصباء ونصعد سلسلة من أخـــاديد صـــخرية إلى سهل فسيح، حيث تبدأ نتوءات لحشائش ذابـــلة تظهـــر لـــلعيان. تعدو الحيوانات إليها باندفاع وحشى. رؤيتها تأكل، أمر نقابله بارتياح كبير.

أســـتيقظ مجفـــلاً فى منتصـــف الليل، ممتلئاً بإحساس مليح بوجود خطأ ما. تجلس الفتاة بجوارى، تقول، "ما الأمر؟"

"أصغى، لقد توقفت الريح".

حافية، ملتفة بالفراء، تزحف خلفى إلى خارج الخيمة. الثلج يتســـاقط بنعومة. الأرض مستلقية بيضاء فى كل الجهات تحت بـــدر مضبب. أساعدها فى الوقوف على قدميها وأقف ممسكاً إياهـــا، متطلعاً فى الفضاء الذى تتساقط منه الندف الثلجية، فى صـــمت محسوس بعد أسبوع من رياح تدوى دونما توقف فى آذانـــنا. ينضم إلينا رجال الخيمة الثانية. نبتسم ببلاهة لبعضها البعض. أقول، "ثلج الربيع، آخر ثلوج العام". يهزون رؤوسهم إيجاباً. حصان يهز نفسه بالقرب منا، يجعلنا نجفل.

محـــتجزان بســبب الثلج فى الخيمة الدافئة، أمارس الحب معها. إنها سلبية، تكيف نفسها لى.

عـــندما نبدأ أكون واثقاً من أن الوقت ملائم: أحتضنها بأشد وأكـــثف رغبة وبزهو الحياة. ولكن فى منتصف طريقى أبدو فاقداً الإحساس بها، ويتلاشى الفعل فى فراغ. بديهيات بوضوح عرضـــة للخطأ. ومع ذلك، فإن قلبى يستمر فى التوهج محبة تجـــاه الفتاة والتى سرعان ما تنام عند انحناءة ذراعى. ستكون هناك فرصة أخرى، وان لا تكن، فلا أعتقد بأننى سأهتم.

* * *

صـــوت يـــنادى عبر شق مدخل الخيمة: "سيدى، يجب أن تستيقظ!"

انتبه بارتباك إلى أننى قد نمت أكثر مما يجب. إنه السكون، أفكر مع نفسى: يبدو الأمر وكأنما قد هدأنا فى السكون".

أبـــزغ مـــن الخيمـــة إلى ضوء النهار. يقول الرجل الذى أيقظـــنى، مشيراً نحو الشمال الشرقى، "انظر سيدى، جو سيئ فى الطريق!"

مـــتدحرجة نحونا فوق السهل الثلجى، موجة سوداء هائلة. إنهـــا مـــا تـــزال على مبعدة أميال عنا ولكنها بوضوح تبتلع الطريق فى اقترابها. قمتها ضائعة فى الغيوم المضببة. أصرخ،

"عاصفة!". لم أر من قبل شيئا مخيفا مثلها. يسرع الرجال لتقويض خيمهم. "اجلبوا الخيول إلى الداخل، قيدوها هنا بحبل طويل، فى الوسط!" أولى الهبات تصلنا تواً، الثلج يبدأ يدوم ويرفرف فى الهواء.

الفتاة بجوارى على عكازيها. أقول، "هل بإمكانك رؤيتها؟". تنظر بطريقتها الملتوية وتومئ برأسها. يبدأ الرجال العمل مقوضين الخيمة الثانية. "الثلج بعد كل ذلك لم يكن علامة طيبة. "لا تجيب. على الرغم من معرفتى بوجوب تقديم مساعدتى، فإننى لا أستطيع أن انتزع عينيى من الجدار الأسود المزمجر القادم نحونا بسرعة حصان يجرى عدواً. تعلو الريح، مسقطة إيانا أرضاً، الولولة المعهودة ثانية فى آذاننا.

استحث نفسى. أصيح، "بسرعة، بسرعة!"، مصفقاً بيدى. يجلس أحد الرجال على ركبتيه يطوى الخيمة، يلف قطع اللباد، يرص أغطية الفراش. ينهمك الاثنان الآخران بجلب الخيول إلى الداخل. "اجلسى!" أصرخ بالفتاة، وأتدافع لتقديم المساعدة فى الرزم. جدار العاصفة لم يعد بلون أسود بل دوامة مشوشة من رمل وثلج وتراب. ثم ومرة واحدة تتصاعد الرياح فى صرخة، تطير قبعتى عن رأسى، وتضربنا العاصفة. أسقط منبطحاً على ظهرى. ليس بفعل الرياح بل من قبل حصان يتحرر من قيده ويتخبط هنا وهناك، أذناه منبسطتان وعيناه تتقلبان. أصيح، "امسكوا به". كلماتى هى لا شىء غير همسة،

لا أستطيع أنا نفسى سماعها. يتلاشى الحصان عن البصر مثل شبح. تدور الخيمة فى اللحظة نفسها، عاليا فى السماء. أقذف بنفسى فوق حزمة اللباد، ممسكا بها أرضاً، مهمهماً بغضب لنفسى. ثم على يدى وقدمى، ساحباً اللباد، أعود ببطء باتجاه الفتاة. الأمر أشبه بالزحف ضد تيار مائى جار. قد سدت تواً، بالرمال عيناى، أذناى، فمى، ألهث كى أتنفس.

تقف الفتاة ويداها مبسوطتان مثل جناحين فوق رقبتى حصانين تبدو كأنها تتحدث معهما: وعلى الرغم من توهج مقلتيهما، فانهما ساكنان.

"ذهبت خيمتنا!" أصرخ فى أذنها، ملوحاً بذراع تجاه السماء. تستدير: وجهها تحت القبعة ملفوف بوشاح أسود، مغطياً حتى عينيها. أصيح ثانية، "خيمة قد ذهبت!". تومئ برأسها.

نجثم خمس ساعات خلف خشب الوقود والخيول بينما تجلدنا الريح بالثلوج، الجليد، المطر، الرمل، الحصى. نتوجع برداً حتى العظام تماماً. خواصر الخيول التى تواجه الريح، مغطاة بطبقة من جليد. نحتشد معاً، إنساناً وحيواناً، متقاسمين دفئنا، محاولين الصمود.

بعدئذ فى منتصف النهار تنسحب الريح فجأة وكأنما بوابة قد أغلقت فى مكان ما. ترن آذاننا فى الهدوء غير المألوف. يجب علينا تحريك أطرافنا الخدرة، تنظيف أنفسنا من الأتربة، تحمل

الحيوانات، وأن نعمل لجعل الدم يجرى فى عروقنا، ولكن كل ما نريده هو ان نستلقى مدة أطول فى مكمننا. خمول منحوس! ينقشط صوتى عن بلعومى، "تعالوا أيها الرجال، دعونا نحمّل".

ارتفاعات محدبة فى الرمال تدل على أماكن متاعنا المبعثر المدفون. نبحث مع اتجاه الريح لكننا لا نجد علامة ما تدل على خيمتنا المفقودة. نساعد الخيول الصارة على الوقوف ونحملها. برودة العاصفة تعد صفراً قياساً للبرودة التى أعقبتها، والتى تستقر علينا مثل حجاب كثيف من جليد فوقنا. تتحول أنفاسنا إلى قشرة جليدية، نرتعش فى داخل أغطيتنا الواقية. ينهار الحصان الأول بعد ثلاث خطوات مرتبكة متأرجحة، يسقط على جزئه الخلفى: نرمى جانباً وقود الخشب الذى يحمله، نوقفه على قدميه بقائم، نضربه بالسياط. أشتم نفسى، ليس للمرة الأولى، لخروجى للسفر فى رحلة شاقة مع دليل غير موثوق فى موسم غدار.

* * *

اليوم العاشر: جو أدفأ، سماءات أصفى، رياح أعذب. نغذ السير عبر أراض منبسطة، عندما يصرخ دليلنا ويشير. "الجبال!" أنعم النظر ويثب قلبى. ولكنها ليست الجبال تلك التى يراها. البقع التى يشير إليها فى البعد هم رجال، رجال على ظهور الخيل: من غير البرابرة! أستدير نحو الفتاة، التى أقود

مطيـــتها البطيئة الحركة. أقول، "لقد وصلنا تقريباً. هناك أناس أمامنا، سنعرف سريعاً من هم". غم الأيام الماضيات يرتفع عن كاهـــلى. متحركاً إلى المقدمة، مسارعاً خطواتى، أدير مسيرتنا تجاه الشخوص الثلاثة الضئيلة فى البعد.

نشـــد السير نحوهم قرابة نصف ساعة قبل أن ندرك أننا لا نقـــترب البـــتة مـــنهم. كـــلما نـــتحرك يتحركون أيضاً. انهم يتجاهلونـــناً. أفكر فى ذلك وأرى اللجوء إلى إيقاد نار. ولكننى عـــندما أطلب توقفاً، تتوقف البقع الثلاث، وعندما نعاود سيرنا، يـــبدأون هم بالحركة. أتعجب، "هل هم انعكاسات لنا، هل إنها خدعـــة الضياء؟" لا نقدر على سد الفراغ بيننا. كم مضى على تعقبهم إيانا؟ أم تراهم يعتقدون بأننا نتعقبهم؟

أقول للرجال، "توقفوا، لا فائدة من ملاحقتهم، دعونا نر إن أرادوا مقابلة واحد منا على انفراد". وهكذا أمتطى حصان الفتاة وأســـير منفرداً نحو الغرباء. لوهلة قصيرة يبدون ساكنين بلا حراك، يراقبون وينتظرون. بيدأون فى التراجع بعدئذ يومضون عـــلى حافـــة الغبار الضبابى. حصانى ضعيف جدا غير قادر الأعـــلى الســـير خبـــباً عـــلى الرغم من حثى إياه أتخلى عن المطاردة، أنزل عن الحصان، وأنتظر وصول رفاقى إلىّ.

من أجل المحافظة على قوة الخيول بدأنا نجعل سيرنا أقصر وأقصر. لا نقطع فى سيرنا أكثر من ستة أميال فى عصر ذلك

اليـــوم عبر تضاريس أرض منبسطة صلبة، وباستمرار يحوم راكـــبو الخيول الثلاثة ضمن مدى رؤيتنا، قبل أن نقيم مخيما. أمام الخيول ساعة من الزمن للرعى على الحشائش المنخفضة الضئيلة التى قد توجد، بعدها نقوم بربطها فى حبل طويل إلى الخيمـــة ونقيـــم حارساً عليها. يسقط الظلام، تبزغ النجوم فى ســـماء مضـــببة. نســـتلقى حـــول نار المخيم نلتمس الدفء، مســـتمتعين بآلام الأطراف المتعبة، متحاشين التجمع فى خيمة واحـــدة. بوسعى أن أقسم، متفرساً شمالاً على استطاعتى رؤية وميـــض نـــار أخرى، ولكننى عندما أحاول تحديدها للآخرين، يكون الليل حالك السواد غير قابل للنفاذ.

يـــتطوع الـــرجال الـــثلاثة للـــنوم خارج الخيمة، متناوبين المراقـــبة. أتأثـــر لما بدر منهم. أقول، "بعد بضعة أيام، عندما يكون الجو أدفأ". ننام ملء جفوننا، أربعة أجساد محشورة معاً فى خيمة واحدة تكفى اثنين، الفتاة باحتشام فى الطرف الأبعد.

أســـتيقظ قـــبيل الفجر متفرساً صوب الشمال. بينما تتحول الألوان الحمراء - الوردية والبنفسجية الزاهية لشروق الشمس إلى الـــلون الذهبى، تتجسد البقع مرة أخرى على الوجه الأسود للســـهل، ليـــس ثلاثاً منها ولكن ثمان، تسع، عشر، ربما اثنتى عشرة.

بعمـــود وقطعـــة من قميص كتانى أبيض، أعمل راية وأسير

علــى حصـــان متوجها نحو الغرباء. لقد توقفت الريح، الهواء صاف، أعد وأنا فى طريقى: اثنا عشر شكلاً صغيراً على جانب مـــرتفع وعلى مسافة بعيدة خلفهم الأساس الباهت الشبحى لزرقة الجـــبال. وبينما أرقب أنا، تبدأ الأشكال بالتحرك. يتجمعون فى خط الواحد خلف الآخر ومثل نمل يتسلقون المرتفع. عند الحافة يتوقفون. تحجبهم موجة من غبار ثم يظهرون مجدداً. اثنا عشر راكـــباً عند خط السماء. أغذ السير، والراية البيضاء تخفق فوق كـــتفى. ومع أننى أبقى بصرى ثابتاً على الحافة، فإننى أفشل فى الانتباه إلى اللحظة التى اختفوا فيها.

أقـــول لمجموعـــتى،" علـيــنا ببساطة إهمالهم". نحمل ثانية ونعـــاود السير نحو الجبال. يحز قلوبنا اللجوء إلى السياط من أجـــل تحميل حيواناتنا الضامرة، مع أن الأحمال تزداد خفة فى كل يوم.

تـــنزف الفتاة، ذلك الوقت من الشهر قد حل عليها. لا تقدر عـــلى إخفاء الأمر، لا خصوصية تمتلكها، وليست هناك مجرد شـــجيرة للاختفاء خلفها. إنها مرتبكة والرجال مرتبكون. إنها القصـــة القديمة: تدفق دم من المرأة فأل سيئ، سيئ للحصاد، سيئ للصيد، سيئ للخيول. يزدادون كآبة: يريدون إبقاءها بعيداً عـــن الخيـــول، الأمر لا يمكن لا يريدونها أن تلمس طعامهم. خجـــلة، تبقى وحدها طوال النهار لا تنضم إلينا لطعام العشاء.

بعـد أن أنتهى من طعامى، آخذ إناء من الفاصوليا وكمية من لقمة القاضى إلى الخيمة حيث تجلس.

تقـول، "ألا يتوجب عليك القيام بخدمتى، وعلى أن لا أبقى حتى فى الخيمة. ولكن لا يوجد مكان آخر للذهاب إليه". إنها لا تجادل فى أمر استثنائها.

أقـول لها، "لا بأس عليك". ألمس بيدى خدها. أجلس برهة من الزمن أرقبها وهى تأكل.

انـه عبث فى إقناع الرجال بالنوم فى الخيمة معها. يناموت فى الخـارج، محتفظين بالنار مشتعلة، متناوبين الحراسة. فى الصباح، من أجلهم، أمر عبر طقوس تطهير مختصرة مع الفتاة (لانـنى لـم أعـد طاهراً بعد نومى معها فى خميمة واحدة): بواسـطة عصـا أرسم خطاً على الرمال، أقودها لتعبر عليه، أغسـل يديهـا ويدى، ثم أقودها عائداً، عبر الخط إلى الخيمة. تدمدم، "يجب عليك أن تفعل الشىء نفسه ثانية صباح يوم غد". فى الأيام الاثنى عشر للطريق، ازددنا قرباً أكثر من العيش معاً فى مكان واحد أشهراً.

لقـد وصـلنا التل عند سفح الجبل. الفرسان الغرباء يكدون السير على مسافة بعيدة عنا أعلى القاع الملتوية لجدول جاف. لقـد توقفنا عن محاولة اللحاق بهم. ندرك الآن أنهم فى تتبعهم لنا، يقومون أيضاً بإرشادنا.

كـــلما ازدادت التضـــاريس صـــخرية، ازداد بـــطء تقدمنا وتباطأت سرعتنا. عندما نتوقف للراحة، أو نفقد مرأى الغرباء فى التواءات الجدول، لا يساورنا الخوف من اختفائهم.

فمـــا بعــد، متسـلقين أخدوداً، متملقين الخيول، نجهد وندفع ونشـــد، نجـــد أنفسنا فجأة فوقهم. من مكان خلف الصخور، من خارج أخدود غير ظاهر، يظهرون للعيان، رجال يمتطون جياداً صـــغيرة شـــعثاء، اثنا عشر أو أكثر، يرتدون معاطف من جلد خـــروف، ســـمر الوجوه، برونزية بفعل تأثير العوامل الجوية، ضيقو العيون، البرابرة بلحمهم على أرضهم. أنا قريب إلى الحد الـــذى أشـــمهم فيه من حيث أنا واقف: عرق جياد، دخان، جلد نصـــف مدبـــوغ. أحدهم يشير إلى صدرى ببندقية قديمة يطول رجل تقريباً، بمسند ذى ركيزتين مثبتة قريباً من الفوهة. يتوقف قلـــبى. أهمـــس، "لا": وبحـــذر متقن. أسقط عنان الحصان الذى أقـــوده، وأعـــرض يدين خاليتين. بينما أدير ببطء ظهرى أتسلم العـــنان، ومـــنحدراً ومـــنزلقاً على ركام الحجارة أقود الحصان الخطوات الثلاثين نازلاً إلى سفح الأخدود حيث ينتظر رفاقى.

الـــبرابرة، واقفون والخطوط الخارجية لإشكالهم تبرز قبالة الســـماء فرقـــنا. هناك ضربات قلبى، لهاث الخيول، تأوهات الريح، ولا صوت آخر. لقد تجاورنا حدود الإمبراطورية. انها ليست اللحظة التى يتعامل معها بسهولة.

أســـاعد الفتاة فى النزول عن حصانها. أقول، "أصغى جيداً، ســآخذك إلى أعــلى المــنحدر وبإمكانك التحدث إليهم. خذى عكـــازيك، الأرض رخوة، لا يوجد طريق آخر للصعود، بعد انـــتهاء كلامك معهم، بإمكانك أن تقررى ما تريدينه. إن أردت الذهاب معهم، إن أرادوا إعادتك إلى عائلتك، اذهبى معهم. إن قـــررت العودة معنا، بإمكانك العودة معنا. هل تفهمين؟ اننى لا أرغمك. "تومئ. إنها متوترة جداً.

بذراع واحدة حولها، أساعدها فى صعود منحدر الحصباء. لا تــبدر حـــركة ما من البرابرة. أعد ثلاثا من البنادق ذوات الماســورة الطويــلة، وما عدا ذلك يحملون الأقواس القصيرة المألوفة بالنسبة لى. وعندما نصل القمة يتراجعون قليلاً.

أقول لاهثاً، "هل بإمكانك رؤيتهم؟"

تدير رأسها بتلك الطريقة الغريبة غير المحفزة، تقول، "ليس جيداً.

عمياء: ما هى الكلمة المرادفة "لعمياء؟"

تخبرنى. أخاطب البرابرة. أمل، "عمياء"، متلمساً جفنى. لا تصـــدر عـــنهم استجابة ما. البندقية المستقرة بين أذنى الجواد الصـــغير مـــا تزال مسددة نحوى. عينا صاحبها تتألقان فرحاً. يطول الصمت.

أقول لها، "تحدثى إليهم، قولى لهم لماذا نحن هنا. احكى لهم قصتك. قولى لهم الحقيقة".

تتطـــلع جانبياً نحوى وترتسم على وجهها ابتسامة صغيرة. "هل تريدنى حقا أن أقول لهم الحقيقة؟"

"قولى لهم الحقيقة. ماذا هناك غيرها للقول؟"

الابتسامة لا تفارق شفتيها. تهز رأسها، تحتفظ بصمتها.

"قــولى لهـــم ما يعجبك. لكن. الآن وقد عدت بك إلى أبعد مســافة أســتطيع الوصول إليها، أود أن أسألك وبوضوح تام العــودة إلى البلدة معى. حسب اختيارك المحض". أقبض على ذراعها وأضيف، "أهل تفهمين؟ ذلك ما أريده".

"لمـــاذا؟" الكلمة تسقط من بين شفتيها بنعومة مميتة. تعرف أنهـــا تزعجـــنى، وقـــد أزعجتنى منذ البداية. يتقدم الرجل ذو البـــندقية ببطء حتى يكاد يصل إلينا. تهز رأسها. "لا. إننى لا أريد أن أعود إلى ذلك المكان".

أندفـــع نـــازلاً المنحدر. أقول للرجال، "أوقدوا النار، اغلوا الشـــاى، ســـنتوقف هنا"، من فوق يصلنى حديث الفتاة المتدفق الـــناعم المـــتقطع بفعـــل الريح. تنحنى على عكازيها، الرجال يـــنزلون عن خيولهم ويتجمعون حولها. لا أقدر أن أفهم كلمة واحـــدة. أفكـــر، "يـــا لمضـــيعة الوقت، كان بإمكانها تمضية

الأمسيات الطويلة الخالية بتعليمى لغتها! الآن قد فات الأوان".

* * *

من خرج السرج، أخرج الطبقين الفضيين الكبيرين اللذين حملتهما معى عبر الصحراء. أخرج قطعة ملفوفة من قماش حريرى طولها ٤٠ ياردة(*)، أقول، "أود أن تتقبلى هذه الحاجيات". أرشد يدها كى تقدر على تلمس نعومة الحرير، ثم متلمسة الطبقين، المحفور عليهما اسمان وأوراق شجر. كما جلبت أيضاً رزمتها الصغيرة. لا أعرف ماذا تحوى. أضعها على الأرض. "هل سيأخذونك كل الطريق؟"

تومئ برأسها، "يقول مع حلول منتصف الصيف. يقول إنه أيضاً يريد حصاناً، لى".

"قولى له بأن أمامنا طريق طويل وصعب. واسأليه، إن كان فى استطاعتنا شراء جياد منهم بدلها. قولى إننا سندفع بالفضة".

تترجم للرجل العجوز بينما أنتظر أنا ينزل رفاقه عن جيادهم ولكنه ما يزال جالساً على حصانه، البندقية الكبيرة القديمة فى حمالتها فوق ظهره. ركاب السرج، السرج، اللجام الزمام: غير معدنية، بل من عظم وخشب مقسى بالنار قد خيط

(*) Bolt : ٤٠ ياردة.

بأوتـــار أمعـــاء وثـــبت بأسيرة جلدية. أجساد مغطاة بالصوف وجـــلود حيوانـــات قد تغذت منذ طفولتها على اللحم والحليب، غريبة على رقة ملمس الكتان، مزايا الحبوب والفواكه: هؤلاء هم الناس الذين أرغموا على الدفع بعيداً عن السهول إلى الجبال مـــع اتســـاع الإمبراطورية. لم ألتق أنا من قبل بشماليين على أرضـــهم على أسس متكافئة: البرابرة الذين أعرفهم هم أولئك الذين يزورون الواحات من أجل المقايضة، والقلة التى تقيم فى مخيم على طول النهر وأسرى حول البائسين. أى مناسبة وأى عـــار أيضاً أن أكون هنا فى هذا اليوم! فى يوم ما سينظم من يخلفوننى مجموعات من نتاج مصنوعات هؤلاء الناس: رؤوس ســـهام، مقابض سكاكين محفورة، أوانى خشبية، للعرض إلى جوار بيوض طيور، وأحجية خطية. وها أنا هنا أرفع العلاقات بين رجال المستقبل ورجال الماضى، عائدا بأعذار، جسد قمنا بامتصاصه حتى الجفاف – وسيط، ثعلب إمبراطورية فى ثياب نعجة!

"يقول لا".

أتـــناول واحداً من القضبان الفضية من كيسى وأمسكه عالياً لـــه. "قولى هذا مقابل حصان واحد". ينحنى إلى الأمام، يتناول القضـــيب اللامـــع، ويحذر يعض عليه، ثم يختفى القضيب فى داخـــل جيـــبه. "يقـــول لا. الفضة فى مقابل الحصان الذى لن يـــأخذه. إنـــه لـــن يأخذ حصانى، يأخذ الفضة بدلاً عنه". أفقد

أعصـــابى تقريباً، ولكن ماذا ستفيد المماحكات؟ إنها ذاهبة، لقد ذهـبت تقريـباً. هذه هى المرة الأخيرة للنظر جلياً إليها وجهاً لوجه، أن أتفحص ميول قلبى، محاولاً أن أفهم من تكون حقاً. وبعدها، اعرف أنى سأبدأ بإعادة تشكيلها من خلال ذخيرة من ذكريات على وفق رغباتى المشكوك فيها، ألمس خدها، أتناول يدهــا. عــند أطراف هذا التل المنحدر البارد جداً فى منتصف الصـــباح لا أقدر العثور فى داخلى على أى أثر من تلك الآثار الحســية المخــدرة الـــتى اعتادت على جذبى ليلة بعد ليلة إلى جسدها أو حتى مشاعر رفقة الطريق. هناك فراغ فقط وحزن بســـبب حتمية وجود مثل هذا الفراغ. عندما أشدد قبضتى على يدهـــا، لا أجـــد استجابة. أبصر فقط بوضوح تام ما أراه: فتاة ممتلـــئة الجسم بفم عريض وشعر ذى قصة على الجبين تتطلع مـــن فوق كتفى نحو السماء، غريبة، زائرة من مناطق غريبة فى طريقها الآن إلى بيتها بعد زيارة لا يمكن وصفها بالسعيدة. أقـــول، "مع السلامة". تقول، "مع السلامة". لا حياة فى صوتها اكثر من تلك التى فى صوتى. أبدأ النزول منحدراً، وفى الوقت الذى أصل فيه إلى السفح كانوا قد أخذوا العكازين منها وأخذوا يساعدونها فوق متن جواد صغير.

* * *

بقـــدر مـــا يكون المرء متأكداً، فإن الربيع قد أقبل، الهواء

عليل. الأطراف الخضراء لحشيش جديد بدأ يبرز هنا وهناك، هبات من طيور السمان تتطارد أمامنا. لو كنا قد غادرنا اليوم الواحـــات بـــدلاً من أسبوعين ماضيين لكنا قد سافرنا بصورة أســـرع ولـــم نكن قد خاطرنا بحياتنا. من جهة أخرى، هل كنا محظوظيـــن بما فيه الكفاية للعثور على البرابرة؟ أنا واثق من انهـــم فى هذا اليوم بالذات يطوون خيامهم، يحمّلون عرباتهم، يجمعون مواشيهم تحت تأثير السياط من أجل هجرة الربيع. لم أكـــن مخطئاً فى تحمل المخاطرة، على الرغم من معرفتى بأن الـــرجال يلومونـــنى. ("أن يجلبـــنا إلى هنا فى الشتاء" أتخيلهم يقولـــون. "كـــان علينا عدم الموافقة بتاتاً!" وما الذى يجب أن يفكـــروا به الآن بعد أن أدركوا أنهم لم يكونوا جزءاً من بعثة إلى البرابرة كما ألمحت ولكنهم وببساطة حماية لامرأة، سجينة بربـــرية كـــانت تـــركت خلفاً، مخلوق لا أهمية له، مومـــس القاضى؟)

نحـــاول إعادة تتبع أثر طريقنا القديم بالدقة الممكنة، اعتماداً على المعرفة بالنجوم. لقد كنت دقيقا فى تعيين مواقعها. الريح خلفنا، الجو أدفأ، أحمال الخيول أخف، نعرف المكان الذى نحن فيه، ليس هناك من سبب يحتم علينا عدم السفر بسرعة. ولكن عند استراحة الليلة الأولى تقع انتكاسة. أستدعى إلى موقع نار المخيـــم حيث يجلس أحد الجنود الشباب مهموماً واضعا رأسه بين يديه. كان قد خلع حذائيه، رباطى قدميه غير مشدودين.

يقول دليلنا، "انظر إلى قدميه، سيدى".

القـــدم اليمـــنى متورمة وملتهبة. اسأل الفتى، "ما الخطأ؟". يرفع قدمه ويرينى كعباً مغطى بقشرة متصلبة من دم وصديد. بل وحتى أشم رائحة تلوث فى رباط القدم وأتبين رائحة تعفن.

أصـــيح، "مـــنذ متى وقدمك على هذه الحالة؟" يخفى وجهه. "لمـــاذا لـــم تقل شيئاً؟ ألم أوصكم جميعاً بوجوب الحفاظ على أقدامكم نظيفة، وأن تغيروا جواربكم بين يوم وآخر وأن تقوموا بغسلها، ان تضعوا مرهماً على البثور وتربطوها؟ لقد أعطيت تـــلك التعـــليمات لســـبب مـــا! كيف يمكننا السفر وقدمك بهذا الوضع؟"

الفتى لا يجيب يهمس أحد رفاقه، "إنه لم يرد إعاقتنا".

أصـــيح، "انه لم يرد إعاقتنا ولكنه الآن فى حاجة إلى عربة لـــنقله طـــوال طريق العودة. اغلوا ماء، راقبوا قيامه بتنظيف قدمه ولفها بضماد!"

أنـــا عـــلى حـــق. فى اليوم التالى، عندما حاولوا مساعدته لارتـــداء حذائـــه طويـــل الرقبة، لم يستطع إخفاء ألمه. بقدمه المضـــمدة الموضـــوعة والمربوطة بكيس، لم يقدر على السير عرجاً فوق الأرض الممهدة ولكن كان عليه الامتطاء فى معظم مراحل الطريق.

سنكون جميعنا سعداء عند انتهاء هذه الرحلة. لقد سئمنا رفقة بعضنا لبعض.

فى اليوم الرابع نخترق قعر البحيرة الميتة ونتتبعها نحو الجنوب - الشرق عدة أميال قبل أن نصل بئرنا القديمة ومجموعة أشجار الحور اليابسة عندها. نرتاح هناك مدة يوم، لنستجمع قوانا للمرحلة الأصعب. نقلى زاداً من كعكة دهنية ونسلق آخر إناء مملوء من فاصوليا طعاماً للخيول.

ابقى منعزلاً. يتحدث الرجال بأصوات منخفضة وعندما أقترب منهم، يخيم الصمت عليهم. الإثارة المنبثقة من البعثة قد زالت برمتها، ليس فقط لأن ذروتها كانت مخيبة للآمال - هذر فى الصحراء سالكين الطريق نفسه - بل لأن حضور الفتاة كان قد استحث الرجال إلى عرض مظاهر الذكورة، فى منافسة أخوية أخذت تزول الآن متحولة إلى تهيج واكتئاب موجه طوعاً أو كرهاً ضدى لأخذى إياهم فى رحلة متهورة، ضد الخيول بسبب حرونتها، ضد رفيقهم صاحب القدم المتقيحة لإعاقته إياهم، ضد المعوقات التى عليهم تحملها، بل وحتى ضد أنفسهم. أضرب لهم مثلاً بمد فراشى الملفوف بالقرب من النار تحت النجوم مفضلاً برودة الهواء الطلق على الدفء الخانق لخيمة مع ثلاثة رجال ساخطين. فى الليلة التالية، اختار الجميع، دون تفكير طويل ترك الخيمة، ونمنا جميعاً خارجها.

مـــع حلول اليوم السابع نشق طريقناً عبر قفار ملحية. نفقد حصـــاناً آخـــر. الرجال منهكون من رتابة الفاصوليا والطحين المســمن، يســألون ذبحه للطعام، أوافق على طلبهم ولكننى لا أنضـــم إليهـــم. "سأمضى قدماً مع الخيول"، أقول لهم. لأدعهم يستمتعون بوليمتهم. دعنى لا أمنعهم من تخيل أنها رقبتى التى يقطعونها، وأحشائى التى يمزقونها، وعظامى التى يكسرونها. ربما سيكونون بعد ذلك أكثر مودة.

أتذكـــر بحـــنين الـــروتين المـــألوف لواجباتى، مع اقتراب الصـــيف، والقيلولات الطويلة الحالمة، محادثاتي مع الأصدقاء ســـاعة الغســـق تحـــت أشجار الجوز، وفتيان يجلبون الشاى وعصير الليمون المسكر والفتيات الجديرات بالإعجاب يتنزهن أمامنا فى الساحة اثنتين معاً أو ثلاث وهن بملابسهن الأنيقة. لم تمـــض غيـــر أيام فقط على مفارقتى الفتاة الأخرى، وأجد أن وجهها يتصلب أكثر فى ذاكرتي، يصبح كامداً غير نافذ، وكأنها تفرز محارة فرق نفسها. سائراً بتثاقل عبر المملح أنتبه لنفسى فى لحظة اندهاش كيف أننى تمكنت من حب واحدة من مملكة بعيدة جداً. كل ما أريده الآن هو أن أعيش بقية حياتى فى راحة واطمئنان فى عالم مألوف، أن أموت فى فراشى وأن أشيع إلى القبر من قبل أصدقائى القدامى.

* * *

من مسافة بعيدة تقارب عشرة أميال، نستطيع تمييز نتوءات أبراج المراقبة تواجه السماء، فى الوقت الذى ما زلنا فيه على الطريق الجنوبى للبحيرة فإن اللون الأصفر للجدران يعزلنا عن الخلفية الرمادية للصحراء. ألقى نظرة سريعة على الرجال من خلفى. إنهم أيضا يسارعون الخطى، يكادون غير قادرين على إخفاء انفعالهم. نحن لم نغتسل أو نغير ملابسنا منذ ثلاثة أسابيع، رائحتنا قذرة، بشرتنا جافة متغضنة بالسواد بفعل التعرض للريح والشمس، نحن مجهدون، ولكننا نسير كالرجال، حتى الفتى الذى يمشى الآن متثاقلاً على قدمه المضمدة وصدره يسبقه.

ربما، كان من الممكن أن يصبح الأمر أفضل، ولكن كان من الممكن أن يصبح أسوأ. حتى الخيول، التى انتفخت بطونها بحشائش المستنقعات، تبدو وكأنها عادت إلى الحياة.

براعم الربيع بدأت تظهر فى الحقول، الألحان الواهنة لبوق تصل أسماعنا، فريق الترحيب من راكبى الجياد يتقدمون عبر البوابة، الشمس تنعكس عن خوذهم. نبدو مثل فزاعات: كان الأمر سيبدو أفضل لو كنت أخبرت الرجال أن يرتدوا دروعهم فى هذه الأميال القليلة المتبقية. أرقب راكبى الجياد فى خببهم نحونا، متوقعا منهم فى أى لحظة التغيير إلى الغدر، أن يطلقوا بنادقهم فى الهواء وأن يصيحوا. ولكن سلوكهم يبقى نظاميا،

انهم ليسوا بفريق ترحيب على الإطلاق. أبدأ بالإدراك، ليس هناك أطفال يتراكضون خلفهم: ينقسمون قسمين ويحيطون بنا، لا يوجد بينهم وجه واحد أعرفه، أعينهم خالية من التعبير، لا يجيبون عن أسئلتى ولكنهم يسيرون بنا عائدين كسجناء عبر البوابة المفتوحة.

آخر الأمر حين نظهر للعيان فى الساحة ونرى الخيام ونسمع اللغط نفهم: أن الجيش هنا، الحملة الموعودة ضد البرابرة تمضى فى التقدم.

* * *

٤

يجلس رجل إلى منضدتى فى المكتب خلف قاعة المحكمة. لـــم أره من قبل مطلقاً ولكن علامة على سترته الأرجوانية – الزرقاء تقول لى انه ينتمى إلى المكتب الثالث للحرس المدنى. كميـــة مـــن الملفات البنية مرزومة بأشرطة وردية تستقر عند مرفقه، أحدها مفتوح أمامه. أتعرف على الملفات: انها تتضمن تقارير عن الضرائب والجباية، تعود إلى ما قبل خمسين عاماً. أيقـــدر هو حقاً على القيام بتدقيقها؟ ما الذى يبحث عنه؟ أتكلم: "هل هناك من أمر ما أستطيع مساعدتك فيه؟"

يتجاهلنى هو والجنديان المتصلبان اللذان يقومان بحراستى، يـــبدو كأنهما مصنوعان من خشب. لا أتذمر البتة. لا يمكن أن يعـــد وقـــوفى مهملاً، بعد أسابيعى فى الصحراء، أمراً صعباً. إضـــافة، أتحســـس رائحـــة خفيفة لبهجة بسبب التوقع ان تلك الصداقة الزائفة بينى وبين المكتب الثالث قد تصل إلى نهاية.

أقـــول، "أيمكنـــنى الـــتحدث إلى العميد جول؟" إطلاقة فى الظلام: من سيقول إن جول قد عاد؟

إنـــه لا يجيـــب، يواصل تظاهره بقراءة الوثائق. إنه رجل وســـيم، ذو أســـنان بيضاء متناسقة وعينين زرقاوين جميلتين.

أعـــتقد أنه فارغ. أتصوره جالساً فى سرير بجوار فتاة، ممرناً عضـــلاته لها يقتات على إعجابها. ذلك النوع من الرجال الذى يسير جسده مثل ماكينة. أتخيله جاهلاً أن له إيقاعاته الخاصية له. عندما سيتطلع إلى، كما سيفعل فى خلال لحظة، سينظر من خــلف ذلــك الوجــه الوســيم الثابت ومن خلال تلكما العينين الصافيتين، كما ينظر ممثل من خلف قناع.

يــرفع بصـــره عن الورقة. الأمر تماما كما توقعت. يقول، "أين كنت؟"

"كنت مسافراً فى رحلة طويلة. يؤلمنى أننى لم أكن هنا عند قدومـــك لتقديم واجبات الضيافة لك. ولكن الآن وبعد عودتى، فكل ما يعود لى هو لك".

علامـــته تقول إنه ضابط صف. ضابط صف. فى المكتب الــثالث: ما الذى يعنى ذلك؟ فى ظنى، خمسة أعوام من ركل الـــناس وضـــربهم، الاحـــتقار للشرطى النظامى وللإجراءات القانونية المطلوبة، للكلام النبيلِ الناعم الذى يشبه كلامى. ولكن ربما أظلمه أنا – لقد كنت بعيداً عن العاصمة مدة طويلة.

يقـــول، "لقد كنت تقوم بمفاوضات تنطوى على الخيانة مع العدو".

لقـــد اتضـــح الأمر إذن. "مفاوضات تنطوى على الخيانة":

عــبارة مأخوذة من كتاب. أقول، "نحن فى سلام هنا، لا أعداء لــنا. "صمت هناك. أقول، "ما لم أكن مخطئاً. ما لم نكن نحن الأعداء".

لســت واثقــاً من أنه يفهمنى. يقول، "السكان المحليون فى حرب معنا".

أشك فى أنه قد تطلع يوماً إلى بربرى فى حياته. "لماذا كنت تتفاوض معهم؟ من سمح لك بمغادرة موقعك؟"

لا أبــالى بالاستفزاز. أقول، "إنها مسألة شخصية، عليك أن تــثق بكلامى حول الأمر. لا أنوى مناقشته، فيما عدا القول إن قاضـــى المقاطعـــة ليس بموقع يمكن أن يتخلى عنه مثل موقع بواب".

هــناك حيوية فى مشيتى بينما أقاد بين حارسى إلى السجن. أقول، "آمل أن تسمحا لى بالاغتسال". ولكنهما يتجاهلاننى. لا بأس.

أنا مدرك لمصدر زهوى: تحالفى مع حراس الإمبراطورية قــد انـــتهى فقد وضعت نفسى فى المعارضة، القيد انكسر. أنا رجــل ســعيد، مــن ذا الذى لا يبتسم؟ ولكن ما أخطرها من فرصـــة! الحصول على الخلاص يجب ان لا يكون سهلا جدا. وهل هناك مبدأ ما خلف معارضتى؟ ألم أستثر أنا ببساطة إلى

ردة فعـل لمشــهد أحد البرابرة الجدد وهو يغتصب منضدتى وينبش فى أوراقى؟ فيما يتعلق بهذه الحرية التى أنا فى الطريق لطرحها جانبا، أى قيم تعنيها بالنسبة لى؟ هل أنا قد تمتعت حقا بالحرية المطلقة لهذا العام المنصرم الذى كانت فيه حياتى اكثر مــن أى وقــت مضـــى يخصنى تشكيلها أثناء احتجازى لها؟ أضرب مثلا: حريتى فى أن أجعل من الفتاة أى شىء اعتقدت أنه يعجبنى، زوجة أو محظية أو ابنة أو عبدة كلها مرة واحدة أو لا شـــىء، فى نزوة، ذلك لأننى لم ألتزم بأى واجب تجاهها مــا عدا ما خطر ببالى أن أتحسسه من لحظة إلى لحظة: من اضطهاد لحرية مثل هذه من ذا الذى لا يرحب بحرية السجن؟ لا شـــىء بطولى فى معارضتى - دعونى لا أنسى ذلك لحظة واحدة.

إنها الغرفة نفسها فى الثكنات التي استخدموها لتحقيقاتهم فى العــام الماضـــى. أقــف جانباً بينماً تسحب بسط الجنود الذين يـــنامون ومرتباتهم هنا إلى الخارج وتكوم عند الباب. رجالى الــثلاثة ما زالوا قذرين بملابسهم الرثة، يخرجون من المطبخ للتحديق. أصيح، "ما هذا الذى تأكلونه؟ اجلبوا لى شيئاً منه قبل أن يســجنونى!" يأتيـــنى أحدهـــم مهرولاً بإناء فيه حصته من عصـــيدة الدخـــن الســـاخنة، يقول، "خذه". يومئ لى الحراس بـــالدخول. أقـــول، "لحظـــة واحدة فقط، دعهم يجلبون لى لفة فراشـــى، ولـــن أزعجكم بعدها ثانية". ينتظرون بينما أقف فى

بقعـــة مشمســـة أغـــترف العصيدة كرجل مشرف على الموت جوعـــاً. الفتى ذو القدم الملتهبة يقف مبتسماً بالقرب من مرفقى ومعـــه طاسة من الشاى. أقول، "شكراً ولا تقلقوا، لن يؤذوكم، كنـــتم تنفذون ما أمرتم به لا غير". مع لفة فراشى وفراء الدب القديـــم تحت ذراعى أدخل زنزانتى. علامات السخام ما تزال عـــلى الجدار حيث كانت المجمرة توضع. ينغلق الباب ويسقط ظلام.

أنـــام طيلة النهار والليل، نادراً ما أزعج من ضربات فأس خـــلف الجـــدار عـــند رأسى أو من أصوات كركبة عربات يد ونـــداءات عمـــال. فى أحلامى، أنا فى الصحراء ثانية، أسير متـــثاقلاً عـــبر مساحات لا نهاية لها نحو هدف مجهول. أتنهد وأبـــلل شـــفتى. أســـأل حينما يجلب الحارس طعامى، "ما هذا الصوت؟" يقول لى، إنهم يهدمون البيوت التى بنيت فى مواجهة الجـــدار الجـــنوبى للثكنات، وهم عازمون على توسيع الثكنات وبناء زنزانات مناسبة. أقول، "آه، نعم، إنه أوان ازدهار الوردة السوداء للحضارة". لا يفهم.

لا نافذة فى المكان، مجرد فتحة فى أعلى الجدار. ولكن بعد يوم أو يومين بدأت عيناى فى التكيف مع العتمة. يتوجب علىٍ أن أحـــمى عيـــنى مـــن النوم عندما ينفتح الباب وأطعم صبحاً ومساءً. الصباح المبكر هو الساعة الأفضل، عندما أستيقظ من

النوم وأستلقى مصغياً إلى أول تغريد لعصفور، مراقباً فتحة الضباب الرقيق فى اللحظة التى تستسلم فيها الظلمة للضياء الأول الأبيض- الرمادى.

أطعم أنا من حصة أرزاق الجنود الاعتياديين نفسها. تغلق بوابة الثكنات ساعة من الزمن، ويسمح لى فى خلالها بالخروج للاغتسال والتريض. هناك على الدوام وجوه منضغطة على قضبان البوابة، تتفرج على مشهد سقوط من كان فى يوم ما عظيماً. أتعرف على الكثير منها، ولكن لا أحد يسلم على.

فى الليل، عندما يهدأ كل شيء، تخرج الصراصير للاستكشاف. أسمع أو ربما أتخيل، الطقطقة الخشنة لأجنحتها، عدو أقدامها عبر الأرضية المرصوفة، تغويها رائحة الدلو فى الزاوية، كسر الطعام على الأرض، وبلا شك جبل اللحم الذى تفوح منه روائح متنوعة للحياة والتفسخ. وأصحو ذات ليلة على خطوات فى خفة ريشة لواحد منها يعبر بلعومى. بعد ذلك اليوم، أصحو مرتجاً خلال الليل، منتفضاً بقوة، نافضاً منظفاً نفسى، متحسساً وهم سبر مجساتها على شفتى، على عينى. لقد حذرت: من مثل هذه البدايات تنمو الوساوس.

أحدق طوال النهار فى الجدران الخالية، غير قادر أن أصدق أن طبعات كل الآلام والمهانة التى تحويها لن تتجسد يوماً تحت نظرة مركزة تماماً، أو اننى اغلق عينى محاولاً أن

أضـــبط حاسة سمعى إلى تلك الدرجة اللامتناهية من الضعف، التى لابد أن عندها تواصل صرخات من تعذبوا هنا، دوما من جدار إلى جدار. أتمنى مجيء اليوم الذى فيه تهدم هذه الجدران وتقدر آنذاك الترددات المضطربة أن تحلق أخيرا، على الرغم مـــن صعوبة تجاهل صرت أجرة توضع فوق أجرة أخرى فى الجوار.

أتطـــلع بـــتوق لرياضة الصباح، عندما أتمكن من تحسس الريح على وجهى والأرض تحت أخمص قدمى، أرى وجوهاً أخـــرى وأســـمع حديـــث البشر، بعد يومين من الوحدة، تحس شـــفتاى بـــرخاوتهما وبعـــدم فائدتهما، ويبدو كلامى أنا غريباً بالنســـبة لى. حقاً إن الإنسان لم يخلق كى يعيش وحيدا. أعزز يومى بشكل غير معقول على مدار الساعات حول الوقت الذى أطعـــم فيـــه. ألتهم طعامى مثل كلب. حياة بهيمية تحولنى إلى بهيمة.

وعـــلى الـــرغم من ذلك فإننى فى الأيام الخالية فقط عندما أنصب كليًّا على نفسى وفيها أنصرف جدياً باستحضار أرواح وقعت فى الشرك بين هذه الجدران لرجال ونساء لم يعودوا بعد زيـــارة واحدة لهذا المكان يحسون بأنهم راغبون فى الحمل أو قادرون على السير درن مساعدة من أحد.

هناك باستمرار فى مكان ما، طفل يضرب. أفكر فى واحدة

كانت على الرغم من عمرها ما تزال طفلة، التى جلبت إلى هنا وأوذيت أمام عينى والدها، الذى راقبته وهو يهان أمامها، وأدركت أنه قد علم بما رأته هى.

أو ربما أنها فى ذلك الوقت لم تعد قادرة على الإبصار، وكان عليها الإدراك بوسائل أخرى: النبرة التى ظهرت فى صوته عندما توسل إليهم أن يتوقفوا لحظة واحدة.

أجد فى نفسى على الدوام هذه اللحظة من الانكماش من تفاصيل ما جرى هنا.

بعد ذلك لم يعد لها أب. والدها كان قد أفنى نفسه، كان رجلاً ميتاً. لابد أن الأمر قد حدث فى هذه المرحلة، حينما أغلقت نفسها عنه، لأنه رمى نفسه على مستجوبه، إن تضمنت قصتها شيئاً من الحقيقة، وهجم عليهم بأصابعه مخمشاً مثل حيوان جامح حتى أسقط أرضاً ضرباً بالهراوات.

أغلق عينى عدة ساعات بلا انقطاع، جالسا فى وسط أرضية الزنزانة، فى الضياء الباهت للنهار، أحاول أن أستحضر صورة ذلك الرجل الذى يذكر بالكثير من السوء. كل ما أراه شكل يسمى أب قد يكون شكل أى أب يعرف أن طفلة تتعرض للضرب ولا يقدر هو على حمايتها. لا يستطيع أن يفى بواجبه تجاه من يحب. يعرف أنه من أجل هذا لن يغفر له أبداً. هذه المعرفة بخصوص الآباء، هذه المعرفة بخصوص الإدانة، هى

أكــبر مــن أن يقــدر على تحمله. فلا عجب ان رغب فى أن يموت.

مــنحت الفــتاة حمايتى، مبدياً بطريقتى المراوغة أن أكون والدها. ولكننى جئت بعد فوات الأوان. بعد أن كانت قد توقفت عــن الإيمان بالآباء. أردت أن أفعل ما كان صواباً. أردت أن أحقق تعويضاً: لن أنكر هذا الدافع الكريم، كيفما امتزج بدوافع مشــكوك فيهــا أكثر: يجب أن يكون هناك على الدوام فرصة مناســبة للكفارة والتعويض، مهما يكن، كان على ألا أسمح قط لــبوابات البلدة أن تفتح لأناس ممن زعموا أن هناك اعتبارات أرفــع مــن تلك التى تتعلق بآداب السلوك. لقد عرضوا والدها أمامهــا عاريــاً وجعلوه يهذر ألماً: لقد كمموهاولم يستطع هو إيقــافهم (فى يوم أمضيته مشغولاً بدفتر الحسابات فى مكتبى) بعــد ذلــك لم تعد إنسانا كاملا، أختا لكل واحد منا. مشاركات وجدانية معينة ماتت. نزعات معينة للقلب لم تعد ممكنة بالنسبة لها. أنا أيضاً، إن عشت زمناً طويلاً كافياً فى تلك الزنزانة مع أشباحها ليس فقط للأب وللابنة ولكن للرجل الذى لا يرفع عن عينيه القرصين الأسودين حتى فى ضوء مصباح والتابع الذى كــان عمله أن يغذى الموقد باستمرار، سأكون متأثراً بالعدوى ومتحولاً إلى مخلوق لا يؤمن بشىء.

وهكــذا أستمر فى الانقضاض والدوران حول شخص الفتاة المــتعذر تحويله إلى وضع سرى، أرمى شبكة من معان فوق

أخـــرى. إنها تتوكأ على عكازيها تتطلع نحو الأعلى فى نظرة كليـــلة. مـــا الذى تراه؟ الجناحان الحافظان لطائر القطرس(*) الحـــارس أو الشكل الأسود لغراب جبان يخاف أن يهاجم بينما ضحيته ما تزال تتنفس.

* * *

عـــلى الرغم من أن لدى الحراس أوامر بعدم الدخول معى فى مناقشات، فليس من الصعب أن أخيط أجزاء إلى بعضها فى قصـــة متماســـكة مـــن نتف أحاديث أسمعها عند خروجى إلى الساحة. كل الأحاديث الأخيرة هى عن حريق على طول ضفة الـــنهر. قبل خمسة أيام، كان الحريق مجرد لطخة سوداء تجاه الضباب فى الشمال الشرقى. وهو بعد ذلك الوقت كان قد التهم كل ما فى طريقه منحدرا ببطء مع مجرى النهر، متلاشيا أحيانا ولكنه منتعش باستمرار، وهو يرى الآن بوضوح من البلدة مثل كفن بنى فوق الدلتا حيث ينضم النهر إلى البحيرة.

أســـتطيع أن أخمـــن الذى حدث. أحد ما قد قرر أن ضفاف الـــنهر تمـــنح غطاء واقياً أكثر مما ينبغى للبرابرة، وأن النهر يشـــكل خطـــاً دفاعيـــاً أقوى ان أخليت جوانبه. وهكذا أشعلوا النيران فى الدغل. وبمساعدة الريح الهابة من الشمال، انتشرت

(*) القطرس : طائر بحرى كبير

النيران عبر الوادى المنخفض الضحل بأكمله. لقد رأيت من قبل حرائق عاصفة. تتسابق النيران فى خلال القصب، تتأجج أشجار الحور كالمشاغل، تهرب الحيوانات التى تمتلك سرعة مناسبة – وعول، أرانب برية، قطط، أسراب من طيور تطير فى فزع، وكل شيء عدا ما ذكرت يفنى. الأ ان هناك مساحات كثيرة جداً، من إمدادات قاحلة على طول النهر نادراً ما تنتشر فيها النيران. فمن الواضح فى هذه الحالة إذن أنه لا بد من جماعة تقوم بمتابعة الحريق على النهر وتراقب ضرورة تطوره. وهم لا يبالون من أن الأرض متى ما أصبحت جرداء كل يوم فإن الريح تبدأ بقرض التربة وتتقدم الصحراء إلى الأمام وهكذا تستعد قوات البعثة لمحاربة البرابرة، ومن أجل حملتها، تخريب الأرض، تبديد الميراث.

* * *

الأرفف قد أخليت، نظفت وجليت. يشع سطح المكتب بطلاء عميق، أجرد إلا من طبق لكرات زجاجية بمختلف الألوان. الغرفة نظيفة للغاية. على المنضدة فى الزاوية وضعت مزهرية فيها زهور الخبازى تملأ الهواء بالعطر. هناك سجادة جديدة على الأرض. لم يبد مكتبى أبداً أكثر جاذبية.

أقف بجوار حارسى، بالملابس نفسها التى سافرت بها. غسلت ملابسى الداخلية مرة أو مرتين الا أن سترتى ما تزال

تفـــوح بـــرائحة دخـــان الخشب، منتظراً. أراقب تلاعب أشعة الشمس عبر براعم اللوز خارج النافذة، وأنا قانع.

يدخل بعد مدة طويلة، يلقى بحزمة من أوراق على الطاولة، ثـــم يجلس. يحدق فيّ دون أن يتكلم. وهو يحاول مع شيء من الأداء المسرحى المبالغ فيه، أن يترك لدى انطباعاً معيناً. إعادة التـــنظيم المعتـــنى بـــه لمكتبى من أشياء كانت مركومة عليه وتنظيفه من الغبار إلى هذه الدرجة من النظافة المتبطلة، مشية الاختيال البطيئة التى يقطع بها الغرفة، الوقاحة المدروسة التى يعاينـــنى بها، مقصودة كلها لتقول شيئاً، ليس فقط إنه المسؤول الآن (كيف يمكننى تفنيد ذلك؟) ولكنه إلى حد كبير يعرف كيف يتصرف فى مكتب، يعرف حتى كيف يقدم ملاحظة بخصوص فعاليـــة رائعـــة. لماذا يجدنى مستحقا عنا، هذا العرض؟ لأننى على الرغم من ملابسى النتنة ولحيتى الغليظة، ما زلت أنتمى إلى فصـــيلة متمرسة كيفما اضمحلت بوضاعة حتى العدم هنا خلف الآخرة؟ هل يخشى اننى سأستهزئ به ما لم يحصن نفسه بزخارف داخلية انتقاها، دون شك، عن ملاحظة متأملة لمكاتب مـــن هم أعلى منه درجة فى المكتب الثالث؟ وهو لن يصدقنى إن قلت له إن الأمر لا يهم. يجب أن أكون حذراً كى لا أبتسم.

ينظف حنجرته. يقول، "سأقرأ عليك الشهادات الخطية التى قمنا بجمعها، أيها القاضى، كى تتكون عندك فكرة عن خطورة

التهم الموجهة إليك". يشير بيده ويغادر الحرس الغرفة.

"مــن الأولى: ســلوكه فى المكتب تخلى عن كثير مما هو مطلوب. أحكامه اتسمت بالاعتباطية، كان على طالبى الالتماس عــند بعــض الحالات الانتظار أشهراً من أجل الاستماع إلى الحجــج، وهــو لم يمسك نظام حسابات قانونى للمال". يضع الورقــة على الطاولة. "قد أشير إلى أن معاينة لحساباتك أكدت على عدم قانونيتها". "على الرغم من كونه موظفاً إداريا رئيساً لهذه المقاطعة، فإنه أنشأ علاقة غرامية مع مومس استولت على معظــم طاقته وأدى ذلك إلى الإضرار بواجباته الرسمية. كان للعلاقة تأثير محبط على هيبة الإدارة الإمبراطورية لأن المرأة المعــنية كــانت قــد أقامت علاقات مع جنود عاديين وكانت موضوعاً للعديد من القصص الداعرة". لن أعيد تلك القصص.

"دعــنى أقــرأ عليك تلك من الشهادة الثانية". فى الأول من آذار، قــبل أســبوعين مــن وصول البعثة، أعطى أوامر لى ولجــنديين آخــرين (ذكــرت أسماؤهم) للاستعداد فوراً لرحلة طويــلة. وهــو لم يقل فى ذلك الوقت إلى أين كنا ذاهبين. لقد أصابتنا الدهشة عندما اكتشفنا أن الفتاة البربرية ستكون مسافرة معنا. ولكننا لم نطرح أسئلة. لقد دهشنا أيضاً للسرعة التى تمت فيها الاستعدادات. لم نفهم لماذا لا يتوجب علينا الانتظار حتى ذوبان الثلوج فى الربيع. لم نفهم إلا بعد عودتنا أن غرضه كان

تحذيـــر البرابرة من الحملة القادمة... لقد أجرينا اتصالات مع الـــبرابرة وبالـــتحديد فى الـــثامن عشـــر من آذار. كانت لديه مـــداولات مطولة معهم، والتى أبعدنا عنها. كما تم تبادل هدايا أيضاً. لقد تناقشنا فى هذا الوقت فيما بيننا عن ما يمكننا أن نقوم بـــه إن أمرنا أن نذهب إلى حيث البرابرة. وقررنا أننا سنقوم بـــرفض عرضه ونجد طريقنا نحو الوطن... عادت الفتاة إلى أهلها. كان مسلوب العقل من قبلها، ولكنها لم تأبه به".

"وهكـــذا". يضـــع الأوراق عـــلى الطاولة بعناية ويساوى زواياهـــا. الـــتزم الصـــمت. "قرأت مقتطفات فقط. كى يكون بإمكـــانك فهـــم أبعـــاد الأمور. يبدو الأمر سيئاً عندما نضطر للتدخل وتطهير الإدارة المحلية، والأمر حتى ليس واجباً".

"سأدافع عن نفسى فى محكمة قانونية".

"وهل ستفعل؟"

لســـت مندهشـــاً مـــا يفعـــلون. أنـــا أعرت جيداً وزن تلك المؤسســـات والفروقات الضئيلةٍ فى المعنى التى يمكن اللجوء إليها كى تقبل، أو كيف أن سؤالاً يمكن أن يطرح بطريقة معينة كى تملى على الشخص الجواب عنه. سيستغلون القانون ضدى إلى أبعـــد مدى يخدمهم. ثم سيستديرون إلى طرق أخرى. ذلك هو أسلوب المكتب الثالث. بالنسبة لأشخاص لا يعملون فى ظل نظـــام أساسى، تعتبر الإجراءات القانونية ببساطة أداة من بين أدوات كثيرة.

أتحـــدث، "لن يجرؤ أحد على التفوه فيٍ تلك الأمور أمامى. من المسؤول عن الشهادة الأولى؟" يهزّ يداً ويستند إلى الخلف. "لا بأس. ستنال فرصتك للإجابة".

وهكـــذا يتأمل واحدنا الآخر فى سكون الصباح، حتى يحين الوقت المناسب له كى يصفق بيديه للحراس كى يبعدونى.

أفكــــر فيه كثيراً فى وحدة زنزانتى، محاولاً أن أفهم حقده، محـــاولاً أن أرى نفسى كما هو يرانى. أفكر فى الاهتمام الذى أبـــداه تجاه مكتبى. إنه ببساطة لم يجمع أوراقى فى زاوية ولم يضع حذاءه فوق طاولتى، ولكنه عوضاً عن ذلك يتحمل عناء اســـتعراض مفهومه للذوق السليم. لماذا؟ رجل ذو خصر فتى وعضـــلات مقاتــــلى شـــوارع محشو فى الزى الأرجوانى – الأزرق الذى ابتدعه المكتب الثالث لنفسه. فارغ، جائع للمديح، أنا واثق من ذلك. مفترس نساء، غير راض، غير مرض. هو الذى قيل له إن امرءاً ما لا يستطيع الوصول إلى القمة إلا عن طـــريق تسلق هرم من الأجساد. هو الذى يحلم من أنه فى يوم مـــن هـــذه الأيام سيضع قدمه على رقبتى ويكبس. وأنا؟ أجد الأمـــر صعباً أن أكرهه فى المقابل. الطريق إلى القمة لابد أن يكـــون صـــعبا لـــرجال شباب بلا مال، بلا وساطة، مع تعليم ضـــئيل، رجـــال يدخـــلون عالم الجريمة بالسهولة نفسها التى ينضمون فيها إلى خدمة الإمبراطورية (ولكن أى شعبة أفضل

للخدمة يمكن أن يختاروها أفضل من المكتب الثالث!).

ومع ذلك، أنا غير مقبلٍ على تحمل ذلّ السجن. أحياناً، جالساً على حصيرتى متفرساً فى ثلاث بقع على الجدار. أجد نفسى تتساق للمرة الألف تجاه الأسئلة، لماذا هى فى صف واحد؟ من وضعها هناك؟ هل هى تشير لشىء ما؟، أو أجدنى وأنا أذرع المكان أعد واحد – اثنين – ثلاثة – أربعة – خمسة – ستة – واحد– اثنين– ثلاثة...، أو أحك وجهى بلا تفكيرٍ بيدى، أدرك كيف سمحت لهم أن يجعلوا عالمى صغيراً جداً، إلى أى مدى أصبح يوماً بعد يوم أكثر شبيهاً بالبهيمة أو ماكينة بسيطة، عجلة دوارة لطفل، على سبيل المثال، مع ثمانية شخوص ضئيلة يقدمون أنفسهم على الإطار: أب، عاشق، فارس، سارق... ثم أستجيب بحركات فزع دوارة أندفع فى خلالها حول الزنزانة راجّاً يديٍ هنا وهناك، ناتفاً لحيتى، أضرب الأرض بشدة بقدمى. فاعلاً أى شيء لمباغتة نفسى، لتذكير نفسى بعالم فى الخلف، يتصف بالتنوع وبالوفرة.

هناك أيضاً أشكال أخرى من الذلّ. التماسى من أجل الحصول على ملابس نظيفة تم تجاهله. لا أمتلك شيئاً أرتديه غير ما جلبته معى. فى كل يوم تريضٍ، تحت بصر الحارس، أغسل قطعة واحدة، قميصاً أو زوجاً من السراويل الداخلية، برماد وماء بارد، وأعيدها إلى زنزانتى كى تجف (القميص

لذى تركته فى الساحة ليجف اختفى بعد يومين). فى خياشيمى على الدوام رائحة ملابس لم تر الشمس.

وأسوأ. تحت ظل النظام السائد الممل للحساء والعصيدة والشاى، أصبح أمر إطلاق أمعائى يسبب لى ألماً مبرحاً - أتردد عدة أيام حاساً بالتصلب والانتفاخ قبل أن أقدر على حمل نفسى على الجلوس مقرفصاً على الدلو وتحمل طعنات الألم، تمزق الأغشية التى تصاحب مثل هذا النوع من الإفراغ.

لا أحد يضربنى، لا أحد يجوعنى، لا أحد يبصق على. كيف أعد نفسى ضحية الاضطهاد فى حين

أن معاناتى خفيفة هكذا. ومع ذلك فإنهم جميعاً أكثر انحطاطاً بسبب تفاهتهم. أتذكر مبتسماً عندما أغلق الباب خلفى فى المرة الأولى ودار المفتاح فى القفل، بدا الأمر ليس بعقوبة كبيرة فى الانتقال من عزلة الوجود اليومى إلى عزلة زنزانة فى حين أن بإمكانى أن أحمل معى عالماً من الأفكار والذكريات. ولكننى الآن أبدأ فى إدراك كم بدائية هي الحرية. أى حرية قد تركت لى؟ حرية أن آكل أو أموت جوعاً، أن أحتفظ بصمتى أو أثرثر لنفسى أو أضرب على الباب أو أصرخ. إن كنت الهدف لظلم، ظلم طفيف، عندما أغلقوا الباب على هنا، فإننى الآن لست أكثر من كومة غير سعيدة من دماء وعظام، ولهم.

طعام عشائى يجلب من قبل الحفيد الصغير للطباخة. أنا

واثق من أن الأمر يحيره إن القاضى القديم قد سجن وحده فى غرفة مظلمة، ولكنه لا يطرح أى سؤال. يدخل منتصب القامة ومحـــترماً نفســـه، حاملا الصينية، بينما الحارس يمسك الباب مفـــتوحا. أقـــول، "شكراً، أنا سعيد لقدومك. كنت بدأت أحس بجوع شديد..." أريح يدى على كتفه، املأ الفراغ بيننا بكلمات إنســـانية، بيـــنما ينتظر برصانة إجابتى كى أتذوق وأستحسن. "وكيف حال جدتك اليوم؟"

"إنها بخير، سيدى".

"والكـــلب؟ هـــل الكـــلب قد عاد الآن؟ (من الجهة الأخرى للساحة يصل نداء جدته).

"لا، سيدى".

"أنـــت تعـــرف، إنه الربيع، موسم المزاوجة. تذهب الكلاب لـــزيارات، تـــبقى مدة من الوقت، ثم تعود إلى أماكنها دون أن تقول أين كانت. عليك ألا تقلق، سيعود".

"نعم، سيدى".

أتـــذوق الحساء، كما يريدنى أن أفعل وأتلمظ بشفتى. "أقول لجدتك، شكراً على العشاء، إنه لذيذ".

"نعـــم، سيدى. "النداء ثانية: يرفع عن الأرض قدح الصباح وإنائه ويستعد للمغادرة.

"قل لى أيضا: هل الجنود قد عادوا الآن؟" أسأله بسرعة.

"لا سيدى".

أبـقى الباب مفتوحاً وأقف فى مدخل الباب أصغى إلى آخر زقزقات العصافير فى الأشجار تحت السماء البنفسجية الواسعة بينما يعبر الغلام الساحة بصينيته. لا أملك شيئا كى أعطيه ولا حتى برعماً. بل إننى لا أملك وقتاً كى أريه كيف يجعل مفاصله تطقطق أو كيف يمسك أنفه بقبضته.

إنـنى أنسـى الفـتاة، منجرفاً نحو النوم، تخطر على بالى بوضوح باهت، ذلك أن يوماً بأكمله قد مر دون أن أفكر بها فى خلالـه. الأسـوأ، أنـنى لا أقدر أن أتذكر، بالتأكيد كيف تبدو تقريـباً. مـن عيـنيها الفارغتين، كان يبدو باستمرار ما يشبه ضبابًا ينتشر، فراغًا يستبد بأجمعها. أتفرس فى الظلمة منتظراً تشـكل صورة ما، ولكن الذكرى الوحيدة التى أسكن إليها كلياً هى يـداى المزيتتان تنزلقان على ركبتيها، على ربلة ساقيها، كاحـليها. أحـاول أن أتذكـر اتصالاتنا الحميمة القليلة ولكنى أشوشها بذكريات كل الأجساد الدافئة الأخرى التى غمدت نفسى فيها عبر مسيرة حياتى بأكملها. إننى أنساها، وأنساها، أعرف أنـا، عـامداً. ليس من تلك اللحظة التى وقفت فيها أمامها عند بوابـة الثكـنات وانتقيتها كنت قد عرفت جوهر حاجتى إليها، والآن أنا مشغول بانتظام فى دفنها فى النسيان. يدان تعوزهما

العاطفة، قلب ميت: أتذكر المثل السائر: أضع راحتى إلى خدى. أتنهد فى الظلام.

فى الحلم هناك شىء ما يركع فى ظل جدار. الساحة خالية تماماً، الريح تسوق الغبار نحو الغيوم، تربض خلف ياقة معطفها، تسحب قبعتها نحو الأسفل لتخفى سكينيها.

أقف مشرفاً عليها. أقول، "أى مكان يؤلمك؟" أحس بالكلمات تتشكل فى فمى، ثم أسمعها تنبعث واهية، بشكل غير عادى، مثل كلمات نطقت من قبل شخص آخر.

تقدم ساقيها نحو الأمام فى ارتباك وتلمس كاحليها. إنها صغيرة الجسم إلى حد كبير بحيث إنها تكاد تضيع فى معطف الرجل الذى ترتديه. أجلس، أفك شريط الجوارب الصوفية، أحل الأربطة. تتمدد القدمان أمامى فى التراب، طليقتين، فظيعتين، سمكتين جانحتين، حبتى بطاطا كبيرتين.

أرفع إحداهما إلى حضنى وأبدأ فى تفريكها. تسيل الدموع من خلف جفنيها، منهمرة على خديها، "إنها ملتهبة!" تنوح بصوت واه. أقول، "إننى سأدفئك" أرفع القدم الأخرى وأحتضن الاثنتين معاً. تسكب الريح غباراً فوقنا، حبيبات رملية خشنة على أسنانى. الليل ساكن، القمر أسود. أستلقى مدة من الزمن محدقا فى الظلمة، ثم أنسل عائدا إلى الحلم.

أدخـــل قـــوس بوابة الثكنات وأواجه ساحة لا نهاية لها كأنها صحراء. لا أمل هناك للوصول إلى الجانب الآخر، ولكننى أسير بتـــثاقل، أحمـــل الفتاة، المفتاح الوحيد الذى أملكه للمتاهة، يتدلى رأسها على كتفى، قدماها الميتتان تتدليان فى الجهة الثانية.

هناك أحلام أخرى يتغير فيها، شكل ما أسميه الفتاة، حجماً، جســـماً، هيئة: فى واحد من الأحلام هناك هيئتان تثيران الفزع فى: كبيرتان وفارغتان، تكبران وتكبران حتى تملأ كل المكان الذى أنام فيه. أصحو مختنقاً، صارخاً، حنجرتى منتفخة.

إن نسيج الأيام، من جهة أخرى، ممل مثل عصيدة. لم يحتك أنفى قط من قبل بالأمور اليومية.

إلى هـــذا الحـــد الذى يحدث الآن. تلفق الأحداث فى العالم الخـــارجى، الأبعـــاد المعـــنوية لقضيتى، إن يكن الأمر كذلك، قضـــية، بـــل حتى احتمالات الدفاع عن نفسى فى المحكمة فقد فقـــدت عنصر التشويق، تحت ضغط الشهية والوظائف البدنية، وضـــجر العيـــش ســـاعة بعد أخرى. لقد تعرضت لبرد، كل وجـــودى منشـــغل فى التنشـــق والعطس، إنه لبؤس أن تكون ببساطة جسداً يحسّ بنفسه معتلاً ويريد استعادة صحته.

* * *

فى أصـــيل يـــوم، الأصوات الضعيفة غير المتناسقة لكشط

وصلصلة مسحاة عمال بناء الآجر لتسوية الجانب الآخر من الجدار تتوقف فجأة. مستلق فوق حصيرتى، أرهف السمع: هناك فى الجو دوى فى البعد، باهت و ذو خاصية مثيرة بالنسبة إلى سكون ساعة الأصيل الذى يخذل فى تبذير نفسه إلى أصوات مميزة ولكنه يتركنى متوتراً وقلقاً. أهى عاصفة؟ على الرغم من أننى أضغط بأذنى على الباب فإننى لا أستطيع أن أميز شيئاً. ساحة الثكنات خالية.

يعاود عمال بناء الآجر خشخشاتهم.

قرابة المساء يفتح الباب ويدخل صديقى الصغير بعشائى. أستطيع أن أدرك أنه يكاد يتفجر لإخبارى بشيء ما، ولكن الحارس يدخل معه ويقف ويده على كتفه. ولهذا فإن عينيه وحدهما تتكلمان معى: متوقدتان بالانفعال، باستطاعتى أن أقسم انهما تقولان إن الجنود قد عادوا. فى تلك الحالة لماذا لا ينفخون فى الأبواق ولا يطلقون صيحات التهليل؟ لماذا لا تجتاز الخيول الساحة الكبيرة خبباً، لماذا لا تعلو أصوات الاستعدادات للوليمة؟ لماذا يقبض الحارس على الولد بشدة إلى هذا الحد ويدفعه مسرعا إلى الخارج قبل أن أتمكن من منحه قبلة على رأسه الحليق؟ الجواب الواضح هو أن الجنود قد عادوا ولكن ليس بانتصار. إن كان الأمر كذلك، يتوجب علىّ التزام الحذر.

فى المساء، بعدئذ، هناك تفجر مفاجئ لصوت قادم من

الساحة وهمهمات أصوات. أبواب تفتح وتغلق بقوة. أقدام تروح وتجيء. أستطيع سماع بعض مما قيل، أستطيع سماعه بوضوح: لا تتحدثوا عن الستراتيجية أو جيوش البرابرة ولكن عن أقدام متألمة وتعب، ومناقشة حول رجال مرضى فى حاجة ماسة إلى أفرشة. فى غضون ساعة يهدأ كل شيء ثانية. الساحة خالية. لا سجناء هناك إذن. ذلك على الأقل سبب الابتهاج.

* * *

إنه منتصف النهار وأنا لم أتناول الإفطار. أذرع غرفتى، معدتى تقرقر كمعدة بقرة جائعة. يسيل لعابى عند التفكير بالعصيدة المالحة والشاى الأسود. لا أستطيع أن أمنع نفسى عن ذلك.

لا توجد علامة ما تدل على أنهم سيسمحون لى بالخروج، على الرغم من أنها ساعة التريض.

عمال بناء الآجر يعاودون عملهم، وتصل من الساحة أصوات فعاليات يوم عادى، بل إننى حتى أسمع الطباخة وهى تنادى على حفيدها. أضرب على الباب، ولكن لا أحد يبدى أى اهتمام.

بعدئذ، وفى منتصف ما بعد الظهيرة، يدور المفتاح فى القفل

ويفتح الباب. يقول حارسى، "ماذا تريد؟ لماذا كنت تدق على الباب؟ لا بد أنه يمقتنى إلى حد ما! أن يمضى امرؤ أياماً من حياته مستمراً فى مراقبة باب مغلق وقديم خدمات للاحتياجات البهيمية لرجل آخر. لقد سرقت منه أيضاً حريته. ويعتقدنى السارق.

ألن تسمحوا لى اليوم بالخروج؟ لم أحصل على أى شيء آكله."

"أمن أجل هذا ناديت على؟ ستحصل على طعامك. تعلم بعض الصبر. على أى حال، إنك بدين جداً."

"انتظر، لابد أن أفرغ دلوى. رائحة كريهة تنبعث منه هنا. أريد أن أغسل الأرضية. أريد أن أغسل ملابسى أيضاً. لا أستطيع أن أظهر أمام العميد بملابس لها مثل هذه الرائحة الكريهة. إنها ستجلب الخزى لحراسى. أريد ماء ساخنا وقطعة من صابون وخرقة. دعنى أفرغ دلوى بسرعة وأن أجلب ماءً ساخناً من المطبخ."

حدسى حول العميد كان مصيبا"، لأنه لم يناقضنى. يوسع فتحة الباب ويقف جانباً يقول،"أسرع".

لا أحد فى المطبخ غير خادمة غسل الصحون. تفاجأ بدخولنا، معاً، بل فى الحقيقة تبدو كأنها موشكة على الهرب من

المكان. أى نوع من قصص يتناقلها الناس عنى؟

يأمـــر الحارس،"أعطيه بعض الماء الساخن." تحنى رأسها وتستدير نحو الموقد حيث يوجد باستمرار مرجل ماء يغلى.

مـــن فـــوق كتفى أقول للحارس،"دلو- سأجلب دلواً للماء." بخطوات واسعة قليلة، أجتاز المطبخ إلى الخلوة المعتمة حيث، مع أكياس الطحين والملح والدخن المسحوق والبازلاء المجففة والفاصولياء، تحفظ ماسحات الأرضية والمكانس. على مسمار بعلو الرأس يوجد مفتاح القبو حيث تعلق أطراف لحم الضأن. فى لحظـــة أضـــعه فى جيبى. عند عودتى أحمل فى يدى دلواً خشـــبياً. أرفعـــه بينما تغرف الفتاة ماءً مغلياً فيه. أقول، "كيف حالك؟" ترتجف يدها إلى حد كبير الأمر الذى يدفعنى إلى تناول المغـــرفة منها. "هل بإمكانى الحصول على قطعة من صابون وخرقة قديمة، رجاءً؟"

بعـــد عـــودتى إلى زنزانتى أتجرد من ملابسى وأغتسل فى المـــاء الســـاخن الـــترف. أغســـل قطعة من ملابسى الداخلية الإضـــافية، والـــتى تفوح منها رائحة بصل متعفن، أعصرها، أعـــلقها عـــلى مسمار خلف الباب، وأفرغ الدلو على أرضية الغرفة المرصوفة. ثم أستلقى على الفراش منتظرا حلول الليل.

* * *

المفتاح يدور بنعومة فى القفل. كم من الناس غيرى يعرفون أن مفـــتاح القبو يفتح الباب المؤدى إلى غرفة سجنى، كما أنه يفتح أيضا الخزانة الكبيرة للأطباق فى القاعة الرئيسة للثكنات، وأن المفـــتاح الخاص بجناح الغرف فوق المطبخ هو نسخة من المفـــتاح لــباب مســـتودع الأسلحة، وأنّ المفتاح لمدخل البرج الشمال- غرب يفتح أيضاً مدخل برج الشمال- شرق، وخزانة الأطـــباق الصـــغيرة فى القاعة، والفتحة الصغيرة فوق أنبوب الميـــاه فى الفـــناء؟ المـــرء لا يمضى ثلاثين عاما غاطساً فى التفصيلات المتعلقة بحياة مستوطنة صغيرة عبثاً".

تـــبرق الـــنجوم فى سماء صافية سوداء. تبدو عبر قضبان بوابة الساحة، ومضة من نار فى الساحة التى وراءها. بجوار البوابة، أستطيع إن أجهدت بصرى، أن أتبين هيئة داكنة، رجلاً يجلس مستنداً على الجدار أو متكوراً وهو نائم. هل يرانى فى مدخـــل زنزانتى؟ أقف دقائق منتبها. إنه لا يتحرك، بعدها أبدأ السير مع حافة الجدار، تصدر قدماى العاريتان أصواتا هامسة على المساحات الصغيرة المفروشة بالحصى.

أســـتدير حـــول الزاوية وأجتاز باب المطبخ. الباب التالى يـــؤدى إلى سلم شقتى القديمة. إنه مغلق. الباب الثالث والأخير مفـــتوح، إنـــه الباب إلى الغرفة الصغيرة التى تستعمل أحياناً كمستشفى، وببساطة أحياناً لإيواء الرجال فيها. منحنياً، متحسساً

بيـــدى ما أمامى، أزحف نحو المربع الأزرق للنافذة المزلجة، خائفاً من التعثر فوق الأجساد التى أسمع أنفاسها فيما حولى.

خيط واحد يبدأ فى الانسحاب من خصلة الخيوط: الشخص الـــنائم عـــند قـــدمى يتنفس بسرعة، وفي كل زفير يصدر أنة واهنة. أيحلم هو؟ أتوقف قليلاً على مسافة بضعة إنجات عنه، مـــثل ماكينة، يستمر فى اللهات والأنين فى الظلام. ثم أزحف مجتازا إياه.

أقف عند النافذة وأتطلع منها إلى ساحة البلدة، نصف متوقع نيران مخيم، خطوطاً من خيول مربوطة وحزماً من تشكيلات بـــنادق، صـــفوفاً من خيام. ولكن لا يوجد شىء يمكن رؤيته تقريـــباً: جمـــرات نـــار وحيدة خامدة، وربما ومضة خيمتين بيضاوين بعيداً تحت الأشجار. إذن لم تعد قوات البعثة! أو هل مـــن الممكن أن النفوس القليلة التى هنا هى كل ما تبقى منها؟ يتوقف قلبى للفكرة عن الخفقان. ولكن هذا غير ممكن! هؤلاء الرجال لم يذهبوا إلى حرب: فى أسوأ الأحوال كانوا يتجولون فى البلدة الواقعة عند أعالى النهر، يطاردون رعاة مواشى غير مسلحين، يغتصبون نساءهم، ينهبون بيوتهم، يبعثرون قطعانهم، وفى أفضـــل الأحـــوال، لم يقابلوا أحدا على الإطلاق- بالتأكيد ليس القبائل البربرية المحتشدة، التى لضرواتها قد غدا المكتب الثالث متورطا بالدفاع عنّا.

أصابع بخفة أجنحة فراشة تلمس كاحلى. أجثو على ركبتى. صوت يفضى لى بما فى نفسه، "أنا عطشان." إنه الرجل الذى كـــان يـــلهث. إذن فهـــو لم يكن نائماً. أهمس، "بهدوء يا بنى "متفرســـاً، أســـتطيع أن أتبين بياض عينيه المرفوعتين نحوى، ألمس جبهته: إنه محموم. ترتفع يده وتمسك بيدى. يقول "كنت عطشاناً إلى حد كبيراً!"

أهمـــس فى أذنـــه، "سأجلب لك ماء، وعليك بعد ذلك التزام الصمت. هناك رجال مرضى فى المكان، يجب أن يناموا."

الظل بجوار البوابة لم يتحرك. ربما لا يوجد شيء ما هناك، ربما كيس قديم أو حزمة من حطب الوقود. أسير على أطراف أصـــابعى عبر الحصى إلى حوض الماء حيث يغتسل الجنود. المـــاء غير نظيف ولكننى لا أقدر على تحمل غلق الماسورة. من طرف الحوض يتدلى قدر قديم، أملؤه وأعود على أطراف أصابع قدمى.

يحـــاول الفتى أن يجلس ولكنه لا يقدر بسبب ضعفه الشديد. أسنده بينما يشرب.

أهمـــس، "ما الذى يحدث؟" يتحرك واحد من النائمين. "هل جـــرحت أم أنـــك عليل؟" أحس بحرارة شديدة!" يئن يريد دفع الـــبطانية عنه ولكننى أمنعه. أهمس،" يجب أن ترشح السخونة خارجـــا. "يهز رأسه ببطء من جهة إلى أخرى. أمسك برسغه

حتى يغوص ثانية فى النوم.

هناك ثلاثة قضبان قائمة فى إطار خشبى: كل نوافذ الطابق السفلى مغلقة بقضبان. اضغط بقدمي على الإطار، أمسك بالقضيب الأوسط وأدفع. أعرق وأتعب، هناك وخزة ألم فى منتصف ظهرى. ولكن القضيب لا يتزحزح. ثم وعلى حين غرة، ينكسر الإطار وتوجب عليّ التشبث كى أمنع نفسى من السقوط إلى الخلف. يبدأ الفتى بالتأوه ثانية، نائم آخر يتنحنح. أنا أوشك أن أصيح مباغتاً بالألم الذى يصيبنى عندما أضع كل ثقلى على قدمى اليمنى.

النافذة وحدها مفتوحة. رافعا القضبان بقوة إلى جهة واحدة، أدس رأسى وكتفيّ عبر الفتحة، شاقاً طريقى إلى الخارج، وأكبو على الأرض فى النهاية خلف صف من شجيرات قلّمت أعاليها على طول السور الشمالى للثكنات.

كل ما أقدر على التفكير به هو الألم، كل ما أرغب فيه هو أن أترك لأستلقى فى أفضل وضع أجده مناسباً لى، على جنبى وركبتاى مرفوعتان نحو ذقنى. مدة ساعة على الأقل، أستلقى هنالك بينما كان بإمكانى متابعة هربى، أسمع عبر النافذة المفتوحة أنفاس النائمين، صوت الفتى وهو يدمدم لنفسه. تخمد الجذوة الأخيرة للنار الموقدة فى الساحة. الكلّ نائم، إنسانٍ وحيوان. إنها الساعة التى تسبق الفجر، الساعة الأقسى برداً.

أحس ببرودة الأرض تدخل عظامى. إن استلقيت مدة أطول هنا سـأتجمد وأدحـرج خلفاً إلى زنزانتى صباحاً بعربة يد. مثل حـلزون مجـروح أبدأ الزحف فى موازاة السير باتجاه مدخل الشارع الأول الذى يمتد بعد الساحة.

الـبوابة المؤدية إلى الفسحة الصغيرة الواقعة خلف الفندق، تقـع فى الخلف، وهى رديئة المفاصل. المنطقة بأجمعها تشى بالتفسـخ، قشور، عظام، فضلات طعام، رماد، كلها ترمى هنا مـن المطـبخ كى تذرى فى الأرض، ولكن الأرض قد غدت متعبة، المذراة التى تطمر هذا الأسبوع ترفض تقليب ما طمر فى الأسـبوع الماضى. الهواء فى خلال النهار ممتلئ بالذباب، وعند الغسق تستيقظ الخنفساء السوداء والصرصار.

تحـت السلم الخشبى الصاعد إلى الشرفة وأقسام الخدم يقع موضع منعزل حيث يخزن الحطب وحيث تهجع القطط عندما تمطـر السـماء. أزحف إلى الداخل وأنطوى على نفسى فوق حقيـبة قديمـة. تفـوح مـنها رائعة بول، وهى بالتأكيد مليئة بالـبراغيث، أشعر ببرد شديد تصطك له أسنانى، ولكن كل ما يشغلنى فى هذا الصباح هو تهدئة الألم فى ظهرى.

* * *

صـحوت من النوم على طقطقة أقدام على السلم. انه ضياء نهـار. مرتـبكاً، مشوش الرأس، أجلس جاثياً على ركبتىّ فى

خلوتي. أحدهم يفتح باب المطبخ. دجاجات من كل الزوايا تأتى عدواً. الأمر مسألة زمن فحسب قبل أن أكتشف.

بأكبر جرأة امتلكها، ولكن مجفلا على الرغم من نفسى، أصعد السلم. لا بد أن منظرى يبدو فظيعا للعالم بقميصى وبنطلونى القذرين، قدمى الحافيتين، ولحيتى الشعثاء؟ مثل خادم، أرجو ذلك، سائس خيل يعود إلى البيت بعد ليلة أسرف خلالها بالشراب.

الممرّ خال، الباب المؤدى إلى غرفة الفتاة مفتوح. الغرفة نظيفة ومرتبة كما فى السابق: الجلد والصوت الناعم بجوار الفراش ا الستارة ذات المربعات الحمر منسدلة على النافذة، صندوق الأدوات الشخصية مدفوع إلى الجدار الأبعد وأعلى منه شماعة للملابس. أدفن رأسى فى عبير ملابسها وأفكر فى الولد الصغير الذى جلب طعامى، وكيف عندما استقرت يدى على كتفه، كنت أشعر بالقوة الشافية لتلك اللمسة تسرى فى جسد قد أصبح متصلبا بفعل عزلة غير اعتيادية.

الفراش قد رتب. عندما أمررّ يدى بين الشراشف، أتخيل أننى قادر على الإحساس بأثر ضئيل متخلف من دفئها. لا شيء سيسعدنى اكثر من أن ألتف على نفسى فى فراشى، أضع رأسى على مخدتها، أنسى أوجاعي وآلامى، متجاهلا المطاردة التى لا بد أنها قد بدأت الآن بحثاً عنى، ومثل الفتاة الصغيرة

فى القصة أهوى فى النسيان. كم بترف أحس جاذبية النعومة، الــدفء، أريج هذا الصباح. بتنهيدة أركع وأدفع جسدى تحت الفــراش. وجــهى نحــو الأسفل، منضغطاً بشدة بين الأرض والشــرائح الخشــبية للســرير، بحيث إننى عندما أحرك كتفيّ يــرتفع الســرير، أحاول أن أشكل نفسى كى أبقى مختفياً يوماً واحداً.

أنـــام نومـــا خفيفا وأصحو، منجرفاً من حلم لا شكل له إلى آخــر. عند منتصف النهار يصبح الجو ساخنا يتعذر فيه النوم. أتمـــدد أطـــول مـــدة ممكنة، أتصبب عرقا فى المأوى السرّى المغــبر. ثــم، وعلى الرغم من تأجيلي الأمر، فإن الزمن– قد حـــان لوجـــوب إراحـــة نفسى. متألماً أدفع نفسى إلى الخارج وأقـــرفص فوق مبولة غرفة النوم. مرة أخرى الألم، التمزق. أمســـح نفســـى بمنديل أبيض مسروق، أراه بعدئذ ملوثاً بالدم. تنتشر رائحة قذرة فى الغرفة: حتى أنا، الذى كنت أعيش لعدة أســـابيع مـــع دلو القذارة فى الزاوية، أشعر بالاشمئزاز. أفتح الـــباب وأسير حجلا فى الممر. تطل الشرفة على صفوف من أســـقف، وخلفها فوق السور الجنوبى تمتد الصحراء، فى رقعة منبسطة. لا يوجد أحد يمكن أن يقع عليه البصر غير امرأة فى الجـــانب الآخـــر مـــن الزقاق تكنس عتبة دارها. وخلفها طفل يزحف على يدين وركبتين يدفع شيئا ما فى التراب، لا أستطيع أن أميـــز ما هو. عجزه الأملس الناعم يتكور نحو الأعلى فى

الهــواء. عندما تستدير المرأة بظهرها أخطو مبتعدا عن الظل وأفرغ محتويات المبولة فى كومة النفايات تحت. إنها لا تلاحظ شيئاً.

سبات قد بدأ الآن يستقر فوق البلدة، انتهت أعمال الصباح: مــتقوقعين طــوال مدة حرارة منتصف النهار، يبدأ الناس فى العــودة إلى باحــاتهم المظللة، أو إلى غرفهم الداخلية الباردة. بلبلة الماء فى أخاديد الشوارع تخمد وتتوقف. كل ما أتمكن من ســماعه هو تكتكة مطرقة البيطرى، سجع طيور القمرية، وفى مكان ما بعيد جداً، صوت نحيب طفل.

متنهداً ألقى نفسى على الفراش فى الشذا العذب للزهور التى أتذكرها. كم يبدو الأمر مغرياً أن أشارك بقية البلدة نوم قيلولتها! فى هــذه الأيــام، أيام الربيع، الساخنة هذه كأن الصيف فيها قد أقبل فعلاً- كم أجد سهلاً أن أتسلّل إلى مزاجهم الذى يبعث على التراخى! كيف يمكننى أن أتقبل المصيبة التى باغتت حياتى إلى هــذا الحــد بيــنما العالم ما يزال يواصل الحركة- بهدوء عبر دوراته؟ لا يتطلب الأمر جهداً كى أصدق أنه عندما تبدأ الظلال تســتطيل والهــبة الأولى لــلريح تــبدأ بتحريك أوراق الشجر، سأصــحو وأتثاءب وأرتدى ملابسى وأنزل السلم وأجتاز الساحة إلى مكتــبى، محيياً الأصدقاء والجيران الذين أمر بهم بهزة من رأســى، وإننى سأمضى هناك ساعة أو ساعتين، أرتب مكتبى،

أقفلـــه، وأن كـــل شيء سيمضى متواصلاً كما كان على الدوام. عـــلىّ فى الواقـــع أن أهز رأسى وأن أجعل عينىّ تطرفان كى أدرك أنـــنى مســتلق هكـــذا فى هذا المكان رجل مطارد، وأن الجـــنود وضمن سياقٍ واجبهم سيأتون إلى هنا ويقودوننى خارجاً ويســـجنوننى ثانية بعيداً عن مشهد السماء وعن الكائنات البشرية الأخـــرى. "لمـــاذا؟" أئـــن للوسادة: "لماذا أنا؟" لم يكن هناك أبدا شـــخص فى العـــالم مرتبكاً إلى حد كبير وبريئاً مثلى أنا. طفل حقيـــقى! ومـــع ذلك إن استطاعوا فسيسجنوننى بعيدا كى أبلى، أخضع جسدى لاهتماماتهم الدنيئة، ثم يوما بعد يوم بدون تحذير يجلبونـــنى خارجـــا ويدفعونـــنى بسرعة عبر إحدى المحاكمات المغـــلقة التى يجرونها بموجب سلطات الطوارئ، ويقوم العميد الصـــغير المتصـــلب بترؤسها ويقرأ تابعه الاتهامات واثنان من الضـــباط أقل رتبة كمساعدين من أجل إضافة جو من الشرعية عـــلى الإجـــراءات فى قاعة محكمة خالية بطريقة ما، وبعدئذ، عـــلى الأخـــص، إن كـــانوا قـــد عانوا من أمور معاكسة، على الأخـــص إن كـــان الـــبرابرة قد أهانوهم، سيجدوننى مذنبا بتهمة الخيانـــة- هل أحتاج إلى الشك فى ذلك؟ من قاعة المحكمة إلى الجـــلاد سيســـحلوننى رافساً نائحاً، متحيرا مثل اليوم الذى ولدت فيـــه، متشبثاً حتى النهاية بالإيمان من أن لا مكروه يحصل لمن لا ذنـــب له. "إنك تعيش فى حلم!" أقول لنفسى: انطق بالكلمات عالياًـــ، أحـــدق فيها، أحاول أن أفهم معانيها: "يجب أن تصحوا!

عمـــداً أذكّـــر نفسى بصور لأبرياء قد عرفتهم: الولد المتمدد فى ظـــل مصـــباح ويـــداه تضـــغطان على ملتقى فخذيه، البرابرة الســجناء، يقرفصـــون فى التراب يظللون أعينهم اتقاء الشمس، ينتظرون أى شيء سيأتى لاحقاً. لماذا يكون الأمر غير مقنع من أن البهيموث(*)، الذى داسهم بأقدامه سيدوسنى أيضاً؟ أعتقد بحق أنـــنى لا أخشى الموت. الشيء الذى أنكمش منه. كما أعتقد، هو العار من الموت غبياً ومشوشاً كما أنا.

هناك هبّات من أصوات "لرجال ونساء، تأتى من أسفل حيث الساحة. بينما أتجمع فى مخبئي أسمع صوت أقدام على السلم. إنهـــا تتراجع نحو الطرف الأقصى من الشرفة، ثم تعود ببطء متوقفة عند كل باب. الجدران التى تفصل المهاجع الصغيرة فى الطابق العلوى حيث ينام الخدم هى مجرد شرائح خشبية مغطاة بورق جدران: أستطيع أن أسمع بوضوح صوت كل باب يفتحه من يطاردنى بالتتابع. أضغط بنفسى تجاه الجدار. آمل ألاّ يشمّ رائحتى.

الخطوات تدور حول الزاوية وتبلغ الممر. يفتح بابى، يبقى مفتوحاً عدة ثوان، يغلق ثانية. لقد اجتزت إذن امتحاناً واحداً.

هـــناك خطـــوات أســـرع وأخف: أحدهم يركض فى الممر

(*) البهيموث: فرس البحر أو شخص أو حيوان ضخم قوى.

ويدخـــل الغرفة. رأسى يستدير نحو الوجهة المخالفة، لا أقدر حـــتى عـــلى رؤيـــة قدميها، ولكننى أعرف أنها فتاة. هذه هى الـــلحظة التى يتحتم على فيها الخروج من مخبئى، أتوسل إليها أن تخفيـــنى لحيـــن حلول الظلام وباستطاعتى أن أجد سبيلى لـــلخروج مـــن البلدة متوجها نحو الجنوب إلى ضفة البحيرة. ولكـــن كيف أفعل ذلك؟ فى ذلك الوقت الذى يكون فيه السرير مـــتوقفاً عـــن الانتفاخ وأكون أنا قد خرجت من مكانى، فإنها ستكون قد هربت وهي تصيح فى طلب المساعدة. ومن ذا الذى يقول إنها ستقدم ملاذاً لواحد من الرجال الكثيرين الذين أمضوا وقـــتاً فى هذه الغرفة، واحد من رجال عابرين كثيرين، ترتزق مـــنهم، رجـــل فى موقف مخز، هارب من العدالة؟ وهل أنها ســـتقدر حتى التعرف على وأنا فى هذه الحالة؟ قدماها تخفقان فى أرجـــاء الغـــرفة، متوقفة هنا، متوقفة هناك. لا أستطيع أن أضـــع مخططاً لحركتهما. أتمدد ساكناً، متنفساً بنعومة، عرق يتســـاقط مـــنى. فجـــأة تكون قد غادرت: يطقطق السلم، يحل الصمت.

سكون مؤقت يسقط علىّ أيضاً، نوبة من بعد نظر، أرى فى خلالها كم هو سخيف هذا الأمر، كل هذا الركض والاختباء، ما أسخفه من أمر أن أكون مستلقياً تحت سرير فى ظهيرة حارة، منتظراً فرصة للهرب بعيداً إلى اجمات القصب، وأعيش هناك عـــلى بيوض الطيور وسمك أصيده بيدىّ، نائماً فى حفرة فى

الأرض، مـــتحملاً زمنى الحالى حتى تتطحن هذه المرحلة من الـــتاريخ منصرمة وتعود المناطق الحدودية إلى نعاسها الأول. الحقيقة هى أننى لم أعد أنا، لقد أصبت بداء الخوف، أدرك أننى مـــنذ تـــلك اللحظة فى زنزانتى لما رأيت أصابع الحارس تشد على كتف الولد الصغير لتذكيره بألا يتحدث معى، وعرفت أنه مهمـــا كـــان الأمر الذى قد حدث فى ذلك اليوم، فإن علي أن أتحمل اللوم بسببه. سرت إلى داخل الزنزانة رجلا سليم العقل، واثقـــاً من عدالة قضيتى، مهما كنت غير كفء، فإننى أواصل الحكـــم عـــلى نفسى لوصف ماذا يجب أن تكون تلك القضية، ولكـــن بعد شهرين بين الصراصير دون شيء تقع عليه عيناى غيـــر أربعة جدران وبقعة سخام مبهمة، ولا شيء أشمه غير نتانة جسدى، ولا أحد أتكلم معه غير شبح فى حلم، تبدو شفتاه مختومتان، أنا أقل ثقة بنفسى إلى حد كبير. التوق إلى أن أُلمس مـــن قبل جسد إنسان آخر يستولى على أحياناً بتلك القوة التى تدفعـــنى إلى الأنيـــن. كـــم تطلعت تواقاً إلى الاتصال الوحيد القصير الأمد الذى كان كل ما قدرت الحصول عليه مع الولد، صباحاً، مساء! أن أستلقى بين ذراعى امرأة فى فراش جيد، أن يتوفر لدى طعام جيد أتناوله، أن أسير تحت الشمس- كم تبدو هـــذه الأمور أكثر أهمية من الحق فى اتخاذ قرار دون نصيحة مـــن الشـــرطة الذيـــن يجب أن يكونوا لى أصدقاء والذين هم أعدائى! كيف يمكننى أن أكون على صواب عندما لا أجد نفساً

فى البـــلدة تؤيـــد فـــرارى مع الفتاة البربرية أو من لا يحس بالمرارة تجاهى إن قتل شباب من هنا من قبل البربرى المحمى مـــن قبـــلى؟ ومـــا هدف المعاناة على أيدى الرجال المرتدين الأزرق إن لـــم أكـــن صلباً بمتانة الحديد فى يقينى؟ لا يهم أن أخـــبرت المحققين بالحقيقة أو سردت كل كلمة تفوهت بها عند زيـــارتى للـــبرابرة، لا يهم أيضاً أن مالوا إلى تصديقى، إنهم سيواصلون الضغط بأعمالهم البشعة، لأنه بند من إيمان بالنسبة إليهـــم مـــن أن الحقيقة الأخيرة لا تُقال إلاّ فى أقصى درجات الألـــم. أنـــا أبـــتعد مهرولا من الألم والموت. لا أمتلك خطة لـــلهرب. إن اخـــتفيت فى أدغـــال القصب فسأموت جوعاً فى غضون أسبوع، أو أتلاشى إلى لا شيء. أنا ببساطة أبحث عن راحة البال، إن كان لابد من قول الحقيقة، أفرّ فقط إلى الفراش الناعم والأيدى المحبّة الوحيدة التى بقيت لى.

خطـــوات أقدام ثانية. أميز خطوات الفتاة السريعة، إنما فى هـــذه المـــرة ليست بمفردها ولكن مع رجل. يدخلان الغرفة. أستدل من صوته أنه ليس إلاّ فتى. يقول بحدة، "يجب عليك أن لا تسمحى لهم بمعاملتك بذلك الشكل! أنت لست عبدة لهم."

تجيـــب، "أنـــت لا تفهم، على أى حال، لا أريد التحدث عن الأمر الآن." يسود الصمت برهة ثم مزيد من أصوات حميمية.

يشـــيع الدم فى وجهى. إنه أمر غير محتمل أن أضطر إلى

البقاء بسبب هذا. وعلى الرغم من ذلك مثل الديوّث في مسرحية هزلية ساخرة أكتم أنفاسي، غاطسا أكثر وأكثر في الخزي.

أحدهما يجلس على السرير. ترمي الأحذية على الأرض، تخشخش أثواب، جسدان يمددان أنفسهما على مسافة انج واحد فوقي. شرائح السرير تنحني، ضاغطة على ظهري. أغلق اذني، خجلا من سماع الكلمات التي يقولها أحدهما للآخر، ولكنني لا أقدر أن أمنع نفسي من سماع الارتعاشات والتأوهات التي أتذكرها جيداً عن الفتاة عندما تستحوذ البهجة عليها، الفتاة التي اعتدت أن أكنْ محبتي لها.

ضغط الشرائح يشتد عليّ أن أبسط نفسي أقصى ما أستطيع، يبدأ السرير بالطقطقة. متعرقاً، متوهج الوجه أشمئز لإحساسي بمدى استثارتي على الرغم من نفسي، أتأوه في الحقيقة: التنهيدة الطويلة المنخفضة تلتوي في حنجرتي وتختلط دون أن ينتبه إليها أحد مع أصوات أنفاسهما اللاهثة.

ثم ينتهي الأمر. يتنهدان ويخمدان، تتوقف الارتعاشات والحركات الخفيفة، يتمددان في راحة جنباً إلى جنب مستغرقين في النوم، بينما أنتظر أنا، تعيساً، متوتراً، متيقظا إلى أبعد حد، فرصتي للهرب. إنها الساعة التي ينام فيها الجميع نوماً خفيفاً حتى الدجاج، الساعة التي يوجد فيها إمبراطور واحد، الشمس.

دافعــاً بقــدمى تجاه الجدار، أندفع تدريجياً حتى أتمكن من الجــلوس بحــذر شديد. الألم فى ظهرى، ألم رجل مسن، يعلن عــن نفسه مرة أخرى. أهمس، "أنا آسف: إنهما نائمان بعمق، كطفــلين، ولــد وبــنت، عاريان، يد بيد، حبات عرق عليهما، وجهاهمــا مــرتاحان وغــافلان. مــدّ الخزى يكتسحنى بقوة مضــاعفة. جمالها لا يوقظ فيّ أىّ رغبة، لكن الأمر بدلاً من ذلــك، يــبدو أكثر فحشاً من قبل فيما لو أن هذا الجسد العجوز الــثقيل الرخو ذا الرائحة القذرة (كيف تمكنوا من عدم الانتباه لــلرائحة؟) كــان ينبغى له فى أي وقت مضى احتضانها بين ذراعيه. ما الذى كنت أفعله طوال هذا الوقت، ضاغطاً بنفسى عــلى أطفال مثل زهور ذات تويجات ناعمة- ليس عليها فقط، على الآخر أيضاً؟ كان على البقاء بين البدناء والمتفسخين حيث أنتمى: نساء سمينات ذوات آباط لاذعة وأمزجة سيئة، مومسات بمؤخــرات كبيرة ورخوة. أخرج على أطراف أصابع قدمى، أحجل نازلاً السلم فى وهج الشمس الذى يكاد يعمى العين.

بــاب الجــناح العــلوى للمطبخ مفتوح.. إمرأة عجوز، بلا أســنان، منحنية، تأكل وهى واقفة من إناء معدنى قديم. تتلاقى أعينــنا، تتوقف عن الأكل، الملعقة فى منتصف الطريق، فمها مفتوح. تتعرف علىّ.

أرفــع يــدى وأبتســم- أندهــش للســرعة التى تعود فيها

الابتسامة. تتحرك الملعقة، تنغلق الشفتان عليها، تروغ نظرتها، أجتازها.

البوابة الشمالية مغلقة ومزلّجة. أصعد السلم إلى برج المراقبة فوق زاوية السور وأتطلع إلى الخارج بتوق شديد للمنظر الطبيعى الحبيب بالنسبة لى: حزام الخضرة الممتد على طول النهر، قد اسود الآن فى مساحات صغيرة، الأخضر الأفتح لوناً للمستنقعات حيث القصب الجديد يبدأ فى الظهور، وسط البحيرة الذى يخطف البصر.

لابد أن هناك خطأ ما. كم قد مضى على حجزى عن العالم، شهران أم عشرة أعوام؟ القمح الطالع حديثاً فى الفدادين تحت السور كان ينبغى أن يكون الآن قوياً بارتفاع ثمانية عشر إنجاً. ولكنه ليس كذلك. ماعدا عند أقصى التخم الغربى للمنطقة المرويّة حيث النباتات الجديدة الصفراء المعتلة والتى قد توقف نموها. هناك الكثير من المناطق الجرداء بالقرب من البحيرة وصف من سيقان نباتات رمادية بجانب سور الأرواء.

أمام عينى الحقول المهملة، الساحة التى تسفعها الشمس. الشوارع الخالية تتحول إلى هيئة جديدة منحوسة. البلدة تهجر- ماذا هناك من شيء آخر لأفترضه؟- والأصوات التى سمعتها قبل ليلتين، كانت حتماً أصوات رحيل لا وصول! يترنح قلبي (خوفا؟ أم امتناناً؟) للفكرة. ومع ذلك يجب أن أكون مخطئاً.

عـــندما أحــدق باهتمام أكبر فى الساحة، أستطيع رؤية ولدين يلعـــبان بهـــدوء بكرات زجاجية صغيرة تحت أشجار التوت، ومما رأيته فى الفندق أيضاً، الحياة تتواصل كالمعتاد.

فى البرج الجنوبي- الغربى يجلس حارس على مقعد مرتفع بلا مسند محدقاً ببلادة فى الصحراء. لا ينتبه إلىّ ولا يجفل إلا بعد أن أصبح على مسافة خطوة منه.

يقــول بصوت منخفض، "انزل، غير مسموح لك بالصعود هنا. "لم أره هنا مطلقاً. أدرك أننى منذ غادرت زنزانتى، لم أر واحـــداً مـــن الجنود الذين كانوا يؤلفون الحامية القديمة. لماذا يوجد غرباء فحسب في هذه الأرجاء؟

أقول، "ألا تعرفنى؟

"انزل."

"سأفعل، ولكن قبل ذلك لديّ سؤال مهم جدا أسألك إياه. كما تـــرى، لا أحد غيرك كى أسأل- كل واحد آخر يبدو إما نائماً وإمـــا بعيداً. الذى أريد أن أسأله هو: من أنت؟ أين جميع من كنت أعرفهم؟ ما الذى حدث بعيدا" هناك فى الحقول؟ يبدو كأن اجـــتياحا قـــد حصل. ولكن لماذا يكون هناك اجتياح؟ "تضيق عيـــناه بيـــنما اســـتمر فى الثرثرة. "أنا آسف لتوجيه مثل هذه الأســـئلة الحمقاء، ولكننى كنت مصابا بالحمّى، وكنت التزمت الســـرير" – تـــأتى العبارة الغريبة دون أن أسأل- "واليوم هو

اليوم الأول الذى سمح لى فيه بالنهوض. ذلك هو... "

يقــول، "يجــب أن تحذر من شمس منتصف النهار، أبتى". أذناه تبرزان من تحت قبعة واسعة تماما عليه. "ستكون أفضل حالاً إن ارتحت فى هذا الوقت من النهار". "أجل... هل تسمح أن أتــناول بعض الماء؟" يناولنى دورقه وأشرب الماء الفاتر، محــاولاً أن لا أظهر مدى ضراوة عطشى. "ولكن أخبرنى، ما الذى قد حدث؟"

"الــبرابرة. لقــد اقــتطعوا جزءاً من السد هناك فى الجانب الآخــر وأغــرقوا الحقول. لم يرهم أحد. جاءوا فى الليل. فى اليــوم التالى بدا الأمر مثل بحيرة ثانية." كان قد حشا غليونه، يقدمه لى الآن. أرفضه مجاملا ("سأبدأ فى السعال آخر الأمر، وذلــك أمــر سيء بالنسبة لى."). "أجل، الفلاحون غير سعداء بالمرّة يقولون إن المحصول قد دمر وإن الوقت أصبح متأخرًا جداً للزرع ثانية."

ذلك أمر سيء. إنه يعنى أن شتاء قاسياً أمامنا. وأن علينا أن نشد علينا أحزمتنا بقوة شديدة."

"نعــم، إنــنى لا أحســدكم أيها الناس. بإمكانهم أن يكرروا الكرة، أليس هم بقادرين، البرابرة. بإمكانهم إغراق هذه الحقول فى أى وقت يختارونه."

ندخــل فى نقــاش حول البرابرة وغدرهم. إنهم لا يقاتلون

مواجهـــة، يقـــول ثـــم يضيف: طريقتهم هى أن يزحفوا خلسة صاعدين من خلفك ويغرزوا سكينا فى ظهرك. "لماذا لا يمكنهم تركنا وحدنا؟ لهم مقاطعاتهم الخاصة أليس كذلك؟ أدير المناقشة نحو وجهة أخرى إلي الأيام الخوالى عندما كان من المعتاد أن يكون كل شيء هادئاً على الحدود. يناديني، "أبتى"، والتى هى طريقـــته الفلاحيـــة لإظهار الاحترام، يصغى إلىّ كما يصغى أحدهم إلى رجل مسن مختل عقلياً من العامّة، أى شيء يكون، ذلك أفضل، كما اعتقد من التحديق خارجا فى فراغ كل النهار.

أقـــول، "أخبرنى، سمعت قبل ليلتين أصوات خيّالة وتوقعت أن الحمـــلة الكـــبيرة قدعادت. "يضحك" لا، كانوا أولئك مجرد بضـــعة رجـــال أرســـلوهم إلى هنا. أرسلوهم فى إحدى تلك العـــربات الكـــبيرة. حـــتماً كـــان ذلك ما سمعته. لقد أصيبوا بالمـــرض من جراء الماء– الماء سيئ هناك، هذا ما أسمعه– ولهذا فقد أعادوهم إلى هنا."

"هكـــذا إذن! لم أستطع أن أفهم ماذا كان الأمر. ولكن متى نتوقع عودة القوة الرئيسية؟"

"سريعاً، لابد أن يكون ذلك سريعاً. إنك لا تقدر العيش على فاكهة الأرض الموجودة هنا، هل تقدر؟ لم أر من قبل مثل هذا البلد القاحل."

انـــزل درجات السلم. تركتنى محاورتنا حاسّاً بكونى موقرا

تقريـبـاً. من الغريب أن أحداً لم ينبهه إلى الاحتراس من رجل سـمين عجوز فى ملابس رثة! أو ربما وُضع هناك منذ الليلة الأخيـرة دون أن يجد أحداً يكلمه؟ من كان يتصور أننى قادر على الكذب بهذا الشكل اللطيف! الوقت منتصف العصر: ظلى يـنزلق بجـوارى مثل بركة حبر. أبدو كأنى المخلوق الوحيد الذى يتحرك ما بين الأسوار الأربعة. أنا متباه بنفسى إلى الحد الـذى أشعر فيه بالرغبة فى الغناء. حتى ظهرى المتألم لم يعد يهمنى.

أفـتح البوابة الجانبية الصغيرة وأجتازها. صديقى فى برج المراقبة ينظر نحوى. ألوح له ويلوح راداً. ينادى، "ستكون فى حاجة إلى قبعة!" أربت على رأسى العارى، أهز كتفى، أبتسم. الشمس تضرب أشعتها إلى الأسفل.

قمـح الـربيع قـد خرّب بالتأكيد. طين دافئ ضارب إلى الصفرة ينسحق بين أصابع قدمىّ. لم تزل بقع من ماء الأمطار عالقة فى بعض الأماكن. الكثير من المزروعات الحديثة النمو قـد اسـتنزفت واقتـلعت. وهى بأجمعها ذات أوراق مصفرّة، المنطقة الأقرب إلى البحيرة هى الأكثر تضرراً. لم يُترك شيء مـا واقفـاً، إن المـزارعين، بالتأكيد، قد بدأوا الآن فى جمع النـباتات الميتة من أجل حرقها. بزوغ عدة أنجات فى ارتفاع، قـد أحدث كل الاختلاف. لربما إذن يكون بالإمكان إنقاذ ربع المزروعات.

أعمال الحفر الهندسية نفسها، الجدار الطينى المنخفض الذى يمتد إلى نحو ميلين يُخضع مياه البحيرة للمراقبة عند ارتفاعها إلى مســتوى منسوبها الصيفى، قد أعيد إصلاحه، ولكن النظام المعقــد للقــنوات والبوابات التى توزع المياه حول الحقول، قد أزيل بأكمله تقريباً. السد والناعور القريب من ضفة البحيرة لم يتضررا، على الرغم من عدم وجود أثر ما للحصان الذى يدير الــدولاب. أســتطيع أن أقدر أن أسابيع من عمل شاق بانتظار المزارعين. وفى لحظة، يمكن أن تذهب جهودهم سدى من قبل عدد ضئيل من رجال مسلحين بمعاول! كيف يمكننا أن ننتصر فى حــرب كهذه؟ ما فائدة كتب مدرسية عن عمليات عسكرية، اندفاعات وحملات تأديبية فى قلب أرض العدو، بينما يمكن أن ننزف حتى الموت فى موطننا؟

أتخــذ الطريق القديم الذى ينحرف خلف السور الغربى قبل أن يتلاشى إلى درب لا يؤدى إلى مكان غير الخرائب المملوءة بالــرمال. هــل ما زال يسمح للأطفال باللعب هناك، أتساءل بعجب، أم أن آباءهم يبقونهم فى البيوت عن طريق قصص عن البرابرة الذين يتربصون فى التجاويف؟ ألقى نظرة سريعة على السور، ولكن يبدو أن صديقي فى البرج قد استغرق فى النوم.

كافــة الحفــريات التى قمنا بها فى العام الماضى قد أهملت كفعل تراكمات الرمال. أعمدة الزوايا هى وحدها التى تبرز هنا

وهـــناك فى المكان القفر، حيث على المرء أن يصدق أن أناساً عاشـــوا هــنا فى زمن مضى. أهيّء حفرة لنفسى وأجلس كى أرتـــاح. أشـــك فى مجـــيء أحد ما للتفتيش عنى هنا. بإمكانى الاتكـــاء عـــلى هـــذا العمود القديم بزخارفه المحفورة لدلافين وأمواج كى تقرضنى الشمس وتجففنى الرياح وأتجمد فى نهاية المطـــاف بفعل الصقيع، ولن يعثر على إلا فى بعض الأزمنة البعيدة للسلام، عندما يعود أطفال الواحات إلى ملعبهم ويلاقون الهيكل العظمى، المكشوف بفعل الريح، لساكن صحراء مهجور مكسو بأسمال بالية لا يمكن التعرف عليها.

أســـتيقظ مثـــلجاً. الشـــمس تستقر فى الأفق الغربى كبيرة وحمراء. الريح تتصاعد: رمال مندفعة فى الهواء بدأت تواً فى إقامـــة ســـد إلى جنـــبى. وعيى يتركز على عطشى بالدرجة الأولى. الخطـــة الـــتى لهـــوت بها، فى تمضية الليل هنا بين الأشـــباح، أرتجـــف بـــرداً، منتظراً أن تتجسد ثانية للعيان من الظـــلمة، الجدران وقمم الأشجار المألوفة، هى غير محتملة. لا شيء لى هناك خارج الأسوار غير الموت جوعاً. اركض من حفـــرة إلى حفـــرة مثل فأرة وأخسر حتى مظهر البراءة. لماذا أحـــول عمـــل أعدائى لمصلحتهم؟ إن أرادوا سفك دمى، دعهم على الأقل يتحملون وزر ذلك. الحزن القاتل لليوم الفائت قد فقد قوتـــه. ربمـــا لـــم تكن هذه المغامرة بلا طائل لو تمكنت من استعادة روح التمرد، مهما كان باهتاً.

* * *

أقعقــعُ بوابة ساحة الثكنات، "ألا تعرفون من هنا؟ لقد نلت اجازتى، والآن دعونى أدخل!"

يــأتى أحدهــم راكضاً صوبى: ينظر أحدنا إلى الآخرِ فى العــتمة عــبر القضــبان: إنــه الرجل الذى عيّن حارساً لى. "اصــمت"، يهمــس لى من بين أسنانه ويسحب الأقفال، خلفه أصوات تدمدم وأناس يقتربون.

قابضــاً عــلى يدى يأخذنى راكضاً عبر الساحة. "من هو؟" أحدهــم ينادى. الإجابة على طرف لساني كى أرد، أن أخرج المفتاح وألوّح به، عندما يخطر على بالى أن هذا العمل قد يعد طائشــاً. وهكــذا أنتظر أمام باب زنزانتى القديمة حتى يفتحه حارسى، يدفعنى إلى الداخل، ويغلقه على كلينا. يصلنى صوته عــبر الظلمة شديد الغضب: "اسمع، إن تحدثت لأى واحد عن خــروجك ســأجعل من حياتك شقاء! هل تفهم! سأجعلك تدفع الثمن! لا تقل شيئاً لأى واحد يسألك عما حدث هذا المساء، قل إننى قد أخذتك للتريض، للسير، لا أكثر. هل تفهمنى؟"

أفكّ أصابعه عن ذراعى وأنزلق بعيداً عنه. أدمدم، "!هل ترى كــم أن الأمر سيكون سهلاً علىّ للهرب والبحث عن مخبأ عند الــبرابرة، لماذا فى اعتقادك قد عدت؟ إنك مجرد جندى عادى، يمكــنك فقط إطاعة الأوامر. مع ذلك: فكر فى المسألة. "يقبض عــلى رســغى ومــرة ثانية أحل أصابعه. فكر فى السبب الذى

دفعــنى للعودة وماذا كان الأمر سيعنى إن لم أكن قد فعلت ذلك. ليس بإمكانك أن تتوقع تعاطفاً من قبل الرجال المرتدين الأزرق، أنا واثق من أنك تعرف ذلك. فكر فيما سيحدث إن خرجت ثانية. "أمســك أنا الآن بقبضته. "وليكن لا تقلق، لن أتحدث: رتب أى قصـــة تــريدها وسأزيدك. أعرف كيف يبدو الأمر عندما يكون المرء خائفا! يحل بيننا صمت متوتر طويل. أقول: "على تعرف أكثر شيء أرغب فيه. أريد شيئاً آكله ، شيئا أشربه. أحس بجوع شديد. لم أتناول شيئاً طوال النهار."

وهكذا يعود كل شيء إلى ما كان عليه. ويستمر هذا الحجز اللامعقــول. أتمــدد على ظهرى أراقب بقعة الضوء من فوقى تــنمو أقــوى ثم تضعف يوما بعد يوم. أصغى إلى الأصوات البعيدة لمسحاة عمال البناء، ومطرقة النجار وهى تصلنى عبر الجدار. آكل وأشرب ومثل أى فرد آخر، أنتظر.

* * *

هــناك، أولاً صـــوت بنادق من بعيد خافت كصوت بندقية أطفال. ثم يأتى من مسافة أقرب من المتاريس نفسها، وابل من إطلاقـــات مجيبة. هناك عبر الساحة أصوات خطوات جماعية قويـــة. أحدهـــم يصـــيح، "البرابرة" ولكننى أظن أنه مخطئ. الجرس الكبير يبدأ بالجلجلة متعالياً على الضجيج بأكمله. جاثماً ورأسى على شق الباب، أحاول أن أفهم ما يجدى.

يتعاظم الصوت القادم من الساحة من الهرج والمرج إلى صخب ثابت لا يمكن تمييز صوت منفرد فيه. لا بد أن المدينة بأكملها تتدافع خارجاً للترحيب، ألوفا من النفوس المنتشية سروراً. إطلاقات الفرسان تتواصل مفرقعة. ثم تتغير درجة الصخب مرتفعة فى انفعال. وأخيراً تعلو عليها النغمة النحاسية للأبواق.

الإغراء كبير جداً، ما الذى لدّى لأفقده؟ أفتح الباب. فى وهج يعمى البصر يتحتم علىّ أن أحوّل عينى وأظللهما. أعبر الساحة، اجتاز البوابة وأنضم إلى مؤخرة الحشد. تستمر الإطلاقات وصخب التهليل. المرأة العجوز ذات الملابس السوداء التى تقف إلى جوارى تأخذ بيدى لتوازن نفسها وهى تقف على أطراف أصابع قدميها. "هل بإمكانك الرؤية؟ "تسأل. أجيب،. "نعم، أستطيع أن أرى رجالاً على ظهور خيل"، ولكنها غير مصغية.

أستطيع أن أرى صفاً طويلاً من رجال يمتطون خيولاً وهم يجتازون، بين رايات مزخرفة، البوابة ويتوجهون إلى وسط الساحة حيث ينزلون من على خيولهم. هناك غيمة من غبار فوق الساحة بأجمعها، ولكننى أراهم يبتسمون ويضحكون: أحدهم وهو ممتط ويده مرفوعة بعلامة النصر، آخر يلوح بإكليل من زهور. يتقدمون ببطء، لأن الحشد يزدحم من

حولهم، يحاولون لمسهم "يقذفون الزهور، يصفقون وأيديهم فوق رؤوسهم من الفرح، يدورون فى حلقات وحلقات تعبيراً عن نشوتهم الخاصة. يندفع أطفال مارين بى، يتدافعون بين أرجل الكبار كى يكونوا أكثر قرباً من أبطالهم. وابل من إطلاقات تأتى إثر وابل من المتاريس التى تشكل خطأ مع الجموع المهللة.

جزء من الخيّالة لا ينزل عن ظهر الخيل، يترأسهم عريف شاب عابس الوجه يحمل الراية الخضراء الذهبية للكتيبة، يمرون من خلال حشد الأجساد المزدحمة حتى النهاية القصوى للساحة، ثم يشرعون بالدوران حول الساحة، يتدفق الحشد ببطء فى أثرهم. تسرى الكلمة مثل نار من واحد إلى من فى جواره: "البرابرة !"

جواد حامل الراية يقاد من قبل رجل يلوّح بعصا ثقيلة ليفسح الطريق أمامه. يأتى خلفه فارس آخر يجر حبلا، يأتى فى نهاية الحبل صف من رجال مربوطين رقبة إلى رقبة، برابرة، عراة كليا، رافعين أيديهم عاليا نحو وجوههم فى وضع غريب وكأنهم جميعا يعانون من ألم الأسنان. للحظة، تنتابنى الحيرة لهيئتهم، للرغبة الحذرة التى يقتفون لها أثر قائدهم، حتى ألمح ومضة معدن، وأفهم فى الحال. أنشوطة بسيطة من سلك تمر عبر لحم يد كل رجل منهم وعبر فتحتين مثقوبتين فى خديه.

إنـــه يجعلهم بوداعة الحملان،" أتذكر أن جندياً كان قد أخبرني بأنه رأى مرة هذا الفعل: "إنهم لا يفكرون في شيء غير البقاء ســاكنين. "ينقــبض قلبي. أدرك الآن أنه ما كان عليّ مغادرة الزنزانة.

أضـــطر إلى أن أدير ظهري بمهارة كي لا أشاهد من قبل اثنين من رجال الحرس الممتطين فرسيهما، يحافظان على نظام المسيرة في الخلف، النقيب حاسر الرأس الذي انتصر الأول هو هــذا، وإلي جــواره عميد الشرطة جول الذي يبدو أنحف قامة واغمق لوناً بعد أشهره التي أمضاها في الحملة.

الحــلقة تكاملت. كل واحد لديه فرصة لرؤية الأسرى البائسين الاثــنى عشــر، كي يؤكدوا لأولادهم أن البرابرة موجودون حقا. يتدفق الحشد الآن، أنا على مضض في أثره، نحو البوابة الكبيرة، حيــث يسد الطريق نصف دائرة من الجنود، حتى لا يتمكن الحشد من التزحزح بعد الضغط عليهم من الأمام والخلف.

أسأل الرجل المجاور لي، "ما الذي يجري؟"

يقول، لا أدري، ولكن ساعدني في رفعه. "أساعده في رفع الطفــل الذي يحمله على ذراعه إلى كتفيه. يسأل الطفل، "هل بإمكانك الرؤية؟"

"نعم."

"ماذا يفعلون؟"

إنهم يرغمون البرابرة على الركوع. ما الذى سيفعلونه بهم؟"

"لا أعرف. دعنا ننتظر ونر."

ببطء، بقوة هائلة، بكل قوتى، أستدير وأبدأ فى دفع جسدى خارج الحشد. أقول، "اعذرنى... اعذرنى...، الحر- سيغمى عليّ وللمرة الأولى أرى رؤوساً تستدير وأصابع تشير.

يتحتم عليّ العودة إلى زنزانتى. وهى كحركة لن يكون لها أى تأثير، وقد لا تلاحظ أيضاً. وعلى الرغم من ذلك، ومن أجل نفسى، كإيماءة لنفسى فحسب، يتحتم على أن أعود إلى البرد والظلمة وأغلق الباب وأثبت المفتاح وأصم أذنىّ عن أصوات وطنية متحرقة للدماء وأضم شفتىّ وأن لا أتكلم قط ثانية.

من يدرى، ربما أقترف أنا ظلماً تجاه رفاقى من أهل البلدة. لربما أن صانع الأحذية يدق فى هذه الدقيقة الحذاء الذى بيده ويضعه فى القالب، يدندن لنفسه ليتخلص من الأصوات العالية، وربما أن هناك ربات بيوت يقشرن البازلاء فى مطابخهن، يروين قصصاً من أجل إلهاء أطفالهن الأرقاء، ربما أن هناك مزارعين ما يزالون يواصلون إصلاح مصارف مياههم. إن وجد رفاق مثل هؤلاء، كم هو أمر مؤسف أنى لا أعرفهم! بالنسبة لى، فى هذه اللحظة التى أبتعد فيها بخطوات واسعة عن الحشد، ما يهمنى أكثر من أى شيء سواه هو أن لا أدنس بهذا العمل الشنيع الذى سيُقترف، ولا أسمم نفسى بكراهية عاجز

تجاه مرتكبيها. لأتحدث عن الأمر بأبسط ما يمكن التكلم عنه، إن جـاء قـط يوم وتحدثوا عنه، إن كان هناك قط أحد ما فى مرحـلة من مراحل المستقبل البعيد اهتم أن يعرف طريقتنا فى العيـش، إنـه فى هذا المخفر الأمامى الأبعد من إمبراطورية النور، وُجِدَ رجل واحد لم يكن من أعماق قلبه بربرياً.

أجتاز بوابة الثكنات إلى ساحة سجنى. عند حوض الماء فى منتصـف السـاحة، ألتقط دلوا فارغاً وأملؤه. الماء يتناثر من أطـراف الدلو وأنا أحمله مرفوعاً أمامى، وأقترب من مؤخرة الحشـد ثانية. "معذرة،" أقول وأدفع تشتمنى الناس، وتفسح لى الطـريق، يميل الدلو ويطرطش الماء، أجرى إلى الأمام حتى أبـدو فجـأ جلياً فى مقدمة الصف الأمامى للحشد خلف ظهر الجـنود الذين يمسكون بعوارض بين الواحد منهم والآخر، كى يحافظوا على إخلاء الجزء الوسط من الساحة لما سيكون عبرة للمشاهدين.

أربعة من السجناء يركعون على الأرض. الثمانية الآخرون مـا يزالون موثقين، يجلسون القرفصاء في ظل جدار، يرقبون وأيديهم على خدودهم.

ينحـنى السـجناء الراكعون جنباً إلى جنب فوق عمود ثقيل طويل. يمتد حبل من عقدة السلك عبر فم الرجل الأول. ثم من تحـت العمـود، وأعـلى إلى عقدة الرجل الثانى، ومن تحت

العمـــود، أعلى إلى العقدة الثالثة، من تحت العمود، عبر العقدة الـــرابعة. بيـــنما أرقـــب جنديا، ينتزع الحبل ببطء ويشدّه قوياً وينحـــنى الســـجناء أكثر وأكثر حتى يركعوا أخيراً ووجوههم تلامـــس العمـــود. أحدهم يلوى كتفيه متألماً متأوهاً، الآخرون ساكتون، تتركز أفكارهم تماماً على التحرك بنعومة مع الحبل، لئلا يمنحوا الحبل فرصة لتمزيق أجسادهم.

مـــن يقـــود الجند بإشارات طفيفة من يده هو العميد جول. وعـــلى الـــرغم من أننى لست الشخص الوحيد فى حشد يضم الآلاف، وعلى الرغم من كون عينيه مظللتين كما فى السابق، أحدق أنا فيه بصلابة بوجه يشرق بالتساؤلات لأننى أعرف أنه يرانى فى الحال.

اسمع من خلفى بوضوح كلمة القاضى. أترانى أتخيل الأمر أم أن من بجوارى بدأوا يبتعدون عنى؟

يتقدم العميد إلى الأمام. وبالتتابع ينحنى عند كل سجين يفرك حفنة من تراب على ظهره العارى ويكتب بعصا من فحم نباتى كـــلمة. أقرأ الكلمات بالمقلوب: عدو... عدو... عدو... عدو. يعـــود إلى الـــوراء ويثـــنى ذراعيه. ومن مسافة لا تزيد عن عشرين خطوة يتأمل أحدنا الآخر.

يـــبدأ بعدئـــذ الضـــرب. يستخدم الجنود عصياً من القصب الأخضـــر المـــتين، ينزلونها فى لطمات ثقيلة، أشبه بأصوات

صـــادرة عن اللوح الخشبى الذى تغسل عليه الملابس، مسببة آثـــارا حمراء على ظهور السجناء وأردافهم. بحذر شديد، يمد السجناء سيقانهم حتى يستلقون تماما على بطونهم، كلهم ما عدا السجين الذى يتأوه والذى يلهث الآن بشدة اثر كل ضربة.

الفحـــم النباتى الأسود والتراب الأصفر يبدآن بالسيلان مع العـــرق والـــدم. اللعـــبة، كمـــا افهم، هى ضربهم حتى تتآكل ظهورهم تماماً.

أرقـــب وجه فتاة صغيرة تقف فى الصف الأول من الحشد قابضة على ملابس والدتها. عيناها مدوّرتان، إبهامها فى فمها: ســـاكنة، خائفـــة، فضـــولية، تتشرّب مشهد رجال كبار عراة يضـــربون أمامهـــا. عـــلى كـــل وجه منٍ حولى، حتى أولئك المبتســـمون، أرى التعبيرٍ نفسه: ليس حقداً، ليس رغبة لإراقة دم، بل فضول متوتر جداً إلى الحد الذى تستنزف فيه أجسادهم، وتبقى أعينهم نابضة بالحياة، أعضاء لشهوة جديدة وضاربة.

علامـــات الإنهاك تبدو على الجنود الذين يتولون الضرب. يقـــف واحـــد منهم ويداه على ردفيه لاهثاً، مبتسماً، مشيراً إلى الحشد. تبدر كلمة من العميد جول: يتوقف الأربعة عن عملهم وينقدمون إلى الأمام يعرضون عصيّهم للمشاهدين.

فـــتاة ضـــاحكة، تـــوارى وجههـــا، تُدفع إلى الأمام من قبَل صـــديقاتها. يلححن عليها، "اذهبى لا تكونى خائفة! جندى يضع

العصـــا فى يدها ويقودها إلى المكان. تقف مرتبكة، حائرة، يدها ما تزال على وجهها. تنهال عليها الصيحات، دعابات، توصيات مشـــينة. تـــرفع العصــــا، تهبط بها بقسوة على ردفى السجين، تسقطها أرضاً، وتعدو إلى الأمان إلى عاصفة من تصفيق.

هـــناك تدافـــع عـــلى العصى، يحافظ الجنود بصعوبة على الـــنظام، يختفى عنى منظر الأسرى وهم على الأرض، بسبب من تدافع الناس إلى الأمام لأخذ دورهم أو ببساطة، للتفرج على الضرب من مكان أقرب. أقف منسياً والدلو بين قدمى.

ينـــتهى الجـــلد بعدئذ، يعاود الجنود إصرارهم على حقهم، يـــتدافع الحشد إلى الوراء، تهيأ الساحة مجدداً، على الرغم من أنها قد أصبحت الآن أضيق من ذى قبل.

يمســـك العميـــد جول بمطرقة فوق رأسه، يعرضها للحشد، مطرقة اعتيادية، وزنها أربعة أرطال، تستعمل لدق وتد الخيمة، ثانية، تلتقى نظراته لنظراتى: تهدأ البلبلة.

"لا!" اسمع الكلمة الأولى من حنجرتى، صدئة، غير مرتفعة إلى درجـــة كافية. ومرة ثانية: "لا!" ترن الكلمة فى هذه المرة مثلى جرس فى صدرى. الجندى الذى يسدّ طريقى يتعثر جانباً. فى الحلبة أنا، رافعاً ذراعىّ لتهدئة الحشد: "لا! لا! لا!"

عـــندما أستدير نحو العميد جول الجدار واقفاً على بعد أقل

مـــن خمس خطوات منى، أشير بأصبعي نحوه. أصيح، "أنت" لأدع كـــل مـــا أريده يقال، لأجعله الشخص الذى يتكسر عليه غضبى.

"إنك تفسد هؤلاء الناس"

إنه لا يجفل، لا يجيب.

"أنـــت!" يدى تشير نحوه مثل بندقية، صوتى يملأ الساحة. صـــمت شـــامل هناك، أو ربما، إننى جد ثمل بفعلتى إلى الحد الذى لا اسمح فيه شيئاً.

شـــيء ما من الخلف يشق طريقه نحوى بجلبة. انبطح على التراب، ألهث بشدة، أحس بلفحة الألم القديمة فى ظهرى. عصا تـــنحط علىّ، أمدّ يدى محاولاً الذود منها، أتلقى ضربة صاعقة على يدى.

وفـــوقى يصبح ضرورياً، مهما يكن صعباً بسبب الألم الذى يبعـــثه. أقف على قدمىّ وأتبيّن من هو ذلك الذى يضربنى. إنه الـــرجل المتين الذى يحمل شارة الرقيب والذى أسهم فى عملية الضـــرب.جاثم على ركبتيه، فتحتا أنفه تستشيطان غيظاً، يقف والعصـــا مـــرفوعة للضـــربة الثانية، "انتظر! "ألهث ماداً يدى المترنحة. "أعتقد أنك قد كسرتها!" يضرب، أتلقى الضربة على ســـاعدى. أخـــفى يـــدى، أخفض رأسى، وأحاول أن أتحسس طريقى نحوه وأتماسك معه بالأيدى. تنهال ضربات على رأسى

وكتفى. لا بأس: كل ما أريده هو بضع لحظات لإنهاء ما أقوله الآن والـــذى بدأته. أمسك بسترته وأجذبه إليّ وعلى الرغم من صـــراعه، فإنـــه لا يقدر على استعمال عصاه، من فوق كتفه، أصيح ثانية:

"ليـــس بتلك!" أصيح" المطرقة تضطجع محمية بين ذراعى العميـــد المتينـــتين "لســـت بقادر على استعمال المطرقة علي بحيـــوان، ليـــس على حيوان!" فى اندفاعة رهيبة من غضب، أســـتدير نحو الرقيب وأقذفه بعيداً عنى. قوة إلهية قوتى. وهى فى دقيقة ستتلاشى: لأستخدمها بشكل جيد فى وقت وجودها!

"أنظـــر!" أصـــيح. أشير إلى السجناء الأربعة المستلقين على الأرض باستســـلام، شـــفاههم عـــلى العمـــود، أيديهم، ممسكة بوجوههـــم مـــثل مخالب قرد، غافلين عن المطرقة، جاهلين ما يـــدور خـــلفهم، مـــرتاحين لأن علامـــة الإساءة قد صدّت عن ظهورهـــم، آمـــلين أن العقوبـــة قـــد وصلت نهايتها. أرفع يدى المكســـورة إلى الســـماء. أصـــيح، "أنظـــر! نحن معجزة الخلق الكبرى! ولكن هذا الجسد المعجز لا يستطيع إصلاح نفسه بفعل بعـــض الضـــربات! كيف! "تخذلنى الكلمات. "أنظر إلى هؤلاء الـــرجال!" أعيـــد الكرة "رجال" أولئك الذين فى الحشد القادرين على أن يشرئبوا بأعناقهم للنظر إلى السجناء، وحتى نحو الذباب الذي يبدأ فى الاستقرار على ندوبهم النازفة، يبدأون بالهيجان.

أسـمع الضـربة وهى تنزل، أستدير لألاقيها. تتلقانى فوق الوجـه تماماً. "أنا أعمى! "أعتقد ذلك، مترنحاً إلى الخلف نحو الظـلمة الـتى تسقط فى الحال. أبتلع دماً، يبرز شيء ما فجأة عـلى وجهى، مبتدئاً بدفء متفائل، متحولاً إلى ألم متقد. أخفى وجـهى فى يدىّ وأضرب الأرض بقدمىّ فى دائرة من حولى محاولاً ألا أصرخ: محاولاً ألا أسقط.

مـا أردت أن أقولـه بعدئذ، لا أقدر على تذكره. معجزة الخلق أتعقب الفكرة ولكنها تتملص منى مثل حزمة من دخان. يخطـر بـبالى أنـنا نسحق الحشرات تحت أقدامنا، إنها أيضاً معجزات الخلق، خنافس، ديدان، صراصير، نمل، فى حالاتها المختلفة.

أرفع أصابعى عن عينى وعالم رمادى ينبعث مجدداً سابحاً فى دمـوع. أنا ممتن بعمق لأننى توقفت عن الإحساس بالألم. بينما أدفع أنا، رجل عند كل مرفق، عائدا عبر الحشد المدمدم، إلى زنزانتى، بل وحتى أجد نفسى مبتسماً.

تلك الابتسامة وتلك الفورة من الفرح، تترك وراءها رواسب تـثير القـلق. أعرف أنهم يقترفون خطأ فى التعامل معى بهذه السـرعة، أنـا لست بخطيب. فماذا كان بمقدورى أن أقول إن كـانوا قـد سمحوا لى بمواصلة الكلام؟ ذلك أنه من الأسوأ أن تضـرب قدمـا رجل حتى تتحولا إلى عجينة من أن يقتل فى

معـــركة؟ إنه أمر يجلب العار على كل واحد عندما يسمح لفتاة أن تجـــلد رجـــلا؟ وإن مشـــاهد القســـوة تفسد قلوب الأبرياء! الكـــلمات التى منعونى من قولها ربما كانت جديرة بالازدراء، نـــادراً ما تقدر الكلمات على إثارة الرعاع. ماذا أمثل أنا، بعد كـــل شيء، غير مبادئ وقواعد رجل ينسجم سلوكه مع مقياس رفيـــع من مقاييس السلوك الحسن تجاه أسرى أعداء، وما الذى أقف أنا ضده فضلاً عن العلم الجديد للانحطاط الذى يقتل الناس وهـــم راكعون، مرتبكون ومتجردون من الكرامة أمام أنفسهم؟ ياليتـــنى لـــم أجرؤ على مواجهة الحشد وطلب العدالة لهؤلاء السجناء البرابرة المثيرين للسخرية ومؤخراتهم معروضة على المـــلأ؟ العدالة: حالما تطلق تلك الكلمة، إلى أين سينتهى الأمر برمـــته؟ الأســـهل أن تصرخ لا! الأسهل أن تتعرض للضرب وتصـــبح شهيداً. الأسهل أن أدفن وأن يوضع رأسى على كتلة من حجر من أن أدافع عن قضية العدالة بالنسبة للبرابرة: فإلى أيـــن بإمكان تلك المناقشة أن تقودنا إلا إلى التخلى عن سلاحنا وفـــتح بوابات البلدة لأناس قمنا باغتصاب أراضيهم؟ القاضى القديم، المدافع عن حكم القانون، عدو بطريقته الخاصة للدولة، يُعـــتدى عـــليه ويسجن، الفاضل فوق الشك، ذلك لن يكون من غير استشعاره بوخز من ارتياب.

أعلم أن أنفى مكسور، وربما عظمتا الخد أيضاً حيث انفتح لحم بشرتى بضربة العصا. عينى اليسرى متورمة إلى حد أنى لا أقدر على فتحها.

فى الوقـــت الذى ينقضى فيه الحذر، يبدأ الألم يعاودنى فى تقلصـــات بين دقيقة أو اثنتين ما عدا شدة الانفعال الذى أنا فيه وهـــو مـــا يجعلنى غير قادر بعد علي التمدد ساكناً. عند ذروة التقلص، أسير فى أرجاء الغرفة قابضاً على وجهى، أعوى مثل كلب، أتنفس بعمق فى الوديان المباركة ما بين ذروات التقلص، محـــاولاً أن أحتفظ بالسيطرة على نفسى، محاولاً أن تبدر مني صيحة عالية مخزية جداً. يخيل إلىّ أنى أسمع جيشاناً وهجوماً مؤقتاً فى الصوت الصادر عن الغوغاء فى الساحة، ولكننى لا أقدر على التأكد من أن ذلك الهدير هو ببساطة ليس فى طبلتى أذنى.

يجلـــبون لى وجبة المساء كالمعتاد، ومع ذلك لا أستطيع أن أتناوـــله. لا أقدر على البقاء ساكناً، أضطر إلى السير إلى الأمام والى الخـــلف أو أن أتـــأرجح علي عجزى كى أمنع نفسى من الصـــراخ، ممـــزقاً ملابسى، ناشباً أظافرى فى لحمى، فاعلا أى شىء، يفعله الناس عندما يتجاوزون حدود تحملهم. أبكى، وأحس بالدموع تلسع لحمى المفتوح. أدندن بالأغنية القديمة عن الفارس ودغل العرعر مرات ومرات، متشبثاً بالكلمات التى أتذكرها بعد أن فقـــدت كـــل إحساس بها. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... أعد. أقول لنفسى، سيكون نصرا مشهودا إن عشت هذه الليلة.

فى الســـاعات الأولى مـــن الصباح، لما ينتابنى دوار شديد

بسـبب الـتعب، أدور عـند ذلك على قدميّ ثم أستسلم أخيراً وأنـتحب مـن أعمـاق قلبى مثل طفل: أجلس فى زاوية فى مواجهة الجدار وأنخرط فى البكاء، تسيل الدموع من عينى بلا توقـف. أبـكى ثم أبكى بينما طلقات الألم تأتى وتروح حسب دوراتهـا. يـندفع النوم صوبى وأنا فى مثل هذه الحالة، مثل صـاعقة. أنذهـل وأنـا أعود إلى نفسى فى الضوء الشاحب الـرمادى للنهار، مترهلا فى إحدى الزوايا، دون أى إحساس ولـو ضـئيل بمرور الزمن. وعلى الرغم من تواصل طلقات الألم، أتبين أننى قادر على تحملها، إن بقيت ساكناً. في الحقيقة، لقـد فقـدت غرابتها. وهى سرعان ما ستكون جزءاً منى كما التنفس.

وهكذا أتمدد بهدوء تجاه الجدار، أثنى ذراعى الملتهبة تحت إبطى ابتغاء الراحة وأغرق فى النوم ثانية، إلى بلبلة من صورٍ مـن بيـنها واحـدة أسبر غورها بدقة وبشكل خاص، دافعاً الأخـريات التى تطير نحوى جانبا مثل أوراق شجر. إنها عن الفـتاة. جاثمـة هى وظهرها نحوى أمام قصر الثلج أو قصر الرمال الذى تبنيه. وهى ترتدى ثوباً داكن الزرقة، عند اقترابى منها، أجدها تحفر فى جوف القصر.

تحـس بوجودى وتستدير. لقد كنت مخطئاً. إنه ليس قصرا ذلك الذى تبنيه ولكن فرنا من صلصال. يتصاعد الدخان ملتويا

إلى أعلى من منفذ إلى أعلى. تمد ذراعيها نحوى تقدم لى شيئاً، كتــلة بـــلا شكل، أتطلع إليها أنا، من غير رغبة عبر ضباب. ومع أننى أحرك رأسى، فإن الرؤية لا تتوضح أمامى.

إنهـــا ترتدى قبعة مستديرة مطرزة بالذهب. شعرها مجدول فى ضـــفيرة ثقيلة تستقر على كتفيها: هناك خيوط ذهبية تتخلل الضـــفيرة. أريد أن أسأل،" لماذا ترتدين أفضل ثيابك، لم أرك مطـــلقا تـــبدين بمـــثل هذا الجمال؟ تبتسم لى: يا لها من أسنان جميـــلة تلك التى تمتلكها، وأى عينين صافيتين بلون الكهرمان الأسود! كما أننى أستطيع أن أرى الآن من أن ما تقدمه لى هو رغيـــف خـــبز، ما يزال ساخناً، بقشرة خشنة متكسرة يتصاعد منها البخار. تجتاح كيانى موجة عارمة من الامتنان. أريد أن أقول، "من أين تعلمت طفلة مثلك أن تخبز بهذا الشكل الجيد فى الصـــحراء؟ أفـــتح ذراعى لاحتضـــانها، ثم أعود إلى وعيى والدمـــوع تلسع الجرح الذى فى خدى. وعلى الرغم من أننى أحبو فى الحال عائداً إلى جحر النوم فإننى لا أقدر على الدخول ثانية إلى الحلم أو أتذوق مذاق الخبز الذى جعل لعابى يسيل.

* * *

يجلس العميد جول خلف المكعب فى غرفتى. لا توجد هناك كـــتب أو ملفات، الغرفة خالية تماماً ما عدا زهرية فيها ورود قطفت تواً.

يــرفع ضابط الصف الوسيم الذى لا أعرف اسمه، الخزانة المصــنوعة من خشب الأرز ويضعها على المكتب ثم يتراجع إلى الخلف.

يــتحدث العميــد جول، وهو ينظر فى أوراقه، "كانت هذه الخزانة الخشبية من بين الحاجيات التى وجدت فى شقتك. أود منك أن تتأمل الأمر. محتوياتها غير اعتيادية. وهى تحوى نحو ثلاثمائــة شــريحة من خشب الحور الأبيض. كل واحدة منها ثمانيــة فى اثــنين انج تقريباً، الكثير منها ملفوفة بأطوال من الخيــط. الخشــب جاف وهش. بعض الخيوط جديدة وبعضها قديمة إلى درجة التلف.

"إن حــلّ أحد ما خيطاً سيجد أن الشريحة تنفتح كاشفة عن ســطحين مســتويين داخليين. هذه الأسطح المستوية، مكتوب عليها بخط غير معهود."

"أعتقد أنك ستؤيد هذا الوصف."

أحدق فى العدستين السوداوين. يواصل كلامه.

"الاســتنتاج المقنع هو أن الشرائح الخشبية تتضمن رسائل تــبودلت بيــنك وبيــن جماعات أخرى، لا نعرف متى، الأمر متروك لك لشرح ما هو مكتوب على هذه الرسائل ومن كانوا الجماعــات الأخــرى." يتــناول شريحة من الخزانة ويدفعها

بضربة خفيفة عبر السطح الأملس الصقيل للمكتب نحوى.

أتطـلع فى خيوط الأبجدية المكتوبة من قبل شخص غريب مات منذ زمن بعيد. لا أعرف أنا إن كانت تقرأ من اليمين إلى اليسـار أو مـن اليسار إلى اليمين. فى الأمسيات الطويلة التى أمضـيتها مـتأملاً فيهـا مجموعتى، كنت قد أفرزت أكثر من أربعمائـة رمز مختلف فى النص، أو ربما أربعمائة وخمسين. لا أمتـلك فكرة عن المعانى التى ترمز إليها. هل إن كل واحد منها يشير إلى شيء مفرد، دائرة للشمس، مثلث للمرأة، موجة للـبحيرة، أم أن الدائـرة تعـني "الدائـرة" فحسـب والمثلث هو"المثلث" والموجة هى "الموجة"؟ هل إن كل رمز يمثل حالة مختلفة للسان، الشفتين، الحنجرة، الرئتين، كما تجمع سوياً عند الـنطق فى بعض اللغات البربرية المتنوعة المنقرضة؟ أم أن رمـوزى الأربعمائة لا تعنى شيئاً بل مجرد شخبطات زخرفية لمجموعـة أساسـية من عشرين أو ثلاثين صيغة، لا أقدر أنا ضـمن إمكانياتى العقلية على فهمها؟ أقول، "إنه يبعث بتحياته إلى ابنـته،" أسـمع بعجب الصوت الأخن الثخين الذى أصبح صوتى الآن. تمضى أصابعى متلمسة سطر الرموز من اليمين إلى اليسـار. "والتى كما يقول لم يرها منذ زمن بعيد. إنه يأمل أن تكـون سـعيدة، ناجحة. وهو يأمل أن موسم الحملان كان جيـدا. إنه قد هيأ هدية لها، ويقول بأنه سيحتفظ بها لديه حتى يراها ثانية. وهو يبعث حبه. ليس من السهل قراءة توقيعه هذا.

وقد يكون ببساطة "والدك" أو قد يكون شيئاً آخر، اسماً."

أتقـدم مـن الخزانة وألتقط شريحة أخرى. ضابط الصف الجـالس خلف جول، دفتر ملاحظاته مفتوح على ركبته، قلمه مثـبت عـلى الورقـة يحدق نحوى بصلابة. أقول، "تقرأ هذه الشريحة كما يأتى: "إننى آسف لإرسال أخبار سيئة. جاء الجند وأخـذوا أخـاك بعيـداً. لقد ذهبت إلى الحصن بصورة يومية لألتمس عودته. أجلس على التراب ورأسى عار. أمس وللمرة الأولى بعـثوا رجلاً ليتحدث معى. يقول إن أخاك لم يعد هنا. يقـول إنه قد أرسل بعيداً. "أين؟" سألت، ولكنه لم يخبرنى. لا تخبرى والدتك ولكن شاركينى فى الصلاة من أجل سلامته.

"والآن دعونـا نر ماذا تقول الشريحة الثالثة هذه. "القلم ما يـزال مثبتاً وهو لم يكتب شيئا، ولم يتحرك." ذهبنا يوم أمس لاصطحاب أخيك. قادونا إلى غرفة حيث كان مددا على منضدة قـد خيط فى داخل ملاءة؟" يميل جول ببط، مستنداً على ظهر كرسـيه. يغلق ضابط الصف دفتره ويقف نصف وقفة، ولكن جـول بحـركة من يده يهدئه. "أرادوا منى أخذه بتلك الهيئة، ولكنـنى ألححت على إلقاء نظرة عليه. "ماذا لو أنكم تعطوننى جثة أخرى؟" قلت لهم "لديكم أجساد كثيرة هنا، أجساد رجال فى عمـر الشباب." وهكذا فتحت ورأيت انه كان حقاً أخوك. على الرغم من أننى رأيت غرزة على كل جفن. قلت "لماذا فعلتم به

هذا؟" قال، "إنه تقليد نتبعه." مزقت الملاءة وفتحتها على وسعها ورأيــت كدمــات فى كل أجزاء الجثة، ورأيت أن قدميه كانتا متورمــتين ومكسورتين. قلت، "ماذا حدث له" قال الرجل، "لا أعــرف، الأمــر غير مذكور فى الورقة، إن كانت لديك أسئلة عــليك بالذهاب إلى الرقيب، ولكنه مشغول جدا". واضطررنا إلى دفن أخيك هنا، خارج حصنهم، لأنه كان قد بدأ ينتن. رجاء أبلغي والدتك وحاولى مواساتها."

"والآن دعونــا نــر ماذا تقول الشريحة التالية. انظر، هناك رمــز واحد فقط. إنه الرمز البربرى الذى يعنى "حرب"، ولكن لـــه معانى أخرى أيضاً. فهو قد يرمز إلى كلمة انتقام، إن قلبته رأســاً على عقب هكذا، فإنه لذلك يصلح ليقرأ عدالة. ليس من المعلوم أى المعانى هى المقصودة. إنه جزء من مكر البرابرة.

"الأمر نفسه مع بقية هذه الشرائح." أغمد يدى السليمة فجأة فى داخل الخزانة وأقلب ما فيها.

"إنهــا جميعاً تشك قصة رمزية. ويمكن أن تقرأ على وفق ترتيــبات عديــدة. فضــلا عن ذلك، يمكن قراءة كل شريحة منفردة بطرق متعددة. وكلها معا يمكن قراءتها كسجل وطنى، أو تقــرأ كخطة حرب، أو يمكن قلبها على طرفها الآخر وتقرأ كتاريخ للأعوام الأخيرة للإمبراطورية- الإمبراطورية القديمة، ذلك ما أعنيه. ليس هناك اتفاق بين الباحثين حول كيفية تفسير

هذه الذخائر العائدة للبرابرة القدماء. مجموعات ذات استعارات مـــثل هـــذه يمكـــن أن يجدهـــا المرء مدفونة فى سائر أرجاء الصحراء. وقد وجدت هذه المجموعة على مساحة ثلاثة أميال من هنا فى بقايا مبنى عام. المقابر هى مكان جيد آخر للبحث، عـــلى الـــرغم أنـــه ليس من السهل دائماً معرفة مواقع مقابر الـــبرابرة. وينصح عادة أن تحفر ببساطة اعتباطاً، ربما ستعثر في البقعة نفسها التى تقف على قصاصة، كسرة، بقايا الموتى. وأيضاً الهواء: الهواء مليء بتنهدات وصرخات. هذه الأشياء لا تتلاشى مطلقاً: إن أصغيت بانتباه، بأذن متعاطفة، ستسمع رجع صـــداها يـــتردد إلى الأبد فى العالم الثانى. الليل هو الأفضل: عندما تجد فى بعض الأحيان صعوبة فى النوم، ذلك لأن أذنيك قـــد وصلتها صرخات الموتى والتى هى مثل الكتابة، عرضة لتفسيرات عديدة.

"شكرا" لك لقد انتهيت من الترجمة."

لم أخفق فى مراقبة جول طوال الوقت. وهو لم يتحرك من مكانـــه مـــرة أخـــرى، ما عدا وضع يد على كم مرؤوسه في الـــلحظة الـــتى أشرت فيها إلى الإمبراطورية، ووقوفه متأهباً للانقضاض عليّ.

إن تقـــدم منى سأضربه بكل القوة التى يمتلكها جسدى. لن أختفى تحت الأرض دون أن أترك علامة عليهم.

يتكــلم العميــد، "إنــك لا تدرى كم هو ممل تصرفك. إنك الموظــف الأول والوحيــد الذى عيّن للعمل معنا على الحدود والــذى لــم يمنحنا تعاونه التام. بصراحة، يتحتم عليّ إخبارك بأنــنى غير مهتم بهذه العيدان. يشير يداً إلى الشرائح المتناثرة عــلى المكــتب. "مــن المحتمل جداً أن تكون عيدان مراهنة. أعرف أن قبائل أخرى على الحدود تقامر بالعيدان."

"أسألك أن تتمعن برزانة: أى نوع مستقبل يكون لك هنا. لن يســمح لــك البقاء فى وظيفتك. لقد ألحقت العار بنفسك تماما. حــتى إن لــم تحاكم فى آخر الأمر "أصيح، "أنا فى انتظار أن تحاكمونى! متى ستفعلون ذلك؟ متى ستقدموننى إلى المحاكمة؟ مــتى سأمنح فرصة للدفاع عن نفسى؟ "غضب شديد يجتاحنى. لا أثر من عجز اللسان الذى شعرت به أمام الحشد ابتلى به. إن كان عليّ مواجهة هؤلاء الرجال الآن، أمام الناس، فى محاكمة عادلــة فسأجد الكلمات التى ستخزيهم. إنها مسألة صحة وقوة: أحس أن كلماتى الساخنة تنتفخ فى صدرى. ولكنهم لا يقدمون أبــداً رجلا إلى محاكمة وهو يتمتع بصحة وقوة كافية لقهرهم. سيســجنوننى بعيــداً فى الظلام حتى أصبح أبله مدمدماً، شبحا لنفســى، ثــم سيسحبوننى أمام محكمة مغلقة وفى دقائق خمس يتخلصون من الالتزامات القانونية التى يجدونها مملة جدا".

يقــول العميــد جول، "بسبب استمرار حالة الطوارئ، كما

تعلم، فإن إدارة العدالة قد أصبحت خارج نطاق السلطة المدنية وانحصــرت مسؤوليتها فى أيدى المكتب. "يتنهد". أيها الحاكم، يــبدو أنـــك تعتقد من أننا لا نجرؤ على تقديمك للمحاكمة لأننا نخشى كونك شخصاً ذا شعبية كبيرة فى هذه البلدة، لا أتصور أنــك تــعى مــدى خســارتك الكبيرة جراء إهمالك لواجباتك، متحاشيا أصدقاءك، معاشرا أناساً وضيعين. لا يوجد واحد ممن تكــلمت معهــم لم يحس فى وقت من الأوقات بالإهانة جراء تصرفاتك.

"حياتى الخاصة، ليست شأناً من شئونهم!"

"مع ذلك، أود أن أعلمك أن قرارنا بإعفائك من مسؤولياتك قـــد لقى ترحيباً من قبل كافة الأطراف. أنا شخصياً، لا أحمل شــيئاً ضـــدك. حينما عدت من السفر قبل بضعة أيام، كنت قد قـــررت أن كـــل مـــا أردت منك هو جواب واضح عن سؤال بسيط. بعد ذلك كان بإمكانك العودة إلى محظيتك رجلاً حرّاً".

يخطـــر لى فجأة أن الإهانة قد لا تكون بلا مبرر، ذلك أن هذيـــن الرجـــلين وربمـــا لأسباب مختلفة سيرحبان إن فقدت الســيطرة عـــلى أعصـــابى. مشتعلا بالغضب، متوتراً فى كل عضلة، أحافظ على صمتى.

"عـــلى أى حال، يبدو أن لديك طموحاً جديدا"، يمضى فى حديـــثه، "يـــبدو أنـــك تريد أن تخلق لنفسك صيتاً كأنك الرجل

العادل الوحيد، الرجل المستعد للتضحية بحريته من أجل مبادئه.

"ولكن دعني أسألك: هل تعتقد أن تلك هي الكيفية التي ينظر بها إليك أبناء بلدتك بعد المشهد السخيف الذي خلقته في الساحة في اليوم السابق؟ صدقني انت بالنسبة للناس في هذه البلدة لست الرجل الأوحد، إنك ببساطة مهرج، رجل مجنون. إنك قذر، رائدتك نتنة، بإمكانهم أن يشموا رائحتك من مسافة ميل. إنك تبدو مثل متسول عجوز، نفاية حثالة، إنهم لا يريدونك أن تعود بأي صفة. لا مستقبل لك هنا.

"أنت تريد أن يرد اسمك في التاريخ كشهيد. أشك في ذلك. ولكن من ذا الذي سيضعك في كتب التاريخ؟ مشاكل الحدود هذه لا أهمية لها. إنها ستنقضي في مدة زمنية قصيرة ثم تعود الحدود إلى النوم عشرين سنة أخرى. الناس غير مهتمين بتاريخ مكان منعزل".

أقول، "لم تكن هناك اضطرابات حدود قبل مجيئك".

يقول، "هراء، أنت ببساطة جاهل بالحقائق. إنك تعيش في عالم ينتمي إلى الماضي. أنت تعتقد بأننا نتعامل مع جماعات يدوية صغيرة ومسالمة. في الحقيقة أننا نتعامل مع عدو جيد التنظيم. لو كنت سافرت مع قوة الحملة، لكنت اطلعت على ذلك بنفسك".

"أولـــئك الســـجناء المثيرون للشفقة والذين قمت بجلبهم إلى هـــنا- هل لأنهم العدو الذى يتوجب على الخوف منه؟ أهذا ما تقوـــله؟ إنك العدو، أيها العميد!" لم أعد قادرا على كبت ما فى نفسى بعد الآن.

أدق عـــلى المنضـــدة بقبضتى. "أنت العدو، أنت من أضرم الحرب، وأنت الذى أعطيتهم كل الشهداء الذين يحتاجونهم – لم يـــبدأ الأمر الآن ولكن قبل عام مضى عندما اقترفت هنا أول أعمالك البربرية القذرة – سيؤيدنى التاريخ فى ذلك".

"هراء – لن يكون هناك أى تاريخ، القضية تافهة جداً". يبدو غير متأثر، ولكننى واثق من أننى قد جعلته يهتز.

"أنك داعر تمارس التعذيب. إنك تستحق الشنق".

يدمدم، "هكذا يتحدث القاضى، الرجل العادل الوحى".

يحدق أحدنا فى عينى الآخر.

يقول، مرتباً الأوراق أمامه: "الآن، أود الحصول على بيان بكل ما جرى بينك وبين البرابرة فى زيارتك الأخيرة لهم غير المصرح بها".

"أنا أرفض".

"حســـن جدا". مقابلتنا قد انتهت". يستدير نحو مساعده، "إنك المسؤول عنه. "يقف، يسير خارجاً.

أواجه ضابط الصف.

* * *

الجـــرح الـــذى على خدى، لم يغسل أبداً ولم يضمد، وهو مـــتورم وملـــتهب. تشكلت عليه قشرة مثل يرقة سمينة. عينى اليسرى مجرد شق طويل، أنفى كتلة مختلجة لا شكل له. يتحتم على أن أتنفس عبر فمى.

أســـتلقى أنــــا فى مكان تفوح منه رائحة قىء قوية ومزمنة، مشغول البال بفكرة الماء. لم أجد شيئاً أشربه منذ يومين.

لا يوجد ما يشرف فى معاناتى. القليل مما أسميه معاناة هو الألم المطرد. ما أرغمت على تحمله خاضع لأهم الاحتياجات الأوليـــة لجسدى: أن أشرب، أن أفرج عنه، أن أجد الوضعية الأفضـــل مـــن أجل تفادى الألم. عندما أعادنى ضابط الصف ماندل ومساعده إلى هنا للمرة الأولى، وأضاء المصباح وأغلق الـــباب، أذهل لمقدار الألم الذى سيكون فى قدرة رجل عجوز سمين أن يتحمله باسم أفكاره المنحرفة حول الكيفية التى يتحتم على إمبراطورية أن تدير نفسها. ولكن القائمين على تعذيبى لم يكن يعنيهم درجات الألم. كل ما كان يهمهم هو أن يبرهنوا لى ماذا يعنى العيش فى جسد، مثل جثة، جسد لا يمكنه أن يضمر أفكـــاراً عـــن العدالـــة إلا فى دوام كونه سالما ومعافى، وهو سرعان ما سينساها عندما يقبض بقوة على رأسه وتدفع أنبوبة إلى بـــلعومه ويصب فيها مقدار ثمن غالون من ماء مملح حتى يبدأ بالسعال ويحاول التقيؤ، ويضرب بعصا ويفرغ نفسه. إنهم

لـم يجيئوا لإرغامى على قول حقيقة ما قلته للبرابرة وما قاله البرابرة لى. ولهذا لم تتوفر لى فرصة لإلقاء الكلمات الرنانة الجاهـزة فى وجوههم. جاءوا إلى زنزانتى ليظهروا لى معنى الإنسانية، وفى خلال ساعة من الزمن أظهروا لى الكثير منه.

* * *

وليسـت هى مسألة من الذى يتحمل أطول. اعتدت أن أفكر فى حالـتى، "إنهم يجلسون فى غرفة أخرى يبحثون فى أمرى. وهـم يقولـون بعضهم لبعض"، "كم سيدوم الأمر قبل أن يعفر وجهه بالتراب؟ سنعود إليه فى غضون ساعة أخرى ونرى".

ولكن الأمر ليس كذلك. إنهم لا يملكون نظاماً مدروساً" للألم والحـرمان الذى يخضعوننى له. أعيش يومين بلا طعام وماء. فى اليـوم الثالث أطعمت. "أنا آسف". يقول الرجل الذى يجلب طعامى، "لقد نسينا". الأمر ليس حقداً ذلك الذى جعلهم ينسون. القـائمون على تعذيبى لهم حياتهم الخاصة التى يعيشونها. أنا لسـت مركز كون لهم. من المحتمل أن مساعد ماندل، يمضى أيامه فى عد الأكياس فى مخزن التموين أو يكشف على أعمال الحفـر الهندسية، متذمراً فى نفسه من حرارة الجو. أما مانديل نفسـه، فأنـا واثق من أنه يمضى وقتاً أكثر فى تلميع شريطه المعـدنى وأزراره من ذلك الوقت الذى ينفقه عليه وهو عندما يحـلو له المزاج يأتى ويلقننى درساً فى الإنسانية. كم من زمن

أحـــتاج كى أصـــمد أمام خبطاتهم العشواء؟ وماذا سيحدث إن استسلمت، بكيت، تذللت، بينما يستمر فى الوقت نفسه هجومهم على؟

ينادوننى إلى الساحة. أقف أمامهم خافياً عريى، مدارياً يدى المـــتورمة. دب عجـــوز دُجّـــن بفعل هجمات متواصلة. يقول مانديل: "اركض". أركض حول الساحة تحت الشمس الملتهبة. عندما أرتخى يضربنى بخيزرانته على عجزى فأسرع راكضاً. يتخـــلى الجـــنود عن قيلولتهم ويرقبون من مواضعهم الضليلة، الخادمـــات المكـــلفات بغسل الأوانى يستندن إلى باب المطبخ، أطفال يحدقون من خلال قضبان البوابة. "لا أقدر!" ألهث بشدة. "قلبى! أتوقف، أنكس رأسى، أنشب أظافرى فى صدرى. ينتظر كل واحد بصبر حتى أسترد أنفاسى. ثم تتخسنى العصا وأستمر فى السير متثاقلاً، لا تزيد خطوتى عن سير رجل.

أو بطريقة أخرى أقوم بأعمال معينة لهم. يقومون بمد حبل بعـــلو ركبة وأقفز أنا من فوقه إلى الأمام وإلى الخلف. ينادون على الحفيد الصغير للطباخة ليحضر ويعطونه طرفاً من الحبل ليمسك به. "احتفظ به ثابتاً". يقولون، "لا نريده أن يعثر. "يمسك الولـــد بطـــرف من الحبل بكلتا يديه، مركزا على هذا الواجب المهم، منتظراً إياى أن أقفز. أتوقف فجأة. رأس الخيزرانة تجد طـــريقها إلى مـــا بيـــن ردفى وتنخس. يدمدم مانديل، "اقفز".

اركــض، أطفر قفزة صغيرة، أتخبط على الحبل، وأقف هناك. أشم رائحة غائط. غير مسموح لى بالاغتسال. يلاحقنى الذباب فى كــل مكــان، محوماً حول الورم المثير للشهية فوق خدى، تحــط إن وقفــت ثابتاً دقيقة واحدة. الحركة المحلقة ليدى أمام وجهى لمطاردتهم قد غدت آلية مثل ضربة ذيل البقرة الخاطفة.

يقول مانديل للولد: "قل له إن عليه أن يقفز أفضل فى المرة القادمــة". يبتسم الولد ويتطلع بعيداً. أجلس فى التراب منتظراً العمــل التالى. يقول للولد، "هل تعرف كيف تطفر الحبل؟ أعط الحبل للرجل واطلب منه أن يعلمك كيف تطفر". واطفر.

المــرة الأولى كلفتنى عذابات من خزى عندما اضطررت إلى الخروج من خلوتى والوقوف عاريا أمام هؤلاء التافهين أو أهــز جسدى هنا وهناك من أجل إمتاعهم. قد تجاوزت الخزى الآن. يــتوجه تفكيــرى تمامــاً لخطر اللحظة التى تتبلل فيها ركبــتاى أو أحس أن قلبى يتشبث بى كسرطان، وعندئذ يكون عــلى أن أقــف ساكناً، وفى كل مرة أكتشف بدهشة أننى بعد اســتراحة قصــيرة، بعــد تطــبيق عملى للقليل من الألم، أنه بالإمكــان أن أدفــع إلى الــتحرك، القفز، الطفر، أو الحبو أو الــركض بصورة أسرع. هل هناك مرحلة ما سأستلقى عندها أرضاً وأقول، "اقتلونى – أنا أفضل الموت على الاستمرار فى الحيــاة؟" أعــتقد أحيانا أننى أقترب من تلك المرحلة، ولكننى أكون على خطأ باستمرار.

ليس هناك من عزاء مهيب فى أى من هذه. وعندما أستيقظ متأوهاً فى الليل ذلك لأننى أحيا فى أحلامى ثانية أحقر حالات الخـــزى. ليست هناك من طريقة للموت مباحة لى، كما يبدو، غير أن أموت مثل كلب فى زاوية ما.

* * *

بعدئـــذ وفى أحـــد الأيـــام أطلقوا الباب مفتوحاً، وأخطو أنا خارجـــاً لا لـــكى أواجه رجلين بل فرقة واقفة فى حالة انتباه. يقول مانديل، "الآن"، يناولنى ثوباً قطنياً نسائياً، "البس هذا".

"لماذا؟"

"حسن جداً، إن أردت الذهاب عارياً، اذهب عارياً".

أمرر الثوب من فرق رأسى. انه يصل إلى منتصف فخذى. ألمح نظرات خاطفة من خادمتين شابتين وهما تسرعان السير عـــائدتين إلى المطبخ وتذوبا ن قهقهة. رسغاى مدفوعان نحو ظهـــرى ومقيـــدان، يهمس مانديل فى أذنى "لقد آن الأوان أيها الحـــاكم، تصرف كأفضل ما يكون كرجل". أستطيع شم رائحة الكحول فى أنفاسه، بكل تأكيد.

يسيرون بى إلى خارج الساحة. وهناك تحت أشجار التوت حيث الأرض أرجوانية من أثر عصير ثمار التوت المتساقطة، يقـــبع مجموعـــة مـــن الأشخاص فى الانتظار. بعض الأطفال

يتسلقون فروع الأشجار. عندما أقترب يخيم الصمت على الجميع.

يرخى جندى طرف حبل جديد من القنب أبيض اللون، يقذفه إلى أعلى، يلتقطه واحد من الأطفال من على الشجرة، يعقده على غصن، ثم يسقطه تحت.

أعرف أن الأمر مجرد خدعة، وسيلة جديدة لتمضية وقت الأصيل لرجال ملوا رسائل التعذيب القديمة، مع ذلك فإن أحشائى امتلأت بولاً. أهمس، "أين العميد؟" لا أحد يبالى.

يقول مانديل، "هل تريد أن تقول شيئاً؟ قل ما تتمناه؟ نحن نمنحك هذه الفرصة".

أنظر فى عينيه الصافيتين الزرقاوين وكأنهما عدستان بلورتان شفافتان قد انزلقتا فوق كرتيهما. يتطلع فىّ بالمقابل، ليست لدىّ فكرة عما يدبره. مفكراً فيه رددت مع نفسى كلمتى عذاب... معذب، ولكنهما كلمتان غريبتان، وكلما رددتهما أكثر، تزدادان غرابة حتى تستقران مثل حجرتين على لسانى. قد يكون هذا الرجل والرجل الآخر الذى يجلبه معه لمساعدته فى عمله وعميدهما، من المعذبين، وربما أن هذا هو عنوان وظيفتهم المكتوبة على ثلاث بطاقات فى مكتب دفع النقود فى مكان ما فى العاصمة، مع أن الأمر الأكثر احتمالاً أن البطاقات تصفهم بضباط أمن. مع ذلك، عندما أتطلع إليه أرى ببساطة

عيـــنين زرقاوين صافيتين، الملامح الصارمة الجذابة من غير ريب، الأسنان أطول بعض الشيء من المعتاد في حين تتراجع اللـــثة. إنه يتعامل مع نفسي. يطوى في كل يوم بشرفي جانباً ويعـــرض روحي للنور، من المحتمل أنه قد شاهد عدداً كبيراً مـــن النفوس عبر مسيرة حياته العملية، ولكن يبدو أن الاهتمام بالـــنفوس لم تترك أثراً اكثر مما يتركه الاهتمام بالقلوب على الجراح.

أقول، "إننى أحاول جاهداً أن أفهم مشاعرك تجاهى". لا أقدر أن أمنع نفسى من التمتمة، صوتى غير ثابت، أحس بالخوف، والعـــرق يتســـاقط منى. إنها أكثر بدرجات من كونها فرصة كـــبيرة أن أخاطب هؤلاء الناس الذين ليس لدىّ ما أقوله لهم، هـــل لى أن أطلب كلمات قليلة منك وسأضعها موضع التقدير. مـــن أجـــل فهـــم الدافع الذى جعلك تكرس نفسك لهذا العمل. وأستطيع أن أسمع ما تحسه تجاهى، أنا من آذيتنى كثيراً ويبدو الآن أنك عازم على قتلى.

أتفـــرس بانذهـــال فى هذا القول المنمق بينما ينسل خارجاً منى. هل أنا مجنون إلى حد كاف لمحاولتى استفزازه؟

يقول، "هل ترى هذه اليد؟" يمد يده إلى مسافة انج واحد عن وجهى، "عندما كنت أصغر سنا"،– يثنى الأصابع – "اعتدت أن أكـــون قادراً على دس إصبعى هذا"– يمد إصبع السبابة– "عبر

غـــلاف يقطيـــنة". يضــــع طرف إصبعه على جبهتى ويضغط عليها، أتراجع خطوة إلى الخلف.

بــــل إنهــــم يحملون غطاء رأس جاهز من أجلى. كيس ملح يدخـــلون رأســـى به ويشدونه حول رقبتى بحبل. عبر خيوط الكيـــس المشـــبكة، أراقـــبهم وهم يجلبون السلم ويسندونه إلى الغصن. أقاد أنا إليه، توضع قدمى على الدرجة السفلى وتستقر الأنشوطة تحت أذنى. يقول مانديل، "الآن اصعد السلم".

أديـــر رأســـى وأرى شكلين قاتمين يمسكان بطرف الحبل. أقـــول، "لا أقـــدر عـــلى الصـــعود ويداى موثقتان". يدق قلبى كمطرقة. يقول، "اصعد"، مثبتاً إياى بذراعه. يشتد الحبل. يأمر، "اقبض عليه بشدة".

أصـــعد، يصعد خلفى، يوجهنى. أعد عشر درجات. أوراق الشجر تحتك بوجهى. أتوقف. يقبض على يدى بقوة أشد، يقول "هـــل تظننا نلعب؟" يتحدث بغضب عبر أسنان مطبقة بشكل لا أفهمه. "هل تعتقد أننى لا أعنى ما أقول؟"

العرق يلسع عينىّ فى داخل الكيس. أقول، "لا"، "أنا لا أعتقد أنـــك تلعب". أعرف ان الحبل مادام مشدوداً فانهم يلعبون. إن ارتخى الحبل وانزلقت، سأموت.

"ماذا تريد أن تقول لى الآن؟"

"أريــد أن أقول إنه لا شيء قد جرى بينى وبين البرابرة له علاقــة بمســائل عسكرية: كانت مسألة خاصة. ذهبت لإعادة البنت إلى أهلها. لا لسبب آخر".

"أهذا كل ما تريد أن تقوله لى؟"

"أريد أن أقول إنه ما من فرد يستحق الموت". وأنا فى ثوبى النســائي وكيسى الغريبين وغثيان الجبن فى فمي، أقول: "أريد أن أعيش. مثل أى فرد آخر يريد أن يعيش. أن أعيش وأعيش وأعيش. لا يهم كيف".

"ذلــك ليس بكاف". يطلق ذراعى حراً. أترنح على درجتى العاشــرة، يحافظ الحبل على توازنى. يقول، "هل ترى؟" يعود نازلاً السلم، تاركاً إياى وحدى.

إنها ليست حيات عرق بل دموع.

هــناك حفيف فى أوراق الشجر القريبة منى. صوت طفل: "هل بإمكانك الرؤية، يا عم؟"

"لا".

أحدهم يصيح من تحت، "ها، قرود، انزلوا!".

عــبر الحــبل المشــدود بإحكام أحس بالاهتزاز الناتج عن حركتهم بين الأغصان.

أقــف، لهذا السبب، مدة طويلة، محافظاً بعناية على توازنى فوق السلم. متحسساً رفاهية الخشب فى انحناءة أخمص قدمى، محاولاً أن لا أتمايل، محافظاً على ثبات توتر الحبل بأقصى ما يمكن.

كم من الوقت يحتاجه حشد من العاطلين كى يشبعوا رغباتهم بمراقــبة رجل واقف على سلم! سوف أقف أنا هنا حتى يسقط كل اللحم عن عظامى، عبر عواصف ووابل من برد وفيضان، كى أحيا.

ولكن الحبل يشتد الآن. بل إننى أسمعه يقشط لحاء الشجرة وهو يمر عليه، حتى يتطلب الأمر منى أن أمط جسدى، متجنباً أن يشنقنى.

هــذه ليســت مباراة فى الصبر، إذن: ان كانت عامة الناس غير مقتنعة تغير القوانين. ولكن ما فائدة إلقاء اللوم على عامة الناس؟ كبش الفداء سمى، واحتفال أعلن، القوانين غلقت: من ذا الــذى يحتشــد للتفرج على الحفلة؟ على ماذا أعترض أنا فى مشــاهد التحقير والمعاناة والموت التى يقوم بها نظامنا الجديد غير افتقارها للياقة؟ ما الذى سيتذكره الناس عن إدارتى فضلاً عــن نقــل المجازر من ساحة السوق إلى ضواحى البلدة قبل عشــرين عامــا لضمان مستلزمات العيش اللائق؟ أحاول أن أستنجد بشىء، بكلمة الخوف المصمت، بصرخة، ولكن الحبل

مشـــدود الآن بقوة شديدة إلى الحد الذى أحس فيه بأننى أختنق، لا أقــدر عــلى الكــلام. الــدم يدق فى أذنى، أشعر أننى أفقد السـيطرة عــلى أطــراف أصابع قدمى. أتأرجح بسهولة فى الهــواء، أتخــبط بالسلم، أضرب بقدمى. صوت طبل فى أذنى يتباطأ ويعلو حتى يصبح هو الصوت الوحيد الذى أسمعه.

إنــنى واقــف أمــام الرجل العجوز، أغمض عينى نصف إغماضة اتقاء الريح، منتظراً إياه أن يتحدث. البندقية القديمة ما تزال مستقرة بين أذنى الحصان، ولكنها غير موجهة نحوى. أنا واع لمدى اتساع السماء من حولى وكذلك الصحراء.

أرقب شفتيه. سيتحدث الآن فى أى لحظة: يجب أن أصغى بانتباه كى لا يفوتنى أى جزء من الكلام، ولكى بالتالى، أردده مــع نفســى، متمعناً فيه، متمكناً من اكتشاف جواب لسؤال قد طار فى هذه اللحظة مثل عصفور من ذاكرتى.

بمقدورى أن أرى كل شعرة فى عرف الحصان، كل تجعيدة فى وجه الرجل، كل صخرة وكل أخدود فى سفح التل.

الفــتاة بضــفيرتيها الســوداوين المعلقتين على كتفها على الطريقة البربرية، تجثم على حصانها خلفه، رأسها منحن، إنها أيضاً تنتظر أن يتكلم.

أتــنهد. "كــم هو مؤسف"، أفكر. "أصبح الأمر متأخرا جداً الآن".

إننى أتأرجح حراً طليقاً. يرفع النسيم ثوبى ويتلاعب بجسدى العارى. أنا مسترخ، عائم، فى ثياب امرأة.

كيف يمكن أن تكون لمسة قدمى على الأرض، على الرغم من كونهما مخدرتين عن كل الأحاسيس. أبسط نفسى باعتناء بكامل طولى، خفيفاً مثل ورقة شجرة. مهما كان ذلك الشىء الذى قيد رأسى بقوة، فإن قبضته تتراخى. يتلاشى من داخلى حاجز ذو قضبان حديدية ثقيل.

أتنفس. كل شىء على ما يرام.

ثم ينزع الغطاء. الشمس تبهر عينى، أطرح على قدمى، يدور كل شىء أمامى. أمضى فارغاً من أى معنى.

كلمة "طيران" تهمس نفسها فى مكان ما عند حافة وعين. نعم إن الأمر صحيح. لقد كنت أطير.

أنا أتطلع فى عينى مانديل الزرقاوين، تتحرك شفتاه ولكننى لا أسمع كلمة واحدة. أهز رأسى، وأجد أننى ما إن برزت إلى الوجود وانطلقت حتى وجدت أننى غير قادر على التوقف.

يقول، "كنت أقول، سنريك الآن شكلاً آخر للطيران".

يقول أحدهم، "إنه غير قادر على سماعك". يقول مانديل، "إنه يستطيع أن يسمع". يسحب الأنشوطة عن رقبتى ويعقدها حول الحبل الذى يربط رسغى. "اقلعه من هنا".

إن اســتطعت أن أحتفظ بذراعى متصلبتين، إن كنت بهلوانا بدجــة مناسبة تسمح لى أن أدير قدماً إلى أعلى وأعقفها حول الحبل، فسأكون قادراً على التعلق رأساً على عقب من أجل أن لا أشــعر بــالأذى: كــانت تلك فكرتى الأخيرة قبل أن يبدأوا بــرفعى. ولكننى واهن القوى مثل طفل، ترتفع ذراعاى بغير عــلمى، وعــندما تترك قدماى الأرض أحس بتمزق شديد فى كــتفى وكأنمــا صفائح كاملة من عضلات تتخلع. يصدر من حنجرتى أول حوار حزين جاف، كانهمار الحصى. ينزل ولدان صغيران من الشجرة، ويدًا بيد، دون أن ينظرا خلفا، يهرولان بعيــداً. أجأر مرة أخرى وأخرى، ليس بمقدروى أن أفعل شيئا كى أوقفــه، فالصــوت صادر عن جسد يعرف نفسه متضرراً فــوق احــتمال ترميم ويزأر رعبه. لا أستطيع أو أوقف نفسى حــتى لو سمعنى كافة أطفال البلدة. دعونا نتضرع فقط أن لا يقوموا بتقليد ألعاب من هم أكبر منهم سنة، وإلا فسوف تحدث فى الغــد كارثة من جثث صغيرة متدلية من الأشجار. أحدهم يقــوم بدفعى وأبدأ فى الطفر خلفاً وأماماً فى قوس يرتفع قدماً عن الأرض مثل فراشة كبيرة هرمة وجناحاها معقوصان معاً، تجــأر وتصــرخ. أحدهم يبدى ملاحظة، "إنه ينادى أصدقاءه البرابرة، تلك هى لغة البرابرة التى تسمعها". ضحكة تعلو.

* * *

٥

يبرز فى الليل. وقبل أن تهبط الظلمة، يتوجب إحضار آخر معــزة إلى الداخل، تغلق البوابات، حارس يوقف عند كل فتحة ليــنادى بالوقت. طوال الليل. كما يقال، يجوس البرابرة حول المكـــان وقد صمموا على القتل أو السلب. أطفال فى أحلامهم يــرون مصـــاريع النوافذ تنشق والوجه البربرى يطل بنظرة خبيثة. "البرابرة هنا!" يصرخ الأطفال ولا يمكن إعادة الطمأنينة إليهـــم. ملابس تختفى من على حبال الغسيل، الطعام من حيث يحفــظ، مهـــا كـــان القفل متيناً. البرابرة قد حفروا نفقاً تحت الجدران، يقول الناس، انهم يجيئون ويروحون حسبما يشاءون، يـــأخذون ما يرغبون فيه، لا أحد آمن بعد اليوم. الفلاحون ما يــزالون يحرثون الأرض، ولكنهم لا يذهبون منفردين أبداً بل فى جماعات. يعملون من دون همّة: البرابرة ينتظرون فقط كى ينضـــج المحصـــول، يقولون، قبل أن يُغرقوا المزارع بالمياه ثانية.

لمـــاذا لا يوقف الجيش البرابرة؟ تتذمر الناس. الحياة على الحـــدود أصبحت صعبة جداً. يتحدثون عن العودة إلى الوطن القديـــم ولكـــنهم يتذكرون بعدئذ أن الطرق لم تعد سليمة بسبب الـــبرابرة. الشاى والسكر لم يعد من الممكن شراؤهما من فوق

طاولــة العــرض مباشرة، ذلك لأن أصحاب المتاجر أصبحو يخزنون بضائعهم. أولئك الذى يأكلون جيداً يأكلون خلف أبواب مغلقة، خوفاً من إثارة حسد جيرانهم.

قــبل ثلاثة أسابيع اغتصبت طفلة. لم يفتقدها أصدقاؤها في أثــناء لعــبهم فى مجارى الرى، إلا بعد أن عادت إليهم وهي تنزف غير قادرة على الكلام. استلقت عدة أيام فى منزل ذويها محدقــة فى الســقف. لم يقنعها أى شىء لحثها على أن تروي قصــتها. اعــتادت عندما يطفأ المصباح أن تبدأ بالبكاء. يدعي أصدقاؤها أن البرابرة فعلوا ذلك. لقد رأوه يركض مبتعداً نحو دغل القصب. لقد تعرفوا عليه بربرياً بسبب قبحه. الآن أصبح ممــنوعاً عــلى الأطفال اللعب خارج البوابات، والمزارعون يحملون هراوات وحراباً فى أثناء ذهابهم إلى الحقول.

كــلما تصــاعدت المشاعر ضد البرابرة، انزوى أكثر في زاويتى، آملاً ألا أذكر.

لقد مضى زمن طويل منذ أن غادرت القوة العسكرية للحملة الــثانية بشــجاعة فائقة مع أعلامها وأبواقها ودروعها اللامعة وخيولها المتوثبة لدفع البرابرة عن الوادى وتلقينهم درساً سوف لــن ينســاه أطفالهم وأحفادهم مطلقاً. ومنذ ذلك الحين لم ترد رسالة ولم يأت رسول، ولم يتم أى اتصال. بهجة أزمنة، حينما كــان مــن المعــتاد أن تقام استعراضات عسكرية يومية في

الساحة، عروض للفروسية، معارض أسلحة، قد مضى زمن بعيد على اختفائها. بدلاً منها يمتلئ الجو بإشاعات مثيرة للقلق. يقول بعضهم إن ألف ميل من الحدود بأكمله قد انفجر فى نزاع، وإن برابرة الشمال قد وحدت قواتها مع برابرة الجنوب وإن جيش الإمبراطورية لم يبسط نفوذه إلا على مساحات ضئيلة، وإنه فى يوم من هذه الأيام سيرغم على التخلى عن الدفاع ضد نقاط الحدود البعيدة مثل هذه، من أجل تركيز مواردها لحماية قلب الوطن. يقول آخرون إننا لا نتلقى أى أخبار عن الحرب لا لشىء إلا لأن الجنود قد توغلوا عميقاً فى مقاطعة العدو وأنهم منهمكون جداً فى توجيه ضربات ثقيلة، على أن يبعثوا رسولاً. وسريعاً، يقولون، فى الوقت الأقل توقعاً بالنسبة لنا، سيعود رجالنا سيراً إلينا مرهقين ولكن منتصرون وأننا سوف نحظى بالسلام فى عصرنا.

من ضمن الحماية الصغيرة التى تركت فى الخلف، هناك أعداد من المخمورين أكثر مما عرفت قط فى السابق، وأكثر عجرفة نحو سكان البلدة. حوادث عديدة وقعت ذهب فيها الجنود إلى المخازن، حاملين كل ما يريدون وغادروا دون أى يدفعوا الثمن. ما فائدة وضع أجهزة الإنذار بالخطر عندما يكون المجرمون والحرس المدنى هم الأشخاص أنفسهم؟ يتظلم أصحاب المخازن لمانديل، يتولى المسؤولية فى ظل نظام الطوارئ فى الوقت الذى ذهب فيه جول مع الجيش. يعطى

مانديل الوعود ولكنه لا يفعل شيئاً.ولماذا يفعل؟ إن كل ما يهمه أن عليه أن يبقى محبوباً من قبل رجاله. برغم استعراض لجنة الأمن الأهلية فوق الاستحكامات والنظرة الشاملة التى تلقى أسبوعياً على طول شاطئ البحيرة (للتربص بالبرابرة، على الرغم من عدم القبض قط على واحد منهم)، النظام مهمل.

فى الوقت نفسه، أنا المهرج العجوز الذى فقد آخر أثر للسلطة فى اليوم الذى أمضاه معلقاً من شجرة فى ثياب امرأة يصيح فى طلب النجدة، الكائن الفاحش البذىء الذى بقى يلعق طعامه أسبوعياً من على رصيف الشوارع مثل كلب لأنه فقد استخدام يديه، أنا لم أعد سجيناً. أنا فى زاوية ما من ساحة الثكنات، أزحف هنا وهناك بثوبى الفضفاض القذر وعندما ترتفع قبضة نحوى أنكمش مرتعداً. أحيا مثل بهيمة عند الباب الخلفى يحس بجوع شديد، ربما أبقى على قيد الحياة كدليل على الحيوان الكامن فى داخل كل محب للبرابرة. أعرف أننى غير آمن. اقدر أن أتحسس أحياناً ثقل نظرات الحنق تستقر على، لا أرفع بصرى، أعرف أنه بالنسبة لبعضهم فإن الإغراء لابد أن يكون قوياً لتنظيف الساحة بإطلاق رصاصة عبر جمجمتى من نافذة فى طابق علوى.

لقد حدث تدفق من اللاجئين إلى البلدة، صيادون من المستوطنات الصغيرة المتناثرة على طول النهر وشاطئ

البحيرة الشمالى، يتحدثون بلغة لا يفهمها أحد، حاملين حاجياتهم المنزلية على ظهورهم فضلاً عن كلابهم الهزيلة وأطفالهم المترنحون يدبون فى تثاقل خلفهم. عندما جاءوا للمرة الأولى، احتشد الناس حولهم،"هل كان البرابرة هم الذين قاموا بطردكم إلى هنا؟" سألوا بوجوه ضارية، يشدون أقواساً وهمية.

لم يسأل أحد ما عن الجندية الإمبريالية أو عن حرائق الأدغال التى يضرمونها.

كان هناك فى بادئ الأمر تعاطف مع هؤلاء البدائيين، الناس جلبت لهم الطعام والملابس القديمة، حتى بدأوا ينصبون أسقف القش التى يلتجئون تحتها تجاه جدرانهم فى جانب الساحة بالقرب من أشجار الجوز، وامتلك أطفالهم الجرأة الكافية للتسلل إلى مطابخ والسرقة منها، وفى ليلة ما قام قطيع من كلابهم بالدخول إلى زريبة أغنام ومزقوا رقاب دزينة من النعاج. تحولت عندئذ المشاعر ضدهم. اتخذ الجنود موقفاً، أطلقوا النار على كلابهم على مرأى منهم وأيضاً فى صباح يوم من الأيام وعندما كان الرجال ما يزالون عند البحيرة، مزقوا كامل صف ملاجئهم. اختبأت جماعة الصيادين فى أدغال القصب عدة أيام. ثم واحداً بعد واحد بدأت أسقف القش العائدة إليهم تظهر مجدداً، فى خارج البلدة هذه المرة تحت الجدار الشمالى. لقد سمح لأكواخهم أن تقام ولكن الحراس عند البوابات تلقوا أوامر

لمنعهم من الدخول. الآن وبعد أن أصبح القانون مرتخياً، أصبح بالإمكـــان رؤيتهم فى الصباح وهم ينادون على بضاعتهم من السمك المنظم فى خيوط متنقلين من باب إلى باب كل صباح. لأنهـــم لا يمتلكون خبرة بالنقود، بدأوا يتعرضون للخداع بشكل فظيـــع، وهـــم عـــلى استعداد للتخلى عن كل شىء مقابل ملء كستبان من شراب الرّوم.

إنهـــم أناس نحيلون ذوو عظام بارزة، وصدور أشبه بصدر الحمام. نساؤهم يظهرن فى حالة حمل مستمرة، أطفالهم معوقو النمو، فى قلة من فتياتهم آثار جمال عيون شفافة، أما فى البقية فـــلا أرى غيـــر الجهل، المكر، والقذارة. وبعد ذلك، ما الذى يرونه هم فى، إن وقعت على أعينهم يوما ما؟ بهيمة تتطلع من خـــلف بوابـــة إلى الخارج. الجانب السفلى القذر لهذه الواحات الجميلة حيث وجدوا أماناً متزعزعاً.

فى يـــوم ما، يسقط ظل على جسمى حيث أغفو فى الساحة، قدم تخزنى، أرفع رأسى وأتطلع فى عينى مانديل الزرقاوين.

يقول،"هل نقوم بإطعامك بشكل جيد. هل بدأ وزنك يزداد من جديد؟"

أومئ برأسى، جالساً عند قدميه.

"لأننا لا نقدر على إطعامك إلى الأبد".

يمتد بيننا صمت طويل يتأمل فيه أحدنا الآخر.

"متى ستبدأ العمل من أجل كسب قوت يومك؟"

"إنــنى ســجين فى انتظار محاكمة. لا يعمل السجناء الذين ينــتظرون محاكمــة من أجل كسب أرزاقهم. هذا هو القانون. تصرف نفقاتهم من خزينة الدولة".

"ولكنك لست بسجين، أنت حر فى الذهاب إلى حيث تشاء".

ينــتظرنى كى ألــتقط طعــم العرض الذى قدمه لى بشكل أخرق. لا أقول شيئاً. يمضى فى كلامه.

"كيــف تكون سجيناً فى حين أننا لا نمتلك محضراً لك؟ هل تعــتقد أننا لا نقوم بمسك سجلات؟ ليس لدينا سجل خاص بك. يجب أن تكون رجلاً حراً."

أنهــض وأتــبعه عبر الساحة نحو البوابة. يناوله الحارس المفتاح"هل ترى؟ البوابة مفتوحة".

أتــردد قبل أن أجتازها. هناك شىء ما أريد معرفته. أتطلع إلى وجه مانديل، فى العينين الصافيتين، نافذتى نفسه، إلى الفم الــذى مــن خلاله تعبر روحه عن حقيقتها. أقول،"هل تمنحنى دقيقــة من وقتك؟" نقف عند البوابة، والحارس واقف فى خلفية الســاحة مــتظاهراً بأنــه لا يســمع. أقول،"لم أعد شاباً على الإطــلاق، وأى مستقبل كان لى فى هذا المكان قد دمر." أومئ نحــو أطــراف الســاحة، نحو الغبار الذى يندفع أمام الرياح

الساخنة لأواخر الصيف حاملاً الآفات والأوبئة."فضلاً عن أنني قـد مـت ميتة واحدة قبل الآن، على تلك الشجرة، ولكنك فقط قررتِ أن تبقي على حياتي. ولهذا السبب، هناك شيء ما أريد معرفـته قـبل ذهابي. إن لم يكن الوقت قد أصبح جد متأخراً، والبرابرة عند البوابة."أحس بابتسامة ماكرة ضئيلة تمس شفتي بـرقة، لا أسـتطيع تفاديهـا. ألـقي نظـرة خاطفـة عـلى السماء."أعذرني أن كان السؤال وقحاً، ولكنني أريد أن أطرحه عليك: كيف تجد الأمر ممكناً بعد أن كنت... تعمل مع الناس؟ ذلـك سؤال سألت نفسي عنه على الدوام حول جلادين وأناس آخـرين مثلهم. أنتظر! أصغ إلى دقيقة أخرى، أنني صادق في ما أقول، لقد تطلب الأمر مني للوصول إلى هذا الشيء الكثير، بمـا أنني كنت خائفاً منك، لم تكن هناك ضرورة لإخبارك به. أنا متأكد من أنك تعي المسألة. هل تجد سهولة في تناول الطعام بعدئـذ؟ لقـد ظننت أن المرء سوف يكون في حاجة إلى غسل يديه. ولكن أي غسل اعتيادي لن يكون كافياً، المرء يحتاج إلى تدخـل كهـنوتي، إلى شعائر تطهير، ألا تعتقد ذلك؟ شكل من أشكال تطهير الروح أيضاً – تلك هي الكيفية التي ظننتها. وإلا كيف يكون بالمستطاع العودة إلى حياة يومية – الجلوس لتناول الطعام، مثلاً، وتقاسم الخبز مع أفراد عائلته أو مع رفاقه؟"

يـرد ولكـن بيـد متمهلة أشبه بمخلب، أنجح في الإمساك بذراعـه. أقول،"لا تخطئ فهمي، إنني لا ألومك أو أتهمك، لقد

تجاوزت ذلك منذ زمن بعيد. تذكر، أننى أيضاً قد كرست حياة للقانون، أعرف معاملاته، أعرف أن عوامله هى فى الغالب مبهمة. إننى أحاول أن أفهم فحسب. أحاول أن أفهم النطاق الذى تحيا ضمنه. إننى أحاول كيف تتنفس أنت وتأكل وتعيش من يوم إلى يوم. ولكننى لا أستطيع! ذلك ما يقلقنى! لو كنت هو، أقول هذا لنفسى، فستحس يداى بأنهما قذرتان جداً وأنهما ستسببان لى غصة"

يسحب نفسه منى طليقاً، ويضربنى بقسوة فى صدرى مما يجعلنى ألهث وأندفع إلى الخلف. يصيح،"أنت يا ابن الزنا! أنت أيها المجنون الداعر! اخرج من هنا! اذهب ومت فى مكان ما!"

ومتى ستقدم على تقديمى للمحاكمة؟ أصبح نحو ظهره المتراجع. لا يبالى مطلقاً.

لا يوجد أى مكان للاختفاء. ولماذا يجب أن أفعل؟ أكون من الفجر وحتى الغسق تحت مرمى الأنظار فى الساحة، متجولاً حول الإسطبلات أو جالساً تحت ظل الأشجار. وتدريجياً، ومع انتشار الكلام فى الجوار من أن القاضى الهرم قد امتص محنته واجتازها، تكف الناس عن الصمت أو إدارة الظهر عندما أصبح قريباً. أكتشف أننى لست بدون أصدقاء، على الأخص بين النساء، اللواتى يبدين توقهن لسماع وجهة نظرى فى القصة. متجولاً فى الشوارع، أمر بالزوجة الممتلئة الجسد

لأميـن الإمـدادات والـتموين فى الجيش، وهى تعلق ملابس الغسيل. نتبادل التحيات، تقول،"كيف حالك، سيدى؟ سمعنا أنك قد اجتزت زمناً صعباً للغاية." تبرق عيناها مع حذر شديد."ألا تدخل لتناول قدحاً من الشاى؟".

وهكذا نجلس معاً عند مائدة المطبخ، ونقوم بإرسال الأطفال ليلعبوا فى الخارج. وبينما أحتسى الشاى وآكل بمثابرة من إناء فيه نوع من البسكويت اللذيذ من دقيق الشوفان، تبدأ هى بأولى الخطـوات في لعـبة الطـرق الملتوية للسؤال والجواب؟"لقد اخـتفيت زمناً طويلاً، تساءلنا فى شك إن كنت ستعود يوماً... وفضـلاً عـن كل ذلك العناء الذى تعرضت له! كم قد تغيرت الأمـور! لم يكن شيء من هذه الفوضى عندما كنت مسؤولا. كل هؤلاء الغرباء من العاصمة، يفسدون الأمور!"أتسلم دورى، أتنهد:"نعم، إنهم لا يعرفون كيف ندير الأمور فى الأقاليم، أليس كذلك! هل يعرفون: كل هذا العناء من أجل فتاة..."التهم قطعة أخـرى من البسكويت. أحمق فى الحب، يثير السخرية ولكنه ينال السماح فى النهاية."بالنسبة لى كان الأمر ببساطة بديهياً أن أعـود بهـا إلى عائلـتها، لكـن كيف يمكن للمرء أن يجعلهم يدركـون ذلك؟" أتحدث بنحو غير مترابط، تستمع إلى أنصاف الحقـائق هـذه، تومى برأسها، ترقبنى مثل صقر، نتظاهر أن الصـوت الـذى نسمعه هو ليس صوت الرجل الذى تدلى من شـجرة مسـتنجداً طالـباً الـرحمة بصوت عال بدرجة توقظ

المـــوتى."عـــلى أى حال، لنأمل أن كل ذلك قد انتهى. ما زلت أعانى من آلام"- ألمس كتفى"جسد المرء يشفى ببطء كلما تقدم فى السن..."

وهكـــذا أغــنى لقـــوت يومـى. وإن كنت ما أزال جائعاً فى المســـاء، إن أنـــتظر عند بوابة الثكنات من أجل الصفارة التى تدعو الكلاب كى أتسلل إلى الداخل بهدوء تام، فأنا أتمكن عادة أن أحصل بالتملق للخادمات على بقايا من طعام عشاء الجنود، صـــحناً من الفاصوليا الباردة أو ما يكشط من القعر الدسم لقدر الحساء أو نصف رغيف من الخبز.

أو يكـــون بمقـــدورى فى الصـــباحات السير الهوينى نحو الفندق، ومتكئاً على مصراع باب المطبخ، أستنشق كل الروائح الطيـــبة، نـــباتات عطرية وخميرة وبصل مفروم مقلى وسمن ضـــأن مدخـــن. مى الطـــباخة تدهن مقلاة التحميص: أرقب أصـــابعها الماهرة وهى تنغمس فى قدر شحم الخنزير ثم تطلى المقـــلاة بـــثلاث دوائر فى حركة سريعة. أفكر فى معجناتها، وفطيـــرتها الشهيرة من لحم الخنزير المقدد والسبانخ والجبن، وأحس باللعاب ينبجس فى فمى.

تقـــول، "رحـــل الكـــثير من الناس". وهى تستدير نحو كرة العجيـــن الكبيرة، "لا أستطيع حتى البدء فى إخبارك. مجموعة كبيرة غادرت قبل بضعة أيام فقط. إحدى الفتيات اللواتى يقمن

هنا – تلك الصغيرة ذات الشعر السرح الطويل، ربما تتذكرها، كــانت واحدة منهن، غادرت مع رفيقها."تقول ذلك لى بصوت مــنخفض، وأحــس بالامتنان لمراعاتها ذلك. وتضيف،"الأمر يكــون بطــبيعة الحال معقولاً، إن كنت تنوى الرحيل، فعليك المغــادرة الآن"إنــه طريق طويل، خطر أيضاً، والليالى بدأت تغــدو أكثر برودة: تتحدث عن الجو، عن الصيف الذى مضى ودلائل اقتراب الشتاء، وكأننى حيث كنت فى زنزانتى التى لا تبعد غير ثلاثمائة خطوة من المكان الذى نحن فيه، كان قد ختم عــلى مــن الحر والبرد، الجفاف والرطوبة. بالنسبة لها، أكاد أدرك، أنــنى اخــتفيت ومــن بعد ذلك ظهرت ثانية، وما بين المرحلتين، لم يكن جزءًا من العالم.

كــنت مصغياً أو مىء وأحلم بينما كانت تتكلم. الآن أبدأ فى الكــلام. أقــول،"تعــرفين أنت، عندما كنت فى السجن – فى الثكــنات، ليــس فى السجن الجديد، حيث احتجزت، كنت جد جائعــاً بحيــث أننى لم أفكر يوما ما بامرأة، بالطعام فقط. فقط عشــت من وقت تناول وجبة إلى أخرى. لم يكن هناك أبداً ما يشــبعنى. كــنت أزدرد طعامى مثل كلب وكنت أريد المزيد. وكــان فضــلاً عــن ذلك، الكثير من الألم فى أوقات مختلفة: ذراعــاى، يداى، وأيضاً هذا،" – ألمس الأنف الذى غداً أغلظ، الندبة القبيحة تحت عينى والذى بدأت أشعر أن الناس، بافتعال، مفتتنين بها. لما حلمت بامرأة، حلمت بواحدة تأتى ليلاً وتنتزع

الألم بعيداً منى، حلم طفل. الشىء الذى لم أعرفه كان كيف أن الرغبة الشديدة تخزن نفسها فى تجاويف عظام المرء ثم تفيض إلى الخارج يوماً ما دون تحذير. ما ذكرتينه قبل دقيقة مضت، علـى سبيل المثال - الفتاة التى أشرت إليها - كنت جد متعلقاً بهـا، أعتقد أنك تعرفين ذلك، على الرغم من أن اللياقة منعتك مـن القـول... عندما قلت إنها قد رحلت، أعترف، كان الأمر وكأننى تلقيت ضربة هنا، فى الصدر. ضربة".

تتحرك يداها بمهارة، تضغطان على دوائر نافرة عن صفحة العجيـن بحافـة الطـاس، ملتقطة ما يتعلق بالقعر، تلفها معاً، تتجنب عينى.

"ذهبت إلى غرفتها فى الطابق العلوى فى الليلة الماضية، إلا أن الباب كان مقفلاً. ولكننى خلعت القفل. كان لديها العديد من الأصـدقاء، لـم أفكر أبداً بأننى كنت الوحيد... ولكن ما الذى كـنت أريده؟ مكان ما للنوم، بالتأكيد، ولكن المزيد أيضاً. لماذا الـتظاهر؟ كلـنا يعـرف أن ما يبحث عنه رجال مسنون هو استعادة شبابهم بين ذراعىّ امرأة شابة".

تضرب العجينة، تجبّلها، تفردها: هى نفسها امرأة شابة لديها أطفالهـا، يعيشـون مع أم بارعة: أى عنصر للإعجاب أشكله بالنسـبة إليهـا حيـنما أمضـى متحدثاً بشكل مفكك عن الألم والوحدة؟ منذهلاً أستمع إلى الحديث المنبثق منى."دع كل شىء

يقال!"حدثت نفسى عندما واجهت فى المرة الأولى أولئك الذين قاموا بتعذيبى."لماذا تطبق شفتيك بغباء على بعضهما؟ أنت لا تمــلك أسراراً. دعهم يعرفوا أنهم يتعاملون مع لحم ودم! أعلن عــن هــول مــا جــرى لك، أصرخ عندما ينتابك الألم! إنهم يزدهرون مع الصمت العنيد: إنه يؤكد لهم أن كل نفس هى قفل يــتحم عــليهم ثقــبها بطول أناة. عرّ نفسك! افتح قلبك!"وهكذا صحت وصرخت وقلت كل ما خطر ببالى. منطق ماكر! ذلك أنــنى الآن عندما أرخى لسانى وأدعه يبحر حراً لا أسمع غير أنيــن رقيــق لمعدم." هل تدرين أين نمت ليلة البارحة؟" أسمع نفســى تقــول،"هــل تعــرفين ذلك الجناح الممتد من مخزن القمح؟..."

الطعــام، أكــثر من أى شىء آخر، هو ما أتوق إليه، تزداد حدتــه مع انقضاء كل أسبوع. أريد أن أكون رجلاً سميناً من جديــد. واقع أنا تحت تأثير الجوع ليلاً ونهاراً. استيقظ صباحاً ومعــدتى تتثاءب، لا أقدر أن أنتظر بدء جولتى اليومية، أتباطأ عند بوابة الثكنات مستنشقاً شذا دقيق الشوفان الرطب المخفف وأنــتظر كشط قعر القدر المحروق، أتملق للصغار ليقذفوا لى ثمــار الــتوت من فوق الأشجار، أتمدد على سياج حديقة كى أســرق خوخــة أو اثنتين، عابراً من باب إلى باب، رجلٌ مُنى بســوء الحــظ، ضحية التيمم، لكنه شفى الآن، جاهز بابتسامة ليــأخذ مــا يقــدم له، شريحة من الخبز والمربى أو طبق من

الفاصوليا والبصل، والفواكه باستمرار، مشمش وخوخ ورمان، ثروة صيف سخى. آكل مثل فقير معدم. ألتهم بشهية كبيرة، أمسح الإناء حتى يبدو نظيفاً جداً ويسرّ قلب من يراه. فلا عجب أننى أزحف يوماً بعد يوم إلى قوائم الفاضلين لأهل بلدتى.

وكم أقدر على المداهنة، وكم أقدر على التوسل! حصلت أكثر من مرة على وجبة خفيفة أعدت لى بشكل خاص: شرائح من لحم الضأن مقلية ومتبلة بالفلفل والثوم المحمر، أو شرائح من فخذ الخنزير والطماطم على رغيف من خبز، يتخللها جبن من حليب الماعز. أحمل إن استطعت ماء أو حطب الوقود بالمقابل، أفعل ذلك بكل سرور، كعملة رمزية، على الرغم من أننى لم أعد قوياً كما كنت فى السابق. وإن كنت اليوم قد استنفدت كافة مصادرى فى المدينة - لأنه يتحتم على أن أحرص على ألا أكون ثقيلاً على المحسنين إلىّ - فبإمكانى على الدوام التمشى نحو مخيم الصيادين لأساعدهم فى تنظيف السمك. لقد تعلمت عدداً قليلاً من مفردات لغتهم، أدركت دون أن يساورني أى شك، أنهم يدركون ماذا يعنى الأمر أن يكون المرء متسولاً، وهم يقاسموننى طعامهم.

أريد أن أغدو سيناً من جديد، أسمن من أى وقت مضى، أريد بطناً تقرقر باطمئنان عندما أطوى كفى فوقها. أريد أن

أحــس أن خدى يغطس فى وسادة رقبتى ويتمايل ثدياى عندما أمشى. أريد حياة ذات قناعات بسيطة. أريد (أمل عقيم!) أنا لا أعرف الجوع مطلقاً.

* * *

ثلاثـــة أشهر مضت على رحيلها، ولا أخبار حتى الآن عن القوة الخاصة بالجملة. بدلاً عنها، أقاويل فظيعة تنتشر فى كل مكـــان: من أن القوة قد وقعت فى شرك الصحراء وأبيدت عن آخـــرها، الأمر الذى كان خافياً علينا أنها قد استدعيت من أجل الدفـــاع عن الوطن. تاركة قوى الحدود للبرابرة كى يلتقطوها مـــثل فاكهة متى ما شاءوا. وسائط النقل تنتقل أسبوعياً كل من توحى له حكمته أن يغادر البلدة، متوجهين شرقاً، كل عشرة أو اثنـــتى عشرة عائلة تسافر معاً، "لزيارة الأقارب"، وهو تعبير لطيـــف للتعبير عن شىء بغيض، "حتى تستقر الأمور مجدداً". يغادرون، فى مقدمة الركب قافلة التموين، يدفعون عربات يد، متوجهين شرقاً، يحملون رزماً فوق ظهورهم، أطفالهم الصغار جداً، محملون مثل حيوانات. بل إننى حتى رأيت عربة طويلة ذات أربـــع عجـــلات تجرها الخراف. لم يعد بالمقدور شراء حيوانات حمول.

أولـــئك الذيـــن يغـــادرون هم ذوو تفكير صائب، يتهامس الأزواج والزوجات الذين يبقون يقظين فى أفرشتهم، يرسمون

الخطـط، يفكرون فى الشروع فى بدايات جديدة لحياتهم. إنهم يـتركون بيوتهم المريحة خلفهم، يقفلونها "حتى نعود"، آخذين المفـاتيح معهـم كتذكار. ما إن يحل اليوم التالى، حتى تدخل زمـرة من الجنود عنوة إليها، يسرقون البيوت، يكسرون قطع الأثـاث، يـلوثون أرضيتها. يتعاظم الاستياء ضد أولئك الذين يـرونهم وهـم يقومون بالاستعداد للسفر. توجه إليهم الإهانات علـناً، يتعرضـون للاعتداء أو السرقة، مع حصانة لفاعلين. يحـدث الآن عـائلات تختفى ببساطة فى عتمة الليل، يرشون الحـراس مـن أجل فتح البوابات لهم، متخذين طريق الشرقى منتظرين فى محطة التوقف الأولى أو الثانية، حتى يتجمع عدد كاف من العوائل كى تسافر فى أمان.

الجـند يضـطهدون البـلدة. لقد عقدوا اجتماعاً فى الساحة أضـىء بكشافات نور كهربائية لشجب "الجبناء والخونة" ومن أجـل التأكيد على الولاء للإمبراطورية. باقون، أصبح شعاراً للإخلاص: تكسى الجدران فى كل مكان بهذه الكلمات. أقف فى الظـلام عـند نهايـة حشد كبير فى تلك الليلة (لم يمتلك أحدا شـجاعة كافية للبقاء فى المنزل) أستمع إلى تلك الكلمات تنشد بضجر، وبصورة آلية من قبل آلاف الحناجر.

سـرت فى ظهرى رعشة. بعد الاجتماع قاد الجنود مسيرة طـافت الشوارع. أبواب رفست، نوافذ حطمت، نار أوقدت فى

أحـــد المنازل. احتفال صاخب مخمور فى الساحة استمر حتى ســـاعة مـــتأخرة من الليل. قمت بالبحث عن مانديل ولكننى لم أره. ربمـــا أن الســـبب كان أنه قد فقد السيطرة على الحامية، وكان الجنود، إن استدعت الضرورة، على استعداد لتقبل أوامر من شرطى.

أقـــام هـــؤلاء الجـــند فى بادئ الأمر فى البلدة، غرباء عن عاداتـــنا، مجـــندين من مختلف أنحاء الإمبراطورية، استقبلوا بـــبرود، "نحـــن لا نـــريدهم هـــنا، "قالت الناس" كلما أسرعوا لمحاربـــة الـــبرابرة كـــلما كـــان ذلك أفضل. "رفض أصحاب المـــتاجر إقراضهم بالدين، أغلقت الأمهات على بناتهن. ولكن بعـــد أن ظهـــر البرابرة عند عتبات بيوتنا، تغير الأمر. والآن وبعـــد ان بدوا الشيء الوحيد الذى يقف بيننا وبين الدمار، غدا هـــؤلاء الجنود مركزاً للتملق بلهفة. لجنة من المدنيين تفرض ضريبة أسبوعية من أجل إقامة وليمة لهم، يشوون خروفاً كاملاً عـــلى الســـفود، يـــبددون عدداً من غالونات الرّم. فتيات البلدة أمامهم لاصطيادهن. يرحّب بهم فى كل ما يريدونه، ما دام ذلك ســـيجعلهم يـــبقون ويحرسون حياتنا. وكلما ازداد التملق إليهم ازدادوا طغيانـــاً. نعرف نحن أنه لا يمكننا الاعتماد عليهم. ما الـــذى ســـيبقيهم مـــع خلو مخزن الحبوب واختفاء قوة الجيش الأساسية مثل دخان إن توقفت الولائم مرة واحدة؟ كل ما نقدر ان نتمنى هو قسوة السفر فى الشتاء سوف تعوق تخليهم عنّا.

الـــتحذيرات الأولية للشتاء فى كل مكان. يرتفع نسيم قارس من الشمال فى الساعات المبكرة من الصباح: المصاريع تصر، النائمون يتجمعون بعضهم إلى بعض، الحراس يلفون معاطفهم الفضفاضـــة بإحكـــام حولهـــم وقد أداروا ظهورهم لمواضعهم الأصـــلية. أصـــحو أنا فى بعض الليالى، مرتجفاً فوق فراشى المكـــون من عدد من أكياس ولا أتمكن من معاودة النوم. تبدو الشـــمس عـــند إشـــراقها أبعد مسافة من اليوم الفائت، تصبح الأرض بـــاردة حـــتى قبل المغيب. أفكر فى قوافل المسافرين المنـــتظمين فى صـــف واحـــد، متوجهين نحو وطن أم لم يره معظمهـــم، يدفعـــون عـــربات اليد، ينخسون خيولهم، يحملون أطفالهم، يتدبرون بحرص مؤونتهم، يتنازلون يوماً بعد يوم عند جوانب الطرق عن أجهزتهم، أدوات مطبخ، لوحات، ساعات، لعب، أى شيء يعتقدون أنه سوف ينقذ ممتلكاتهم من الدمار قبل أن يدركـــوا أن قصـــارى مـــا سيتمنون هو الهرب بأرواحهم. الجـــوفى خلال أسبوع أو أسبوعين سيكون غادراً جداً بالنسبة لـــلجميع ولكـــنه الأقســـى لمن يشرع فى رحلة. ستهب الريح الشمالية طوال اليوم، تجيء مهلكة الحياة على سيقان النباتات، حاملة بحراً من غبار عبر النجد الفسيح، تجيء بهبات من برد وثـــلج. لا أقـــدر عـــلى تصور نفسى، بملابسى البالية ونعلىّ القديميـــن، فى يـــدى عصا، رزمة على ظهرى، باقياً على قيد الحياة فى تلك المسيرة الطويلة. لن يتوق قلبى إلى ذلك الأمر.

أى حيـــاة يمكـــن أن أصبو إليها بعيداً عن هذه الواحات؟ حياة كـــاتب حسابات معدم فى العاصمة، عائد كل مساء بعد الغسق إلى غرفة مستأجرة فى شارع خلفي، وأسنانى تتساقط تدريجياً، وصاحبة المنزل تتشمم عند الباب. إن كان على أن أنضم إلى الهجرة الجماعية سيكون ذلك مثل واحد من أولئك الناس الذين ينســلون فى يــوم مـــا خارج خط السير، يستقرون فى حمى صـــغرة، وينتظرون مجيء البرد الأخير كى يتسلل ببطء نحو أرجلهم.

* * *

أتجول فى الشارع الفسيح نازلاً منحدراً إلى شاطئ البحيرة. الأفـــق الممـــتد أمامى قد تلون تواً بالرمادى. أغوص فى الماء الرمادى للبحيرة. الشمس من خلفى تشرع فى المغيب بخطوط ذهبية وقرمزية. تصلنى من بين الأخاديد أولى أغنيات صرار الليل. هذا عالم أعرفه وأحبه ولا أريد أن أفارقه. لقد سرت فى هذا الطريق ليلاً منذ شبابى ولم يلحق بى أى أذى. كيف يمكننى أن أصـــدق أن الـــليل مـــلئ بأشباح مرفرفة للبرابرة: لو كان للغرباء وجود فى هذا المكان لكنت أحسست به تماماً. انسحب الـــبرابرة بقطعـــانهم نحو أعمق وديان الجبال، فى انتظار أن يحـــس الجـــنود بالـــتعب ويرحلوا. عندما يحدث ذلك سيظهر الـــبرابرة مـــن جديـــد... سيقومون برعى مواشيهم ويتركوننا

لحالنا، وسنزرع حقولنا ونتركهم لحالهم، وسيستعاد السلام، فى بضعة أعوام على الحدود.

أجتاز الحقول التى خربت، والتى سويت الآن وحرثت حديثاً، أعبر قنوات الرى وجدار الساحل. الأرض تحت أخمص قدمى تزداد نعومة، وسرعان ما أسير أنا فى المستنقعات المبتلة، أشق طريقى عبر أدغال القصب، أوسع الخطى، أغوص حتى كاحل القدمين فى الماء مع آخر الضياء البنفسجي لغسق. ضفادع تغطس فى الماء بقوة أمامى، أسمع تقريباً خشخشة خافتة لريش طائر المستنقعات وهو يقرفص مستعداً للطيران.

أخوض أعمق، مفرقاً العيدان بيدى، حاساً ببرودة الوحل بين أصابع قدمى، الماء الذى يحتفظ بدفء الشمس مدة أطول من الهواء، يقاوم ثم يستسلم، قبل كل خطوة. فى الساعات الأولى للصباح، يدفع الصيادون زوارقهم المسطحة القعر، بأعمدة عبر السطح الهادئ ثم يرمون شباكهم. يالها من حياة مطمئنة لكسب العيش. ربما يتحتم على ترك مهنة التسول لأنضم إليهم فى مخيمهم خارج السور، أبنى لنفسى كوخاً من الطين والقصب، أتزوج إحدى بناتهم الجميلات، أولم عندما يكون الصيد وفيراً، أضيق حزامى عندما لا يكون.

فى عمق يصل إلى ربلة الساق، أخوض فى الماء المهدئ،

أطلق العنان لنفسى فى هذه الرؤيا الكئيبة. إننى لست غير واع مـا تدل عليه أحلام اليقظة هذه، أحلام عن التحول إلى إنسان ضـار غيـر مفكـر، اتخاذ السبيل البارد عائداً إلى العاصمة، الـتماس طـريقى خارجـاً إلى خرائب الصحراء، العودة إلى الحجـز فى زنزانـتى، الـبحث عن البرابرة وتقديم نفسى لهم ليفعلوا بها ما يشاؤون. إنها بلا استثناء أحلام نهايات المطاف: أحلام ليس عن كيف تعيش ولكن كيف تموت. وأنا أعلم أن كل واحـد فى تـلك البلدة المسورة الغارقة الآن فى الظلام (أسمع الندائين اللذين يعلنهما البوق مشيراً إلى موعد إغلاق البوابات) مشغول البال بالأمور نفسها. كل واحد ما عدا الأطفال! الأطفال لا تساورهم الشكوك مطلقاً فى أن الأشجار الكبيرة العتيقة التي فى ظلالها يلعبون ستبقى واقفة إلى الأبد، وأنهم سيكبرون يوماً ويصـبحون أقوياء مثل آبائهم، مثمرين كأمهاتهم، وسيعيشون ويغتنون ويربون أطفالهم، ويتقدمون فى السن فى البقعة عينها التى ولدوا فيها. ما الذى جعل الأمر غير ممكن بالنسبة لنا أن نعيش زمننا مثال أسمال فى الماء، مثل طيور فى الهواء، مثل أطفال؟ إنه خطأ الإمبراطورية! إمبراطورية قد خلقت مجريات التاريخ. إمبراطورية حددت وجودها ليس فى زمن ناعم يلتف مع دورة المواسم ولكن فى زمن مرتج من صعود وانهيار، من بدايـة ونهايـة، من كوارث. إمبراطورية تحكم على نفسها أن تعيش فى التاريخ وتتآمر ضد التاريخ. فكرة واحدة فقط تشغل

العقــل الخــفى للإمبراطورية: كيف لا تنتهى، كيف لا تموت، كيــف تطيــل عصـــرها. إنها فى النهار تلاحق أعداءها، إنها مراوغة وقاسية، ترسل كلاب صيدها إلى كل مكان. وهى فى الليل تغذى نفسها على تخيلات لكوارث: نهب المدن، اغتصاب السكان، أهرامات من عظام، قدادين من خراب. رؤيا مجنونة خبيــثة أيضاً:غائص أنا فى رواسب الطين، لست أقل تلوثاً بها فى العميد جول فى تعقبه أعداء الإمبراطورية عبر صحراء لا حــدود لها، بسيف مستل من غمده لتقطيع بربرى بعد بربرى وفى الــنهاية يجد واحداً ويذبحه والذى لابد أن يكون قدره (أو إن لــم يكن فقدر ابنه إذن أو قدر حفيده الذى لم يولد بعد) أن يصــعد الــبوابة البرونزية للقصر الصيفى ويطيح بالكرة التى يعلوها نمر هائج والتى ترمز للسيادة الأبدية، بينما يهلل رفاقه ويطلقون بنادقهم فى الهواء.

لا قمــر فى الســماء. أتحسس طريقى فى الظلمة عائداً إلى الأرض اليابســة ثــم إلى فراشى من الحشائش، ملتفاً بمعطفى العــريض، وأســتغرق فى الــنوم. الــنجمة الحمراء بالكاد قد تحركت فى السماء.

فى الوقــت الــذى أجتاز الطريق نحو مخيم الصيادين، يبدأ كلب فى النباح: فى لحظة ينضم إليه آخر وينفجر الليل ضجة، صــيحات تحذير، صراخ أصيح مرعوباً بأعلى صوتى،"ما من

شيء" ولكن لا أحد يسمعنى. أقف حائراً فى منتصف الطريق. أحد ما يجتازنى راكضاً منحدراً نحو البحيرة، جسمٍ آخر ينقذف علـى، امـرأة. أعرف ذلك فى الحال، تلهث رعباً بين ذراعى قبل أن تتحرر وتختفى. هناك كلاب أيضاً، تزمجر من حولى: أدور بسـرعة حـول نفسى وأصرخ عالياً عندما يقضم أحدهم قـدمي، يمـزق جلدى، ثم يتراجع. العواء المجنون يحيط بى تمامـاً. كلاب البلدة تستجيب من خلف الأسوار، أقرفص على الأرض، وأدور فى حـلقة، مـتحفزاً لـلهجوم التالى. النحيب المعـدنى للأبـواق ينطلق عبر الهواء، تنبح الكلاب أعلى من قـبل. أجـر قدمى ببطء نحو الخيم، إلى أن يلوح أحد الأكواخ فجـأة فى الأفـق. أزيح جانباً حصيرة معلقة على مدخل الباب وأعبر إلى الدفء المتعفن حيث كان أناس حتى قبل دقائق قليلة ينامون.

الضـجة تموت فى الخادج، ولكن لا أحد يعود. الهواء فاسد ويـبعث على النعاس. أود أن أنام، مع ذلك يقلقنى رجع صدى ذلـك الاصـطدام الـناعم بى فى الطريق. مثل كدمة، يستبقى جسـدى أثر طبعة الجسد الذى أرتاح لدقائق على صدرى. أنا خـائف ممـا أنـا مؤهل له: من العودة غداً فى وضح النهار مـتوجعاً من الذكرى وأطرح أسئلة حتى أكتشف من كانت تلك التى هرعت نحوى فى الظلام لكى أمارس الحب معها بالتالى، طفـلة أم امرأة، مغامرة حسية مضحكة أخرى أيضاً. ليس من

حـــدود لحماقـــة رجال فى مثل سنى. عذرنا الوحيد هو أننا لا نـــترك علامة ما تخصنا على الفتيات اللاتى ينتقلن بين أيدينا. رغباتـــنا معقـــدة، ممارساتنا الحب لها طقوس، نشوتنا الخرقاء سرعان ما تنسى بأجمعها، إنهن لا يبالين بحركاتنا المهتاجة فى حين يندفعن باستقامة كالسهام إلى أذرع الرجال الذين سيحملون لهـــم أولادهـــم، شـــباب أقوياء صريحون. ممارساتنا للحب لا ســـتتذكره الفـــتاة الأخـــرى ذات الوجه الخالى من التعبير: أنا بمعطفى الحريرى المنزلى ومظهرى البائس وعطورى وزيوتى ومـــلذاتى التعيسة، أم ذلك الرجل الذى تعوزه الحرارة والقناع عـــلى عيـــنيه والذى أعطى الأوامر وتأمل الأصوات العميقة لألمها؟ وجه من كان آخر ما رأته بوضوح على الأرض غير ذلـــك الوجـــه خلف القضبان المتوهجة؟ على الرغم من أننى أنكمـــش مذلـــة، حتى الآن، يتحتم على أن أسأل نفسي فيما إذا كنت، عندما تمددت ورأسى عند قدميها، مدللاً ومقبلاً الكاحلين المكسورين، فى أعماق قلبى آسفاً لأننى لم أتمكن من أن أطبع نفســـى عـــليها بـــالعمق نفسه. مهما ستكن درجة الحنان التى ســـتعامل بهـــا من قبل أهلها، فإنها لن تحب وتتزوج بالطريقة الاعـــتيادية: إنهـــا وإلى نهايـــة حياتها ستبقى موسومة كملكية خاصـــة لغـــريب، ولن يقترب منها أحد ما إلا بروحية حسية مشفقة كئيبة كشفتها هى ورفضتها فىّ. لا عجب أنها استغرقت فى الـــنوم غالـــباً، لا عجب أنها كانت أسعد حالاً وهى تقشر

الخضــروات مــن نومهــا على فراشى. منذ تلك اللحظة التى توقفــت فيهــا قدمــاى أمامها عند بوابة الثكنات، لا بد أنها قد أحست بجو ضار من خداع يطوقها: حسد، شفقة، قسوة متنكرة جميعــاً بوصفها رغبة. وفى علاقتى الحسية بها لم يكن الدفاع بــل الرفض المجهد للدفع! أتذكر ابتسامتها الهادئة. منذ اللحظة الأولى تماماً عرفتنى مضللاً مخادعاً. أصغت إلىّ ثم إلى قلبها، وتصــرفت صــواباً بحسب أهواء قلبها. لو أنها فقط كانت قد وجــدت الكلمات لتحدثنى، كان عليها أن تقول،"الأمر ليس كما تفعلــه،"أن توقفنى وأنا فى أثناء الفعل،"إن أردت أن تتعلم كيف تمارســه، عليك أن تسأل صديقك ذا العينين السوداوين."وكان لزاماً عليها أن تضيف، كى لا تتركنى بلا أمل:"ولكن إن أردت أن تحبــنى عــليك أن تدير ظهرك له وتتعلم درسك فى مكان آخــر."لو كانت قد أخبرتنى آنذاك، لو كنت قد فهمتها، لو كنت فى وضــع يسمح لى أن أفهمها، لو كنت صدقتها، لو كنت فى وضــع يسمح لى أن أصدقها، لربما أنقذت نفسى من عام من حركات مضطربة غير مجدية للتفكير.

قياساً لم أكن، كما أحببت أن أعتقد، المنغمس الساعى وراء المــلذات مقــابل العميد القاسى المتصلب. كنت الأكذوبة التى تــرويها الإمــبراطورية لنفسها فى الأوقات الهيّنة. وكان هو الحقيقــة التى ترويها الإمبراطورية لنفسها عندما تهب الرياح الجافــة. وجهان للسلطة الاستبدادية، لا أكثر، لا أقل. ولكننى

سايرت الظروف، تطلعت إلى ما حول هذه الحدود الغامضة، هذا المكان المنعزل النائى ومواسم صيفها المغبرة وعرباتها المحملة بالشمس وقيلولاتها الطويلة ومواقعها العسكرية غير المتغيرة، والطيور المائية التى تهاجر منها وتعود إليها عاماً بعد عام جيئة وذهاباً عبر صفحة البحيرة المبهرة غير المتوجة، وقلت لنفسى،"كن صبوراً، سيرحل فى يوم من هذه الأيام، وسيعود الهدوء، عندئذ ستصبح قيلولاتنا أطول، وسيوفنا أكثر صدءاً، سيتسلل الحارس نازلاً من برجه ليمضى ليلته مع زوجته، سيتفتت مدفع الهاون حتى تعشش السحالى بين قطع الآجر ويطير البوم خارجاً من الكنيسة، والخط الذى يشير إلى الحدود على الخرائط سيزداد غموضاً وعتمة حتى نصبح منسيين، منعمين". هكذا أغويت نفسى، متخذاً واحدة من عدة انعطافات خاطئة فى طريق يبدو صحيحاً ولكنها أوصلتنى إلى قلب متاهة.

أقترب أنا فى الحلم منها متجهاً نحو الساحة المغطاة بالثلج. اسير فى بادئ الأمر: ثم، وبعد اشتداد قوة الريح، أغدو مندفعاً نحو الأمام بكتلة ثلجية دوامة، تمتد ذراعاى على الجهتين والريح تجتذب معطفى الفضفاض مثل شراع قارب. مستجمعاً السرعة، تنزلق قدماى على الأرض، أنقض على الكائن المتوحد عند زاوية الساحة. أفكر، "إنها لن تستدير فى الوقت المناسب لترانى أفتح فمى كى أصيح محذراً. يصل سمعى

شكوى خافتة، تتذبذب مع الريح، تدنو من السماء كقصاصة من ورق. إنــنى فوقهــا تقريباً، بل إننى بدأت أعد نفسى للصدمة، عــندما تســتدير وتــرانى. للحظة واحدة تتكون لدى صورة لوجههــا، وجه طفلة، يتوهج عافية، تبتسم لى دون خوف، قبل أن نتصــادم. يرتطم رأسها ببطنى، ثم أختفى، محمولاً من قبل الــريح. الضربة خفيفة كضربة فراشة. أنا مغمور بالارتياح. أفكــر، "إذن، بعــد كل ذلك ما كان على أن أقلق!" أحاول أن أتطــلع نحو الخلف، ولكن كان كل شىء قد اختفى عن البصر فى بياض الثلج.

فــمى مغطى بقبلات ندية. أبصق، أهز رأسى، أفتح عينى. الكلب الذى كان يلعق وجهي يتراجع هازاً ذيله. يتسرب الضياء عــبر مدخــل بــاب الكوخ. أزحف خارجاً إلى الفجر. السماء والمــاء مشــوبان بالــلون الوردى نفسه. البحيرة التى اعتدت رؤيــتها كــل صباح، قوارب الصيد ذات المقدمة غير الحادة خالية. المخيم، حيث أقف أنا خال أيضاً.

ألــفّ المعطف على نفسى بشدة أكثر، وأسير الطريق صاعداً متجاوزاً البوابة الرئيسية، التى ما تزال مغلقة، حتى برج المراقبة الشــمال – الغــرب، الــذى يــبدو خالياً، ثم العودة منحدراً على الطريق، قاطعاً الحقول، فوق السد متوجهاً نحو شاطئ البحيرة.

أرنـــب وحشى يفر من تحت قدمى ويسرع مبتعداً فى خط

متعرج. أبقى متتبعاً خطه حتى يستدير عائداً ويضيع أثره خلف الحنطة اليانعة فى الحقول البعيدة.

يقف ولد صغير فى وسط الدرب على مسافة خمسين ياردة منى، وهو يتبول. يرقب قوس بوله، يرقبنى أيضاً من طرف عينه، حانياً ظهره ليجعل الدفقة الأخيرة تنبجس أكثر. ثم يختفى فجأة، بذيله الذهبى الذى ما يزال معلقاً فى الهواء، منتزعاً من قبل يد سوداء امتدت من بين عيدان القصب.

أقف فى البقعة التى كان واقفاً عليها. لا شىء يمكن رؤيته غير خفق قمم القصب، التى تومض من خلالها نصف كرة تخطف البصر.

أقول رافعاً صوتى، "بإمكانك الخروج، ليس هناك ما يخشى منه". ألاحظ أن عصافير الدور، تتجنب هذا الموضع من القصب. ليس لدى أى شك فى أن ثلاثين زوجاً من الآذان تسمعنى.

أعود إلى البلدة.

البوابات مفتوحة جنود مسلحون بأعتدة ثقيلة، يبحثون بين أكواخ جماعة الصيادين. يسير معهم الكلب الذى أيقظنى منتقلاً من كوخ إلى كوخ، مرتفع الذيل، متدل لسانه، أذناه منتصبتان.

واحد من الجنود يتعثر بحامل علقت عليه الأسماك المنظفة

المملحة لتجف. ينطرح بصرير على الأرض.

أصيح، "لا تفعل ذلك!"، مسرعاً الخطى، أميز بعض هؤلاء الرجال من الأيام الطويلة للتعذيب فى ساحة الثكنات. "لا تفعلوا ذلك، لم يكن بسبب خطأ منهم!".

بلا مبالاة متعمدة، يتمشى الجندى نفسه نحو أكبر الأكواخ، يستجمع قواه مسنداً ثقله على دعامتين ناتئتين للسقف المصنوع مـــن القـــش. وعلى الرغم من الجهد الذى يبذله فإنه يفشل. لقد راقـــبت بناء هذه الأكواخ الهشة. التى بنيت لتقاوم شدة ريح لا يقدر طير على التحقيق أثناءها.

فقـــاعدة الســـقف مثبتة عمودياً إلى أعلى بأسيرة جلدية تمر عـــبر أســـنان اسفينية الشكل لا يمكن للمرء رفعها دون تقطيع الأسيرة الجلدية.

أحاجج الرجل."دعنى أخبرك بما حدث ليلة أمس. كنت ماراً فى الظلام وأخذت الكلاب تنبح. أنتاب الخوف الناس هنا، فقدوا عقولهـــم، أنـــت تعـــرف حالهم. من المحتمل أنهم اعتقدوا أن البرابرة قد وصلوا. لقد هرعوا منحدرين صوب البحيرة. أنهم يختبئون فى ادغال القصب – رأيتهم قبل مدة وجيزة. أنت غير قادر على معاقبتهم لمثل هذه الحادثة السخيفة".

يتجاهلـــنى، يســـــــاعده رفيق له فى الســـقف، متوازياً فوق

عارضـــتين، يـــبدأ في توجيه ضربات بكعب حذائه ذى الرقبة الطويـــلة، محدثاً ثقوباً فى السقف. اسمع خبطة فى الداخل فى حين ينهار مزيج الطلاء المتماسك من الحشائش والصلصال.

أصيح،"أوقف الأمر!" ينبض الدم فى صدغى."ماذا فعلوا لك كى يـــؤذوك؟" أتمسك بكاحله، ولكنه جد بعيد عنى. بإمكانى أن أقطع رقبته فى حالتى هذه.

يـــلقى أحدهم بنفسه أمامي: الصديق الذى ساعده فى العمل، يدمدم،"لماذا لا تذهب بعيداً. لماذا لا تذهب وتموت فى مكان ما".

اســـمع مـــن تحت القش والصلصال عوارض السقف وهى تتقصـــف تماماً. يمد الرجل الذى على السقف ذراعيه ثم يندفع إلى الداخل عبر فتحة وفى لحظة يكون هناك، عيناه مفتوحتان بدهشة، وفى اللحظة التالية، لا تبقى غير هبة من دخان معلقة فى الهواء.

يسحب البساط من مدخل الباب جانباً، قابضاً كلتا يديه معاً، مغطى من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بغبار أصفر."خراء!" يقول."خراء، خراء، خراء!" ينفجر رفاقه بالضحك. يصيح، "لا يدعو الأمر للهزء، لقد آذيت إبهامى الملعون!" يعتصر يده بين ركبتيه."الملعون يؤلمنى!" يوجه رفسة نحو الجدار، واسمع مرة أخـــرى، الطلاء ينهار فى الداخل. يقول،"متوحشون، ملعونون! كـــان يتوجب علينا إيقافهم فى صف تجاه الجدار وإطلاق النار عليهم منذ أمد بعيد – مع أصدقائهم!"

متطـــلعاً إلى ما ورائى – متطلعاً نحوى مباشرة، متجنباً بكل الطــرق رؤيــتى، يبتعد مختالاً. وفى الوقت الذى يجتاز الكوخ الأخير يشق البساط المعلق على مدخل الباب. حبال الخرز التى تزيــنه تنقطع وتتناثر الحبات فى كل مكان: ثمار العليق الحمر والسود، وحبوب البطيخ المجففة. أقف فى الطريق متمهلاً أنتظر خمــود رعشة الغضب التى تجتاحنى. أفكر فى فلاح شاب جئ بـــه إلى مرة فى تلك الأيام التى كنت أقضى فيها أمور الحامية. كان قد أودع لدى الجيش لمدة ثلاثة أعوام من قبل قاض فى بلدة بعيدة بتهمة سرقة عدد من الدجاج. بعد شهر أمضاه هنا، حاول الهــرب إلى الصحراء. قبض عليه وجلب أمامى. طلب أن يرى والدتـــه وشقيقاته ثانية، أفهمته قائلاً"نحن لا نقدر تماماً على فعل ما نرغب فيه، نحن جميعاً خاضعون للقانون، الذى هو أكبر من أى واحد منا. القاضى الذى أرسلك إلى هنا، أنا شخصياً، أنت – كلـــنا خاضعون للقانون."تطلع إلى بعينين باهتتين، منتظراً سماع الحكـــم عليه، حارساه الغليظان خلفه، يداه موثقتان بالأغلال إلى الخـــلف". أعـــرف أنـــك تحس بأن الأمر غير عادل، لامتلاكك مشاعر ولد صالح. أنت تعتقد بأنك تعرف ما هى العدالة وما هو غير ذلك. أنا أفهم. كلنا يعتقد بأنه يعرف".

عـــندئذ، لـــم يكن لدى أى شك شخصياً، إنه فى لحظة، كل واحـــد منا، رجل، امرأة، طفل بل ربما حتى الحصان العجوز المســكين، الذى يدير عجلة الطاحونة، قد عرف معنى العدالة:

تأتى كافة المخلوقات إلى العالم حاملة معها ذكرى العدالة. "قلت لسجينى المسكين، "ولكننا نعيش فى عالم من القوانين. عالمٍ أفضل من الدرجة الثانية. ليس بمقدورنا عملٍ أى شىء بشأنه. نحن مخلوقات خربة. كل ما نقدر عليه جميعاً هو دعم القوانين، دون أن نسمح بتلاشى ذكرى العدالة". بعد أن قمت بتوبيخه، أصدرت حكماً عليه. تقبل الحكم دون تذمر وقاده حارساه إلى الخارج. أتذكر إحساس الخزى غير الهين الذى شعرت به فى أيام مثل تلك. كنت اعتدت على مغادرة قاعة المحكمة والعودة إلى شقتى والجلوس طوال المساء فى الظلام على الكرسى الهزاز، دون أن أحس بشهية لطعام، حتى يحين موعد ذهابي إلى الفراش. قلت لنفسى". عندما يعانى بعض الرجال ظلماً، فإنه قدر أولئك الذين يشهدون معاناتهم كى يعانوا الخزى منه – ولكن المواساة الخادعة لهذه الفكرة لا تتمكن من إراحتى. لقد داعبتنى أكثر من مرة فكرة الاستقالة من منصبى، الانصراف عن الحياة العامة، شراء أرضٍ تزرع فيها الخضر. لكننى فكرت، فيما بعد، أن شخصاً آخر سيعين كى يتحمل عار المنصب، وأن ما من شىء سيتغير. وهكذا واصلت مهامى حتى باغتتنى الأحداث فى يوم من الأيام.

* * *

الفارسان على مسبعدة أقل من ميل، وقد بدءا فى اجتياز الحقول الجرداء فى الوقت الذى عنّا للبصر. أنا واحد من

الحشـد الـذى، سمع أصوات الانطلاقات المرحبة تنهمر من الأسـوار، ذلـك أننا جميعاً نميز لواء الكتيبة الخضر والذهبى الـذى يحملانه. أسير بخطوات واسعة بين الأطفال المهرولين المنفعلين فوق التربة حديثة التقليب.

الفارس على اليسار، الذى كان ممتطياً كتفاً إلى كتف بجوار زميله، يستدير مبتعداً باتجاه الطريق المحاذى للبحيرة.

يواصـل الفـارس الثانى السير متمهلاً نحونا، جالساً على السـرج بانتصـاب شديد، ماداً ذراعيه إلى جانبيه كأنما يريد احتضاننا جميعاً أو الطيران عالياً نحو السماء.

أبـدأ فى الـركض بأسـرع مـا فى اسـتطاعتى، نعلاى يجرجرانى فى الأرض، قلبى يخفق.

مـن مسـافة مئة ميل عنه، هناك خبط حوافر خلفه وثلاثة جـنود مدرعون يعبرون عَدْوًا، يتسابقون باتجاه أجمة القصب التى قد اختفى فيها الآن الفارس الآخر.

أنضم إلى الحلقة من حول الرجل (أتعرف عليه، على الرغم مـن التغيير) الذى حدث والراية ترفرف بشجاعة فوق رأسه، يحدق بنظرات خالية من التعبير نحو البلدة. وهو مثبت بحبال إلى قـاعدة خشـبية متينة تمسكه منتصباً على سرجه. عموده الفقرى منتصب بقائم ويداه مربوطتان إلى قطعتين متعارضتين.

الذبـــاب يحوم وجهه، فكاه مكبلان تماماً، لحمه منتفخ، تفوح منه رائحة تبعث على الغثيان، لقد مضت أيام عدة على وفاته.

يتعـــلق طفل بيدى ويهمس، "أهو بربرى يا عم؟". أرد عليه هامســـاً، "لا". يســـتدير نحو الولد الذى يجاوره ويهمس، "هل ترى، لقد قلت لك".

نظـــراً لعـــدم تهيؤ شخص آخر للقيام بالأمر، فأنا الشخص الـــذى يقع عليه نصيبه أن يلتقط الزمام المتجرجر وأتقدم هذه البشـــائر المرسلة من البرابرة عائداً عبر البوبات الكبيرة، ماراً بالحراس الصامتين، إلى ساحة الثكنات، والقيام هناك بفك إسار حاملها وإعداده للدفن.

الجـــنود الذيـــن انطـــلقوا خلف مرافقه الوحيد، سرعان ما يعـــودون. يتوجهون خبباً عبر الساحة إلى مبنى المحكمة التى يديـــر فيهـــا مانديل شؤونه ويختفون داخلها. وعندما يظهرون ثانية، يرفضون التحدث مع أحد ما.

لقـــد تـــأكدت هواجس الكارثة كافة. يستولى وللمرة الأولى عـــلى البـــلدة فـــزع حقيقى. المتاجر مزدحمة بمشترين يزايد بعضهم على بعض من أجل خزن الطعام، تحجز بعض الأسر نفســـها فى بيوتها، يجمعون الطيور البرية وحتى الخنازير فى الداخـــل معهـــم. المدرســـة أغـــلقت. أقاويل عن أن جمعاً من الـــبرابرة قـــد خيـــم على مبعد عدة أميال على ضفاف النهر

المـتفحّة، وأن هجومـاً عـلى البلدة على وشك الوقوع، تنتقل بسـرعة من زاوية شارع إلي شارع. الأمر الذى لا يصدق قد وقـع: الجيش الذى سار قدماً بسرور فائق قبل ثلاثة أشهر لن يعود أبداً.

البوابات الكبيرة أغلقت وزلجت. ألتمس من رئيس المراقبة أن يسـمح لمجموعة الصيادين بالدخول. أقول، "إنهم فى فزع عـلى أرواحهـم". يدير ظهره لى دون أن يجيب. الجنود فوق رؤوسنا على المتاريس، الرجال الأربعون الواقفون بيننا وبين الفـناء، يحدقـون نحـو الخارج فى طول البحيرة والصحراء وعرضهما.

عند مجيء الليل، وأنا فى طريقى إلى سقيفة مخزن الحبوب حيـث مـا أزال أنام، أجد طريقى مسدوداً. صف من عربات ذوات العجلـتين تجرها الخيول التابعة لإدارة المؤونة الحربية تعـبر على طول الممر. الأولى محملة، كما أميز، بأكياس من حـبوب المخـزن، الـبقية فارغـة. يتبعها صف من الخيول، مسـرجة مغطـاة بالـبطانيات، من حضائر الحرس، أستطيع الـتخمين أن كـل حصـان إما أنه قد تمت سرقته وإما أنه قد صودر لأغراض عسكرية، فى الأسابيع الماضية. تطلع الناس مـن بيوتهـا، مسـتيقظين على الجلبة، ويقفون جنباً إلى جنب بهـدوء يراقـبون مناورة الانسحاب الجلية هذه والتى وضعت خطتها قبل زمن طويل.

أطلب مقابلة مانديل، ولكن الحارس عند مبنى المحكمة متبلد مثل رفاقه.

مانديل فى الحقيقة ليس فى مبنى المحكمة. أعود إلى الساحة فى الوقت المناسب كى أسمع نهاية بيان يقرأ علناً"باسم قيادة الإمبراطورية". الانسحاب كما يقول، هو"إجراء وقتى". سنترك فى الخلف قوة لتولى الأمر مؤقتاً". وهو يود أن يشكر الجميع على "الضيافة التى لا يمكن أن ينساها" والتى أظهرت له؟

بينما يتحدث هو، واقفاً فى إحدى العربات الفارغة محاطاً بجنود يحملون مشاعل، يعود رجاله بثمار غاراتهم. يجاهد اثنان لتحميل موقد من الحديد الصلب سرقة من منزل خال. يعود آخر مبتسماً بانتصار وهو يحمل ديكاً ودجاجة، الديك رائع بلونيه الأسود والذهبى. يقبض عليهما من الأجنحة وأرجلهما مشدودة، وأعينهما تتوهج شراسة. فى حين يمسك أحدهم ليحشرهما فى داخل الموقد. العربة محملة عالياً بأكياس وبراميل صغيرة من متجر منهوب، بل وحتى بمنضدة وكرسيين. يقومون بفرش سجادة ثقيلة حمراء فوق الحمل، ثم يربطونه بحبل من تحت. لا يصدر أى اعتراض من الناس الواقفين المراقبين هذا العمل المنسق للغدر، ولكننى أشعر بموجات من غضب لا إرادى تجتاح كل جسدى.

العربة الأخيرة حملت. البوابات فتحت مزاليجها، يمتطى

الجـنود خيولهـم. أسـتطيع أن أسمع شخصاً فى مقدمة الرتل يجـادل مـانديل، وهو يقول،"مجرد ساعة واحدة أو نحو ذلك، سيكونون جاهزين فى خلال ساعة". يجيب مانديل،"لا جدال فى ذلـك،" وتحمـل الريح بقية كلامه. يدفعنى جندى عن طريقه ويـرافق ثلاث نسوة محملات برزم ثقيلة إلى العربة الأخيرة. يصـعدون فوقها ويتخذون فيها أماكنهن، ممسكات ببراقع على وجوههـن. تحمل إحداهن فتاة صغيرة وتحطها فوق الأحمال. تطرقع الأسواط، يبدأ الرتل الحركة، تجهد الخيول نفسها، تصر عجلات العربات. يأتى فى مؤخرة الرتل رجلان يقودان قطيعاً من اثنى عشر خروفاً.

وبيـنما تمر الخراف، تزداد الدمدمة فى الحشد. يندفع شاب بعـنف خارجاً وهو يصيح ملوحاً: تتشت الخراف فى الظلمة، وبزمجـرة يضـم الحشـد صـفوفه. تفرقع فى الحال، أولى الرصاصـات. مهرولاً بأسرع ما فى استطاعتى وسط عشرات مـن أنـاس آخرين صارخين مهرولين. لا أحتفظ إلا بصورة واحـدة لهـذا الهجوم العقيم: رجل متماسك بالأيدى مع إحدى نسـوة العـربة الأخيـرة، يمزق ملابسها، ترقب الطفلة الأمر بعينين مفتوحتين باتساع وإبهامها فى فمها. بعدئذ تصبح خالية ومظـلمة ثانية، تتدحرج العربة الأخيرة عبر البوابات، الحامية غادرت.

لمـا تبقى من الليل، تبقى البوابات مفتوحة، مجموعات من

عوائــل قليــلة، أغلبيتها على الأقدام مثقلة بأحمال ثقيلة، تهرع خلف الجنود.

وتنسل قبل الغسق، مجموعة الصيادين إلى الداخل، دون أن تواجــه مقاومة تذكر، وهى تحمل أطفالها المرضى وممتلكاتها التى تثير الشفقة وحزماً من أعمدتها وعيدان قصبها التى ستبدأ بها من جديد مهمة بناء بيوتها.

* * *

شقتى القديمة مفتوحة الباب. الهواء عفن فى داخلها. لم تنظف محــتوياتها مــن الغبار منذ زمن طويل. صناديق المعروضات – الأحجــار والبيوض والمصنوعات التى تعود لخرائب الصحراء – اخــتفت بأكمــلها. دفعــت قطــع الأثاث فى الغرفة الأمامية نحو الجــدران ورفعــت السجادة. غرفة الاستقبال الصغيرة، لم تمس، ولكن أغطية قطع الأثاث تحمل رائحة نتنة فاسدة.

فى غــرفة النوم، الشراشف قلبت جانباً بالحركة نفسها التى أســتخدمها أنا، وكأننى، شخصياً كنت نائماً هنا. رائحة منفرة تفوح من البياضات غير المغسولة.

المبولة فى غرفة النوم، تحت السرير، ممتلئة حتى نصفها. يوجــد فى خــزانة الملابس قميص ذو ياقة مجعدة وحلقة بنية تطوقهــا من الداخل وبقع صفراء تحت الإبطين. ملابسى كلها اختفت.

أجـــرد الفـــراش من الأغطية وأستلقى على المرتبة الجرداء، متوقعاً أن يزحف على إحساس بالقلق، شبح رجل آخر ما يزال متخـــلفاً بيـــن روائحه العطرة وفوضاه. ولكن ذلك الإحساس لا يأتى: الغرفة مألوفة كما كانت دائماً. وذراعاى على وجهى، أجد نفســـى منساقاً إلى النوم. قد يكون الأمر حقيقة أن العالم كما هو حالــــه الآن ليـــس وهماً، ليس حلماً رديئاً. قد يحدث أننا نستيقظ عـــلى تغييـــره وأننا غير قادرين على نسيانه ولا على الاستغناء عـــنه. ولكنى أجد الأمر صعباً كما فى السابق من أن أؤمن بأن الـــنهاية وشـــيكة. أعلم أنهم إن هجموا الآن فسأموت فى فراشى أحمـــق وجاهلاً مثل طفل رضيع وسيكون الأمر أكثر ملاءمة أن قـــبض على وأنا فى بيت المؤونة والملعقة فى يدى وفمى ملآن بـــتين معلب مسروق من آخر قنينة على الرف: عندئذ قد يقطع رأســـى ويرمى فوق الرؤوس المكومة خارجاً فى الساحة، وهى مـــا تزال تحمل نظرة الألم ودهشة الشعور بالإثم، لغارة التاريخ هـــذه عـــلى الـــزمن الساكن للواحات: لكل واحد نهايته الخاصة الأكـــثر تطابقـــاً معه. سيلقى القبض على بعض الأشخاص فى مخـــابئ تحـــت ســـراديبهم وهم ممسكون بحاجياتهم الثمينة إلى صدورهم، وهو يغلقون أعينهم بشدة. بعضهم سوف يموت على الطـــريق مغمـــوراً بأولى ثلوج الشتاء. قلة منهم قد تموت وهى تناضـــل مـــع المذراة. بعد ذلك كله، سيمسح البرابرة مؤخراتهم بســـجلات البلدة. وحتى النهاية لن نكون قد تعلمنا شيئاً. يبدو أن

هـــناك فى دواخلنا جميعاً فى أعمق أعماقنا شيئاً ثابتاً عنيداً غير قـــابل على التعلم. لا يؤمن أحد منا حقاً، على الرغم من الهياج العـــاطفى فى الشوارع، بأن العالم ذا الحقائق الساكنة التى ولدنا فيه، هو على وشك الانطفاء. لا أحد يتقبل أن جيشاً استبدادياً قد سحق من قبل رجال يحملون أقواساً وسهاماً وبنادق صدئة قديمة ويعيشـــون فى خيـــام ولا يغتســـلون أبداً ولا يستطيعون القراءة والكـــتابة. ومن أنا كى أسخر من أوهام تمنح الحياة؟ هل هناك وسيلة أفضل لتمضية هذه الأيام الأخيرة من أن أحلم بمنقذ يحمل سيفاً سيقوم بتشتيت جيش الأعداء ويغفر لنا الخطايا التى اقترفت مـــن قـــبل آخـــرين بأســـمائنا ويمنحنا فرصة ثانية لبناء جنتنا الأرضية؟ أتمدد على المرتبة الجرداء وأركز فى إعادة صورتى كســـباح إلى الحيـــاة، ســـابحاً بضربات هادئة غير متعبة عبر واســـطة الـــزمن، واســـطة أكـــثر قصوراً من الماء، من دون تموجات، شاملة، لا لون لها، لا رائحة، جافة مثل ورقة.

* * *

٦

ثمة فى صباحات بعض الأيام، آثار حوافر حديثة العهد فى الحقـــول، بيـــن الأجمات الممتدة فى غيرٍ انتظام تعلم آخر حد للأرض المحروثة، يشاهد المراقب شكلاً يقسم على أنه لم يكن هناك فى اليوم الذى مضى والذى اختفى فى يوم تال. لا تجرؤ مجموعة الصيادين على الخروج قبل شروق الشمس وقد تدنى محصولهم إلى حد كبير لأنهم لا يحضرون إلا بشق الأنفس.

فى غضون يومين من عمل مشترك بذلنا فيه جهدنا والبنادق عـــلى جوانبـــنا، قمنا بحصاد الحقول القصية، كل ما تبقى بعد الفيضان. المحصول أقل من أربعة أكواب فى اليوم لكل عائلة، ولكنه أفضل من لا شىء.

عـــلى الـــرغم مـــن أن الحصان الأعمى يستمر فى إدارة الـــدولاب الـــذى يمـــلأ الصفيحة بقرب شاطئ البحيرة ليروى بســـاتين البلدة، فإننا نعلم أنه من الممكن قطع أنبوب الرى فى لحظة من الزمن وبدأنا فعلاً فى حفر آبار جديدة داخل البيوت. لقـــد قمت بتحريض زملائى من المواطنين على زرع الحدائق الخلفية التى تطل على مطابخهم، بجذور ستقاوم صقيع الشتاء. أقـــول لهـــم،"علينا فوق كل شئ إيجاد وسائل للبقاء أحياء فى

الشتاء.سيرسلون إلينا نجدة فى الربيعٍ، لا شك فى ذلك. بإمكاننا بعد أول ذوبان للثلوج أن نزرع دخناً ينضج فى ستين يوماً".

أغلقت المدرسة وصار الأطفال يعملون فى الأجزاء الجنوبية الناتئة المالحة من البحيرة فى صيد سرطانات حمراء صغيرة توجد فى المياه الضحلة. نقوم نحن بتعريضها للدخان ورزمها فى شرائح زنة الواحدة منها رطلاً واحداً. لها طعم دهنى ردىء. تتناوله اعتيادياً مجموعة الصيادين فقط، ولكن قبل انصراف الشتاء سنكون سعداء جداً أن امتلكنا جرذاناً وحشرات لنلتهمها.

على طول السور الشمالى قمنا بإسناد صف من الخوذ مع رماح منتصبةٍ إلى جوارها يمر طفل كل نصف ساعة بجانب الصف مزحزحاً بعض الشىء كل خوذة. وهكذا نأمل أن نخدع أعين البرابرة الحادة. تتألف الحامية التى أورثها إيانا مانديل من ثلاثة رجال. إنهم يتناوبون الوقوف عند الباب المغلق للمحكمة، ولأن بقية سكان البلدة يتجاهلونهم، فإنهم قد انعزلوا عن الآخرين.

توليت أنا الإرشاد فى كل التدابير التى اتخذت من أجل الحفاظ علينا، دون أن يعترضنى أحد. لحيتى شذبت وارتديت ملابس نظيفة، واستعدت فى الحقيقة الإدارة القانونية التى كنت انقطعت عنها قبل عام مضى مع مجىء الحرس المدنى.

يتحــتم علينا قطع حطب للوقود وخزنه، ولكننا لا نجد من يغامر بالذهاب إلى الغابة المزروعة بالشوندر فى موازاة النهر، حيــث يقســم الصيادون على أنهم شاهدوا آثارا طرية لمخيم للبرابرة.

* * *

أصحو على طرق باب شقتى. إنه رجل يحمل قنديلاً، متقد الوجه بفعلِ الريح، هزيل منقطع الأنفاس، يرتدى معطف جندى يبدو واسعاً عليه. يحدق فى وجهى فى حيرة.

أقول،"من أنت؟"

"أين الضابط المفوض للترخيص؟"

يجيب لاهثاً محاولاً إلقاء نظرة من فوق كتفى.

الســاعة الآن الــثانية بعــد منتصف الليل، فتحت البوابات للســماح بدخول عربة العميد جول، التى تقف ومقدمتها تستقر عــلى الأرض وســط الساحة. عدد من الرجال يجتمعون فى جانــبها اتقــاء لــلريح القوية رجال المراقبة، من فوق السور يتطلعون نحو الأسفل.

يقول زائرى،"نحن فى حاجة إلى طعام، خيول قوية، علف". يــتقدم إلى الأمــام، يفتح باب العربة، يتحدث:"سيدى، الضابط

المفـــوض غيـــر موجود. لقد غادر". عند النافذة، وفى ضياء القمـــر، ألمـــح جول نفسه. يرانى هو أيضاً: يغلق الباب بقوة. أســـمع صوت المزلاج فى الداخل. أتمكن، متطلعاً من الجانب الآخـــر لـــلزجاج، مـــن أن أستكشف تفاصيله وهو يجلس فى الزاوية المظلمة الأبعد، محوّلاً بقوة، أطرق على الزجاج، لكنه لا يولينى اهتماماً. يقوم تابعه، بعدئذ بإبعادى عنه.

حجارة تستقر على سقف العربة، منطلقة من الظلام.

حـــارس آخر لجول يأتى مهرولاً. يلهث ويقول،"الإسطبلات فارغـــة، لقد أخذوا كل ما فيها". الرجل الذى فك أعنة عدد من الخيـــول الـــتى تقطر عرقاً، يبدأ فى اللعن، حجارة ثانية لكنها تخطئ العربة وتكاد تضربنى. لقد قذفت من فوق الأسوار.

أقـــول،"أصـــغ إلى. إنـــك تشعر بالبرد وبالتعب. دع الجياد تسترح، تعال إلى الداخل، تناول شيئاً ما، احك لنا قصتك. نحن نتـــلقى أخـــباراً منذ مغادرتك. إن أراد ذلك الرجل المجنون أن يجلس فى عربته طوال الليل، دعه يجلس".

بالكـــاد يصغون إلى، رجال فى حالة جوع شديدة، متعبون أدوا أكثر من واجبهم فى سحب رجل الشرطة هذا إلى السلام مـــن بين قبضة البرابرة. يتهامسون فيما بينهم، وقد بدأوا فعلا بإعادة شد زوج من العدة البالية لخيولهم.

أتطلع عبر الزجاج إلى الشيء الضبابي الباهت عبر الظلمة الـذي هـو العميد جول. يرفرف معطفي الفضفاض، أرتجف بـرداً، وبسبب توتر غضبي المكبوت أيضاً. حافز يسرى فى داخـلي أن أكسر الزجاج، أن أصل إلى الداخل وأسحب الرجل خارجـاً عـبر الفتحة المثلومة وأن أحس بجسده معلقاً وممزقاً عـلى حافات الزجاج، أن أقذف به أرضاً وأرفس جسده حتى يصبح عجينة.

وكأنمـا أحس بهذا التدفق المهلك، يدير وجهه على مضض نحـوى. ثم ينحرف جانباً فى جلسته كى يتمكن من النظر إلى مـن خـلال الزجاج. وجهه مجرد من أى معنى، باهت ربما بتأثير ضياء القمر الأزرق، أو ربما بفعل تعب جسمانى. أحدق فى صـدغيه المـرتفعين الشـاحبين. ذكـريات عن ثديى أمه الناعمين، عن الحبل فى يده لأول طائرة ورقية جعلها تحلق فى حياتـه، وفضـلاً عـن تلك الأمور التى تتعلق بصميم طبيعته الوحشية التى أكرهه من أجلها، المستترة المحشورة فيه.

يتطلع إلى الخارج نحوى، تبحث عيناه عن وجهى. العدستان السـوداوان قد اختفتا، أيضطر هو أيضاً إلى كتم حافز غضب مكـتوم يدفعـه إلى الوصـول إليّ والقـبض عليّ بكلتا يديه، ويعمينى بالشظايا؟

لـدى درس له فكـرت به كثيراً. أغمغم بالكلمـات وأرقبه

وهــو يقــرأها من شفتى، أقول:"الجريمة الكامنة في دواخلنا، يتوجب علينا إنزالها على أنفسنا". أومئ وأومئ دافعاً بالرسالة كى تصــل الهــدف. أقول: "ليس على آخرين ":أعيد الكلمات، مشيراً إلى صدره. يرقب شفتى، تتحرك شفتاه الرفيعتان مقلدة، أو ربمــا فى ســخرية. حجارة أخرى، أثقل وزناً، أجرة ربما، تضــرب العــربة بطقطقة مدوية. يجفل هو، ترتج الخيول فى أعنتها.

يأتى أحدهم مهرولاً، يصيح،"أذهب!" يدفعنى جانباً، يضرب على باب العربة. يداه مملوءتان بأرغفة خبز. يصرخ،"يجب أن نذهب!". يفتح العميد جول المزلاج ويسقط الأرغفة إلى الداخل. ينغــلق الــباب بعــنف، يصيح،"أسرع!". تبدأ العربة بالحركة، ونوابضها تصرّ.

أقــبض على ذراع الرجل، أصرخ،"أنتظر! لن ادعك تذهب حــتى أعــرف مــا حدث!" يصيح، ضارباً على قبضتى،"ألا تســتطيع أن تــرى؟". يــداى مــا تزالان ضعيفتان: من أجل الإمساك به كان على أن أحيطه بهما. ألهث،"أخبرنى، وبإمكانك الذهاب بعدئذ!".

تقترب العربة من البوابة. الرجلان الممتطيان قد انتهيا من اجــتيازها، الــرجال الآخــرون يهرولون فى الخلف. أحجار تطقطــق عــلى العــربة مندفعة من الظلام، تنهال الصرخات

واللعنات عليهم كالمطر.

يقول وهو يقاوم عبثاً"ماذا تريد أن تعرف؟".

"أين الآخرون؟".

"ذهبوا، تشتتوا فى كل مكان. لا أعرف مكانهم. كان علينا أن نعثر على طريقنا. كان من المستحيل أن نبقى معاً." وفى الوقت الذى يختفى رفاقه فى الليل، يصارع هو بقوة أشد. "دعنى أذهب!" إنه ليس أقوى من طفل. "ستذهب فى خلال دقيقة واحدة. كيف يمكن أن يحدث أن البرابرة قد فعلوا هذا بكم؟".

"لقد كنا نتجمد فى الجبال! تعرضنا لجوع شديد فى الصحراء! لماذا لم يخبرنا أحد بأن الأمر سيكون كذلك؟ لم نهزم – لقد قادونا إلى الصحراء ثم اختفوا بعد ذلك!"

"من قادكم؟"

"هم – البرابرة. لقد غرروا بنا مراراً وتكراراً. لم نقدر أبداً الإمساك بهم. التقطوا المجموعات المتناثرة فى غير انتظام، قطعوا أعنة خيولنا فى الليل، ولم يعد بمقدورنا الاستفادة منها!"

"هكذا استسلمتم وعدتم إلى البلدة؟"

"نعم!"

"هل تتوقع منى أن أصدق ذلك؟"

يحدق فى بيأس، يصيح، "وما الذى يضطرنى إلى الكذب؟ لا أريد أن أتخلف هنا. ذلك كل ما لدى!" يحرر نفسه منى، يحمى رأسه بيديه، يهرع عبر البوابة ونحو الظلمة.

توقف الحفر فى البئر الثالثة. بعض الحفارين ذهبوا تواً إلى منازلهم، يقف آخرون حولها منتظرين الأوامر.

أقول،"ما المشكلة؟"

يشيرون إلى العظام المكومة على أرض طرية: عظام طفل.

أقول،"لا بد أن قبراً كان هنا، موضع غريب لقبر". نحن فى الأرض المفروزة الخالية خلف الثكنات، ما بين الثكنات والسور الجنوبى. العظام قديمة، إذ إنها امتصت لون الطمى الأحمر". ماذا تريد أن نفعل؟ بإمكاننا أن نبدأ الحفر ثانية فى الناحية الأقرب إلى السور".

يساعدونى فى تسلق الحفرة. واقفاً فى الحفرة، بعمق يصل صدرى، أنبش بأظافرى مبعداً التراب من حول عظم فك مطمور فى الجدار. أقول،"ها هى الجمجمة،" لا، ليست هى، الجمجمة قد أخرجت من قبل، يعرضونها على".

يقول ملاحظ العمال،"انظر إلى ما تحت قدميك".

الظلمة الشديدة لا تساعد على الرؤية، ولكننى عندما أضرب بالمعول، أصطدم بشىء صلب، تقول أصابعى إنه عظم.

يقــول،"إنهـــا لـــم تدفـــن جيدا". يجلس القرفصاء عند حافة الحفرة". إنها مرمية كيفما اتفق. بعضها على بعض".

أقول،"نعم، نحن لا نقدر على الحفر هنا، هل نقدر؟"

يقول،"لا".

"علينا ملؤها والبدء من موضع أقرب إلى الجدار".

إنـــه صامت. يمد يداً لي ويساعدني على الخروج. لا يتفوه الواقفـــون بشيء أيضاً. يتوجب علي إعادة العظام إلى مكانها، وأن أجـــرف الدفعة الأولى من التراب قبل أن يلتقط كل واحد مسحاته.

* * *

في الحـــلم أقـــف ثانية في الحفرة. الأرض رطبة، مظلمة، يتســـرب الماء منها، تخوض قدماي في الوحل، يتطلب رفعهما جهداً متأنياً.

أتـــلمس طريقي تحت السطح، بحثاً عن العظام، تمسك يداي بطـــرف كيـــس مـــن القـــنب، أسود، متعفن، يتفتت تماماً بين أصابعي. أغوص عائداً إلى الوحل، مذراة ملتوية وملونة، طائر ميـــت، بـــبغاء: أمســـك بها من ذيلها، ريشها الملطخ بالطين يتـــهاوى، جـــناحاها المشبعان بالماء يسقطان، محجرا عينيها فارغـــان. عـــندما أطلقها تسقط على السطح من غير أن تثير

طرطشـــة ماء."ماء مسموم" أفكر بالأمر،"يجب أن أكون حذراً في عدم الشرب من هنا. يجب أن لا ألمس فمي بيدي اليمنى".

* * *

لم أنم مع امرأة منذ عودتي من الصحراء. والآن وفي أكثر الأوقات غير الملائمة، أحس بذكورتي تؤكد نفسها. أنام بصورة سـيئة وأصــحو في الصباح بانتصاب عنيد يتزايد مثل غصن يخــرج من بين تقاطع فخذي. لا علاقة للأمر بالرغبة. انتظر، وأنا نائم في فراشي المجعد زواله. أحاول أن أستحضر صورة الفــتاة الــتي نامت معي هنا ليلة بعد ليلة. أراها واقفة، حافية القدمين في قميصها الداخلي، قدم في الطست، ومنتظرة أن أقوم بغسلها، تضغط يدها على كتفي. أرغو الصابون على سمانتها القصــيرة الممتلــئة. تنزع القميص، وتسحبه من فوق رأسها. أرغو فخذيها، ثم أضع الصابون جانباً، أحتضن وركها، أدعك وجــهي ببطــنها. أستطيع شم الصابون. شاعراً بدفء الماء، بضغط يديها.

أخــرج مــن أعمــاق تلك الرغبة إلى لمس نفسي. لا وثبة اســتجابة هناك. إنه مثل لمس رسغي: جزء مني ولكنه صلب. متبلد، امتداد لا حياة خاصة به. أحاول أن أنجح في المحاولة: لا جدوى، فلا إحساس هناك، أقول لنفسي،"إنني مجهد".

أجـــلس لمــــدة ســــاعة على كرسى ذى ذراعين منتظراً أن يتضاءل قضيب الدم هذا. فى الوقت المناسب يفعل. أرتدى بعد ذلك ملابسى وأغادر الغرفة.

يعـــاودنى الأمـــر فى الــليل: يبرز سهم فىّ، مشيراً إلى لا مكـــان. أحـــاول ثانية أن أطعمه بالصور، لكننى لا أتبين أى استجابة للحياة.

يقـــول العشاب،"جرب عفن الخبز ولب عشبة الحليب، وقد يكـــون له مفعـــول. إن لــــم يؤثـــر، عد إلىّ، هاك بعض جذر الحليب، اطحنه وامزجه حتى يصبح معجوناً ثم أضف إليه عفن الخـــبز وبعض الماء الدافئ. تناول معلقتين مملوءتين بعد كل وجـــبة. إنه ذو مذاق غير محبب، مر جداً، ولكن كن واثقاً من أنه لن يسبب لك الأذى مطلقاً".

أناولــــه أجره فضة. لا أحد غير الأطفال يقبلون تسلم نقود نحاسية اليوم.

يقول،"ولكن قل لى، لماذا رجل ذو صحبة جيدة مثلك، يريد أن يقتل رغباته؟"

"الأمر لا علاقة له بالرغبة، أبى، إنه تهيج فقط، تصلب مثل الرومانتزم". يبتسم، أبتسم له بدورى.

أقول،"لابد أن هذا الدكان هو الوحيد الذى لم ينهب". إنه ليس

بدكان، مجرد تجويف فى جدار، واجهة تحت ظلّه، مع رفوف لمرطبات يعلوها الغبار، وجذور وحزم من أوراق يابسة تتدلى مـــن كلابـــات على الجدار، الأدوية التى عالج بها البلدة طيلة خمسين عاماً.

"نعـــم، أنهم يزعجوننى. اقترحوا أن أترك وشأنى". البرابرة ســـوف يقلون خصيتيك ويأكلونهما" – ذلك ما قالوه، تلك كانت كلماتهم. قلت،"لقد ولدت هنا" وسأموت هنا، لسبت بمغادر. "وقد رحلوا، فالأمر أفضل من دونهم. هذا ما أقول".

"نعم".

"جرب جذر الحليب، عد إن لم ينفع".

أشرب الدواء المر المستحضر وآكل الكميات التى أقدر على تـــناولها من الخس ما دام الناس يقولون إن الخس يقضي على فحولـــة المـــرء. ولكننى أفعل ذلك، نصف راغب، واعياً أننى أسيء تفسير العلامات.

أقـــوم أيضـــاً بزيارة مى، الفندق قد أغلق أبوابه، بسبب قلة الـــزبائن، وهى الآن لمساعدة أمها فى الثكنات. أعثر عليها فى المطـــبخ وهى تضع طفلها فى مهده بالقرب من الموقد، تقول، "أحب الموقد الكبير الذى لديكم، إنه يحتفظ بدفئه لساعات. دفـــء لطيـــف جـــداً". تحضر الشاى، نجلس معاً عند المائدة، نرقب

توهج الفحم من خلال الحاجز المشبك. تقول،" أود لو كان لدى شــىء لذيــذ كى أقدمه لك، ولكن الجنود قاموا بتنظيف غرفة المخزن، لم يتبق شئ تقريباً.

أقول: "أريد منك المجيء معى إلى الطابق العلوى"

"هل بإمكانك ترك الطفل هنا؟"

نحــن صديقان قديمان. اعتادت قبل أعوام، قبل أن تتزوج ثانية، أن تزورنى فى شقتى، فى أوقات العصر.

تقول،"أفضل أن لا أتركه، فى حالة استيقاظه وحيداً". وهكذا أنــتظر بينما تقوم هى بلف الطفل، ثم أتبعها صاعداً السلم؟ ما تــزال امرأة شابة، بجسد ثقيل وفخذين منتشرين لا شكل لهما. أحــاول أن أتذكــر كيف كان الأمر معها، ولكننى لا أقدر. كل النساء أمتعننى فى تلك الأيام.

تضع الطفل على الوســادة فى إحدى الزوايا، تدندن له حتى يستغرق فى النوم ثانية.

أقــول: "إنــه لمجرد ليلة واحدة أو اثنتين، كل شئ آت إلى نهايــة. عليــنا أن نعيــش كما نقدر". تسقط سروالها الداخلى، تدوس عليه مثل حصان، وتأتى إلى فى ثوبها الفضفاض. أطفئ المصباح، كلماتى قد تركتنى مكتئباً.

عندما أدخل بها، تتنهد. أدعك خدى بخدها. تعثر يدى على

صدرها، تطبق هى بيدها عليه، تداعبه، تدفعه جانباً. تقول،"إنه متوجعة بعض الشىء،"تهمس،"من الطفل".

إنــنى مـــا أزال أبحث عن شىء أريد أن أقوله عندما أحس قــدوم الذروة، بعيدة جداً، خفيفة جداً، مثل ارتعاشة أرض فى جزء آخر من العالم "هذا هو طفلك الرابع، أليس كذلك؟"ننام معاً جنباً إلى جنب، تحت الأغطية.

"نعم، الرابع، أحدهم مات".

"والأب؟ هل يقدم مساعدة؟"

"لقد ترك لى بعض المال. كان مع الجيش".

"أنا متأكد من أنه سيعود".

أحس بوزنها الرابط الجأش فى جوارى. أقول، "لقد أصبحت جــد متعلقاً بابنك الأكبر، لقد اعتاد أن يجلب لى وجباتى عندما كنت سجيناً".

نستلقى مدة من الوقت فى صمت. يبدأ بعدها رأسى بالدوار. أبــزغ ثانية من النوم فى الوقت المناسب كى أسمع ذيل نهاية خشخشة فى حنجرتى، شخير رجل مسن.

تجلس هى. تقول،"لابد أن أذهب. لا أستطيع أن أنام فى مثل هــذه الغرف الجرداء، أسمع طقطقة طوال الليل." أرقب شكلها

المعتم يتحرك بينما هى ترتدى ملابسها وتلتقط الطفل. وتقول،"هل أستطيع أن أضيء المصباح. أخشى السقوط على السلم. واصل نومك. سأجلب لك الإفطار فى الصباح، عصيدة دخن إن لا تمانع".

تقول،"أحببتها كثيراً جداً، فعلنا كلنا ذلك. إنها لم تتذمر قط. لقد نفذت باستمرار ما طلب منها، على الرغم من معرفتى أن قدمها كانت تسبب لها الأذى. كانت ودودة. كان هناك باستمرار شئ يثير الضحك فى حال وجودها بيننا".

مرة ثانية، متبلد الأحاسيس كقطعة من خشب. تبذل جهداً معى: تربت يدها الكبيرة على ظهرى، تمسك صرتى. تأتى الذروة: مثل شرارة ضربت مكاناً فوق البحر ثم ضاعت فى الحال.

يبدأ الطفل فى البكاء. تريح نفسها منى وتنهض كبيرة الحجم وعارية، تسير أمامى جيئة وذهاباً عبر رقعة ضوء القمر والطفل فوق كتفها، مربتة إياه، مدندنة، تهمس،"سينام فى دقيقة واحدة" أنا شخصياً أكون نصف نائم أحس بجسدها البارد يستقر فى الفراش بجوارى ثانية، تمرغ شفتيها فى ذراعى.

* * *

تقول، "لا أريد أن أفكر بالبرابرة، الحياة أقصر من تمضيتها

فى القلق حول المستقبل". ليس لى ما أقول.

تقــول،"أنا لا أجعلك سعيداً. أعرف أنك لا تتمتع معى. إنك دائماً فى مكان آخر".

أنتظر كلماتها التالية.

"لقد أخبرتنى هى الشىء نفسه. قالت إنك فى مكان آخر. لم تستطع أن تفهمك لم تعرف ماذا كنت تريد منها".

"لم اكن أعرف بأنك وهى كنتما على علاقة حميمة".

"كــنت دائماً هنا، الطابق السفلى. تحدثنا بعضنا لبعض عما كان يدور فى ذهنينا. كانت أحيانا تتمنى أن تبكى وتبكى. أنت جعلتها تعيسة جداً. هل عرفت ذلك؟"

إنها تفتح باباً تهب من خلاله رياح يأس مطلق.

"أنــت لا تفهميــن، " أقول ذلك بصوت مبحوح. تهز كتفيها. أواصــل:"هناك جانب كامل للقصة لا تعرفينه. لا أريد التحث عنه الآن".

يصـــمت كلانـــا، نتأمل أفكارنا عن الفتاة التى تنام فى هذه الليلة فى مكان بعيد تحت النجوم.

أقــول،"ربما عندما يأتى البرابرة على خيولهم إلينا، ستأتى راكبة معهم". أتخيلها تسير بالحصان خبباً عبر المدخل المفتوح

على رأس مجموعة من الفرسان، منتصبة على السرج، عيناها تـــبرقان، هى الســـابقة، المرشدة، تدل رفاقها. إلى مواقع هذه البلدة التى عاشت فيها ذات مرة.

"سيكون كل شىء، بعدئذ على أساس جديد".

نتمدد فى العتمة ونفكر.

تقول،"إننى خائفة فى التفكير فى ما سيجرى لنا. أحاول أن. أرجـــو الأفضل وأن أعيش من يوم إلى يوم. ولكننى فجأة أجد نفســـى أحيانـــاً متخيلة ما هو ممكن أن يحدث، وأحس بالشلل فزعاً. لا أعرف ما الذى أفعله قط. لا أقدر على التفكير إلا فى الأطفال. ما الذى سيحدث للأطفال؟"تجلس فى الفراش"ما الذى سيحدث للأطفال؟" تسأل بحدة.

أقـــول لهـــا،"إنهم لن يؤذوا الأطفال. لن يؤذوا أحداً". أربت عـــلى شـــعرها، أهدئها، أعانقها بشدة، حتى يحين وقت إطعام الطفل ثانية.

* * *

إنها تنام بصورة أفضل فى الطابق الأسفل، كما تقول. تحس بأنها أكثر أماناً عندما تصحو وتجد وهج الفحم فى الموقد. تحب كذلك أن ينام الطفل معها فى الفراش. وسيكون من الأفضل أن لا تكشف والدتها أين تمضى لياليها.

أحـــس أيضـــاً أن الأمـــر كان خطأً ولا أعود إلى زيارتها مجـــدداً، أفـــتقد وأنا نائم منفرداً، رائحة الزعتر والبصل على أطراف أصابعها. لأمسية أو اثنتين أعانى حزناً هادئاً لدنا قبل أن أبدأ بالنسيان.

* * *

أقـــف فى الفضـــاء المكشوف منتظراً قدوم العاصفة. بدأت السـماء فى الشحوب حتى تغدو الآن بيضاء كالعظم مع تدرج مـــن القرنفلى يتموج فى الشمال. يتلألأ قرميد الأسقف الأحمر. الهواء يزداد إشراقا. تضىء المدينة بلا ظلال، غامضة جميلة فى هذه اللحظات الأخيرة.

أصـــعد السـور بين الدمى المسلحة، الناس واقفون يحدقون بعيداً نحو الأفق حيث سحابة كبيرة من تراب ورمل بدأت قبل قليل فى الفوران. لا يتكلم أحد منهم.

الشـــمس تغـــدو نحاسية. الزوارق كافة قد غادرت البحيرة، وتوقفـــت الطيور عن الغناء. هناك فاصل من الصمت المطبق المطبق. ثم تنطلق الرياح.

فى حـــمى منازلهم مع غلق النوافذ بالرتاج ووضع دعامات خلف الأبواب، يبدأ الآن غبار رمادى ناعم فى التساقط منخولاً عـــبر السقف والتسقيفة ليستقر على سطح غير مغطى، مشكلاً

طبقة رقيقة على ماء الشرب، يحتك بأسناننا، نجلس مفكرين فى أنـــداد لنا من مخلوقات خارج الجدران، فى الخلاء، الذين فى أوقـــات كهـــذه لا يجـــدون ملاذاً لهم غير أن يديروا ظهورهم للرياح وأن يتحملوا.

* * *

فى الأمســيات، فى الساعة أو الاثنتين التى أتمكن خلالهما مـــن الجـــلوس بالقـــرب من المدفأة قبل أن تنتهى حصتى من الحطـــب ويـــتوجب عـــلىٍ التســـلل إلى الفراش، أشغل نفسى بهوايـــاتى القديمة، مصلحاً قدرٍ الإمكان صناديق الحجارة التى وجدتها محطمة ومرمية خارجاً فى حدائق مبنى المحكمة، ألهو مجـــدداً فى كشف معانى الكتابة المنقرضة على شرائح خشب الحور.

يـــبدو الأمر صحيحاً، مثل إشارة أولئك الناس الذين عاشوا فى خـــرائب الصـــحراء، يتحـــتم عليـــنا أيضاً وضع سجلات للاستيطان كى نترك للأجيال القادمة، تدفن تحت أسوار بلدتنا، ومـــن أجل كتابة مثل هذا التاريخ، لن يكون هناك من هو أكثر صـــلاحية من قاضينا الأخير. ولكننى عندما أجلس على مائدة الكـــتابة، ملفوفاً ضد البرد فى فروة جلد الدب القديمة الخاصة بى، مع شمعة واحدة (لأن الشحم الحيوانى متعفن أيضاً) وعند مـــرفقى كومـــة من وثائق صفر، فما أجده عندما أبدأ بالكتابة

ليست حوليات تاريخ القاعدة الأمامية للإمبراطورية ولا سجلاً يبين كيف أمضى سكان تلك القاعدة الأمامية عامهم الأخير فى تنظيم أنفسهم بينما هم قابعون فى انتظار البرابرة.

أكتب،"لا أحد زار هذه الواحات مرة واحدة وعجز عن الوقوع فى سحر الحياة هنا. عشنا فى زمن كل مواسم: الحصاد، هجرة الطيور المائية. عشنا من دون أن يفصل بيننا وبين النجوم شىء ما. كان بإمكاننا تقديم أى تنازل، لو كنا قد عرفنا فقط ما هو، كى نواصل الحياة هنا. كانت البلدة جنة على الأرض".

أظل مدة طويلة من الزمن احدق فى البيّنة التى كتبتها. سيكون مخيباً للآمال أن تكون شرائح خشب الحور التى أمضت زمناً طويلاً منكبًّا عليها تحتوى رسالة مراوغة، مريبة، وتستحق التوبيخ، مثل هذه.

أفكر"ربما فى نهاية الشتاء، عندما يقرصنا الجوع بشكل حقيقى، عندما نحس بالبرد والجوع الشديدين، أو عندما يكون البرابرة حقاً عند البوابة، ربما آنذاك، سأتخلى عن أسلوب كتابة موظف مدنى ذى طموحات أدبية وأبدأ فى سرد الحقيقة".

أفكر:"أردت أن أعيش خارج التاريخ. أردت أن أعيش خارج التاريخ الذى تفرضه إمبراطورية على مواطنيها الخاسرين. لم أرغبه قط للبرابرة من أن يكون عليهم لزاماً

تحمل مسؤولية تاريخ إمبراطورية.

كيف يمكنني أن أصدق ذلك، إنه مصدر للعار؟"

أفكــر:"لقــد عشت عبر عام زاخر بالأحداث، ومع ذلك لم اســتنتج منه شيئاً اكثر مما يستنتجه طفل فى قماط. أنا من بين كل أبناء هذه البلدة، الشخص الأقل صلاحية لكتابة المذكرات. الحداد أفضل منى بصرخات غضبه وتوجعه.

أفكــر:"ولكن عندما يتذوق البرابرة طعم الخبز، خبز طازج ومــربى الــتوت، خبز ومربى المشمش، فإن أساليبنا هى التى ستستهويهم. سيكتشفون أنهم غير قادرين على العيش من غير مهــارات رجالــنا الذى يعرفون كيف يجعلون نباتاتنا المنتجة للحــبوب ترتفع عالياً، حبوب المحيط الهادى، ومن غير براعة النساء من ذا الذى يعرف كيف يتعامل مع فواكهنا العذبة؟"

أفكــر:"عــندما يأتى يوم ما ويبحث الناس حول الخرائب، ســيكونون أكــثر استمتاعاً بآثار الصحراء من أى شىء آخر أتــركه خــلفى. وحقاً كذلك". (وهكذا أقضى أمسية فى تغطية الشــرائح واحــدة بعد أخرى بطبقة من زيت بذر الكتان وألفها بقماش زيتى. وعندما ستهدأ العاصفة، أعد نفسى، سوف أذهب إلى الخارج وأدفنها حيثما وجدتها).

أفكر:"كان هناك شىء يتفرس فى وجهى وما زالت لا أراه".

* * *

الريح تلاشت، تبدأ الآن رقائق الثلج تعوم نازلة، أول سقوط ثــلج لهــذا العام، مغطياً قرميد الأسطح بالبياض. أقف طوال الصــباح عــند النافذة، أرقب سقوط الثلج. عندما أجتاز ساحة الثكــنات أجد أن ارتفاع الثلج قد أصبح حتى الآن عدة انجات وأن خطوات قدمى تسحقه بخفة غريبة.

فى وسط الساحة أطفال يلعبون ويقيمون رجل ثلج. حذراً ألا أزعجهــم، لولا إحساسى بسعادة يتعذر تبريرها، أقترب منهم عبر الثلج.

إنهــم غير منزعجين، ولديهم ما يشغلهم عن أن يلقوا علىّ نظــرة عابــرة. لقــد أكملوا الجسد المدور الضخم، وهم الآن يدحرجون كرة الرأس.

يقــول الطفل الذى هو قائدهم، "ليجلب لى أحدكم أشياء للفم والأنف والعينين".

يخطــر بــبالى أن رجل الثلج سيكون فى حاجة أيضاً إلى ذراعين، إلا أننى لا أريد أن أتدخل.

يضــعون الــرأس على الكتفين ويملأون الفراغات بحصى للعينين، للأذنين، الأنف والفم. ويتوجه واحد منهم بقبعته.

إنه ليس برجل سيئ.

هذا ليس هو المشهد الذى حلمت به. مثل أشياء كثيرة أخرى

فى هذه الأيام. أتركه وأنا أحس بالبلادة، مثل رجل ضل طريقه مـــنذ بعيـــد، إلا أنه يصر على المضى فى طريق طويل قد لا يؤدى إلى أى مكان.

* * *

كوتزى J.M. Coetzee

ولــد جى. أم. كوتــزى فى كيب تاون، جنوب أفريقيا، عام ١٩٤٠. تــلقى تعــليمه فى جــنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية.

يحاضـــر حاليا فى جامعة كيب تاون بالإنكليزية (علم اللغة والأدب).

له عدد من الروايات المطبوعة إضافة إلى ترجمته لعدد من الدراسات اللغوية والمقالات النقدية.

من رواياته:

١- حياة وأحوال مايكل ك The Life & Times of Michail k

٢- بلاد الغسق (١٩٧٤) Dusklands

٣- فى قلب الوطن (١٩٧٧) In the Heart of the Country

نالت:

- الجائزة الأدبية الأولى فى جنوب أفريقيا
- جائزة CNA

٤- فى انتظار البرابرة Waiting For The Barbarians

نالت:

- الجائزة الأدبية الأولى فى جنوب أفريقيا
- جائزة جودفرى
- جائزة CNA

- نشرت فى بنغوين ١٩٨٠
- أعيد طبعها فى الأعوام ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥
- جائزة البوكرز ١٩٨٣

أحدث رواياته:

٥- خزى Disgrace

نالت:

- جائزة البوكرز ١٩٩٩
- جائزة كتاب رابطة الكومنولث للأدب المكتوب بالإنكليزية (نيسان ٢٠٠٠)

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت . جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت . منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت . عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت · مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت . ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت · عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت · محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر ن . نوفاليس وستيفن ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت · محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت · رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت . عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت . عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز — ت . س . إليوت — ت : فؤاد مجلى

٧٣ – نقد استجابة القارئ — جين . ب . توميكنز — ت : حسن ناظم وعلى حاكم

٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر — ل . ا . سيمينوڤا — ت : حسن بيومى

٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية — أندريه موروا — ت : أحمد درويش

٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى — مجموعة من الكتاب — ت : عبد المقصود عبد الكريم

٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣ — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

٧٨ – العولمة النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية — رونالد روبرتسون — ت : أحمد محمود ونورا أمين

٧٩ – شعرية التأليف — بوريس أوسبنسكى — ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى

٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع» — ألكسندر بوشكين — ت : مكارم الغمرى

٨١ – الجماعات المتخيلة — بندكت أندرسن — ت : محمد طارق الشرقاوى

٨٢ – مسرح ميجيل — ميجيل دى أونامونو — ت : محمود السيد على

٨٣ – مختارات — غوتفريد بن — ت : خالد المعالى

٨٤ – موسوعة الأدب والنقد — مجموعة من الكتاب — ت : عبد الحميد شيحة

٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية) — صلاح زكى أقطاى — ت : عبد الرازق بركات

٨٦ – طول الليل — جمال مير صادقى — ت : أحمد فتحى يوسف شتا

٨٧ – نون والقلم — جلال آل أحمد — ت : ماجدة العنانى

٨٨ – الابتلاء بالتغرب — جلال آل أحمد — ت : إبراهيم الدسوقى شتا

٨٩ – الطريق الثالث — أنتونى جيدنز — ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين

٩٠ – وسم السيف (قصص) — نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية — ت : محمد إبراهيم مبروك

٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق — باربر الاسوستكا — ت : محمد هناء عبد الفتاح

٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر — كارلوس ميجل — ت : نادية جمال الدين

٩٣ – محدثات العولمة — مايك فيذرستون وسكوت لاش — ت : عبد الوهاب علوب

٩٤ – الحب الأول والصحبة — صموئيل بيكيت — ت : فوزية العشماوى

٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى — أنطونيو بويرو باييخو — ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف

٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة — قصص مختارة — ت : إدوار الخراط

٩٧ – هوية فرنسا (مج ١) — فرنان برودل — ت : بشير السباعى

٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى — نماذج ومقالات — ت : أشرف الصباغ

٩٩ – تاريخ السينما العالمية — ديفيد روبنسون — ت : إبراهيم قنديل

١٠٠ – مساءلة العولمة — بول هيرست وجراهام تومبسون — ت : إبراهيم فتحى

١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج) — بيرنار فاليط — ت : رشيد بنحدو

١٠٢ – السياسة والتسامح — عبد الكريم الخطيبى — ت : عز الدين الكتانى الإدريسى

١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء — عبد الوهاب المؤدب — ت : محمد بنيس

١٠٤ – أوبرا ماهوجنى — برتولت بريشت — ت : عبد الغفار مكاوى

١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع — جيرار جينيت — ت : عبد العزيز شبيل

١٠٦ – الأدب الأندلسى — د. ماريا خيسوس روبييرامتى — ت : أشرف على دعدور

١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر — نخبة — ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه جون بولوك وعادل درويش ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي حسنة بيجوم ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ أرلين علوي ماكليود ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد سادي پلانت ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع وول شوينكا ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده فرجينيا وولف ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام ليلى أحمد ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر بث بارون ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهري سنبل ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط ليلى أبو لغد ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية فاطمة موسى ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيتل الكسندر وفنادوليا ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب جون جراي ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي سيدريك ثورپ ديفي ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة فولفانج إيسر ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب صفاء فتحي ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن سوزان باسنيت ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي) مجموعة من المؤلفين ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة مايك فيذرستون ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا طارق علي ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة باري ج. كيمب ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا كينيث كونو ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية جوزيف ماري مواريه ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف إيڤلينا تاروني ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيفال ريشارد فاجنر ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار هربرت ميسن ت : أمل الجبوري
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر ت : حسن بيومي
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي ديريك لايدار ت : عدلي السمري
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة كارلو جولدوني ت : سلامة محمد سليمان

العنوان	المؤلف	المترجم
١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ح. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوحى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميجيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت . ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمي
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت . مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو– أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت . أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت . جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت . فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت . جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت . على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت . أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت . يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – عولمة السياسة العالمية	جون بايلس وستيف سميث	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس التبريزى	جلال الدين مولوى رومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوح	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٠٤٧ / ٢٠٠١